جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا
كليـــــة العلـــــوم الإنسانيـــــة
قسم العلوم السياسية

الفكر التحرري عند عبدالحميد بن باديس وأثره في استقلال الجزائر

The Liberal Thought of Abdul Hameed Ben Badis and It's Impact on Algeria's Independence

إشراف
الدكتور محمـــد عوض الهزايمـــة

إعداد الطالب
فراس حمد فرسوني

رسالة مقدمة إلى جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في العلوم السياسية

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

تفـــويـــض الجـــامعـــــة

أنا **فراس حمد رزق فرسوني**

أفوض **جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا** بتزويد نسخ من رسالتي للمكتبـــات أو المؤسسات أو الهيئات أو الأشخاص عند طلبهـــا .

الاســـــــم : فراس حمد رزق فرسوني .
التوقيـــــع :
التاريـــــخ : ٢٠٠٩/١/٢٤م .

قــرار لجنـــــة المناقشـــــــة

نوقشت هذه الرسالة ، وعنوانهـــــا : " **الفكر التحرري عند عبدالحميد بـــن بـــاديس وأثره في استقلال الجزائر** " .

وأجيزت بتاريخ : ٢٠٠٩/١/٢٤م.

أعضاء لجنـــــة المناقشة		**التوقيـــــــع**
د. محمد عوض الهزايمـــــة	/ مشرفاً ورئيساً للجنـــة	.....
أ.د. أمين عواد المشاقبـــــة	/ عضـــــواً	.....
أ.د. عبدالمجيد علي العـــزام	/ عضـــــواً	.....
أ.د. عبدالفتاح علي الرشدان	/ ممتحناً خارجياً	.....

الشكـــــر والتقديـــــر

قال تعالى : " وما بكم من نعمة فمن الله " (النحل ، آية ٥٣) .

بعد أن أنعم الله عليّ بإكمال هذه الدراسة ، فإنني أتقدم بالشكر الجزيل إلـــى أســـتاذي الفاضل الدكتور محمد عوض الهزايمة الذي نهلت من علمه ، وإلى أساتذة قسم العلوم السياسية في كلية العلوم الإنسانية في جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا ، وإلـــى لجنة المناقشة التي أثرت هذا البحث العلمي بالمعلومات القيمة وهم :

أ.د. أمين عواد المشاقبة ، أ.د. عبدالمجيد علي العزام ، أ.د. عبدالفتاح علي الرشدان

فراس حمد فرسوني

الإهـــــــداء

أتشرف في أن أقدم هذا الجهد العلمي إلى من أوصى الله إليهمـــا بالإحـــسان ، قـــال تعالى: " **وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحساناْ** " (الإسراء، آية:٢٣) .

أبي الذي كان مثالاً في الصبر والأناة ، وقد علمني أن الرجولة موقـــف ، وتعهـــدني بالتربية ، والمساعدة والسهر على راحتي ، إلى أن انتقل إلى رحمته تعالى .

أمي التي كانت تحرسني بدعائها ، وقد غرست في شخـــصيتي العطـــف ، وكانـــت بالنسبة لي ينبوعاً من المحبة والحنان والرأفة إلى آخر لحظة في حياتها ، فرحمها الله تعالى رحمة واسعة .

أهلي جميعاً إخواني وأختي وزوجتي وولدي وفلذة كبدي (حمد) .

إلى كل من ساهم في تمكيني من إنهاء هذه الأطروحة من أصدقائي وأقربائي .

فراس حمد فرسوني

فهرس المحتويات

مسمى الدراسة	أ
تفويض	ب
قرار لجنة المناقشة	ج
الشكر والتقدير	د
الإهـــــــداء	هـ
فهرس المحتويات	و
الملخص باللغة العربية	ط
الملخص باللغة الإنجليزية	ك
الفصل الأول : مقدمات في الدراسة	١-١٥
مشكلة الدراسة وأسئلتها	٤
أولاً : مشكلة الدراسة	٤
ثانياً : أسئلة الدراسة	٤
فرضيات الدراسة	٤
أهداف الدراسة	٤
حدود الدراســـــة	٥
الإطار النظري والدراسات السابقة	٥
أولاً : الإطار النظري	٥
ثانياً : الدراسات السابقة	١٠
تعريف المصطلحات ومنهجية الدراسة	١٤
أولاً : تعريف المصطلحات	١٤
ثانياً : منهجية الدراســـــة	١٥
الفصل الثاني : عوامل بناء فكر ابن باديس التحرري	١٦-٤٠
المبحث الأول : عوامل البيئة العامة للبلاد الجزائرية	١٨
المطلب الأول : الجزائر حتى الاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠م	١٩

المطلب الثاني :الجزائر بعد الإحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠ حتى عام١٩٤٠	٢٣
المبحث الثاني : عوامل بيئة ابن باديس الذاتية	٣٢
المطلب الأول :العوامل الاجتماعية المؤثرة في شخصية ابن باديس....	٣٣
المطلب الثاني : العوامل السياسية المؤثرة في شخصية ابن باديس	٣٧
الفصل الثالث : أثر عوامل البناء الفكري في عقلية ابن باديس	٤٠-٥٩
المبحث الأول : التربية الإصلاحية والتحررية لمجتمع الجزائر	٤١
المطلب الأول : التربية المجتمعية للتحرر من القيود الاستعمارية.....	٤٢
المطلب الثاني : الأخذ بدور العلماء لدب الوعي التحرري	٤٧
المبحث الثاني : الإنخراط في العمل السياسي والصحفي	٥٢
المطلب الأول : السياسة في فكر ابن باديس	٥٣
المطلب الثاني : الصحافة في فكر ابن باديس	٥٦
الفصل الرابع : تأصيل الفكر التحرري عند ابن باديس	٦٠-٨٨
المبحث الأول : تأصيل الفكر الوطني الجزائري	٦١
المطلب الأول : تأكيد الشخصية الوطنية الجزائرية	٦٢
المطلب الثاني : تأكيد الاستقلالية الجزائرية بمعارضة التفرنس	٦٦
المبحث الثاني : تأصيل الفكر القومي العربي في الجزائر	٧٦
المطلب الأول : بعث عناصر القومية العربية	٧٧
المطلب الثاني : التأكيد على وحدة الوطن العربي	٨٥
الفصل الخامس : أبعاد الفكر التحرري عند ابن باديس	٨٩-١١٦
المبحث الأول : البعد الإصلاحي في الفكر التحرري عند ابن باديس	٩٠
المطلب الأول :أسباب الإصلاح ومعوقاته	٩١
المطلب الثاني : أسس الإصلاح ومنهجيته	٩٨
المبحث الثاني : البعد السياسي في الفكر التحرري عند ابن باديس	١٠٥
المطلب الأول : أصول الحكم في الفكر التحرري عند ابن باديس	١٠٦
المطلب الثاني : المنهج السياسي في الفكر التحرري عند ابن باديس	١١٠
الفصل السادس : آثار الفكر التحرري عند ابن باديس على الواقع الجزائري (١٩٤٠-١٩٦٢)	١١٧-١٣١

المبحث الأول : الثورة ضد المحتل الفرنسي ١١٨
المطلب الأول : مقدمات الثورة كنتاج لفكر ابن باديس التحرري (١٩٤٠-١٩٥٣) ١١٩
المطلب الثاني : اندلاع الثورة الحاسمة (١٩٥٤-١٩٦١) ١٢٤
المبحث الثاني : الاستقلال كهدف نهائي ١٢٨
الفصل السابع : الخاتمة ١٣٢
أولاً : الاستنتاجات ١٣٥
ثانياً : التوصيات ١٣٦
الملاحق : ١٣٨
الملحق رقم (١) الوقائع والأحداث السياسية في الجزائر العربية ١٣٨
الملحق رقم (٢)الثورات والمقاومة في الجزائر العربية ١٤٠
المراجع والمصادر : ١٤٥

الفكر التحرري عند عبدالحميد بن باديس وأثره في استقلال الجزائر

إعــداد

فراس حمد فرسوني

إشراف الدكتور

محمد عوض الهزايمة

الملخص

تهدف هذه الدراسة الموسومة بالفكر التحرري عند عبدالحميد بن باديس وأثره في استقلال الجزائر إلى بيان العوامل التي صاغت الجانب التحرري لفكر ابن باديس، وتوضيح المنهج الذي صاغه فكره التحرري وصولاً إلى نيل استقلال الجزائر، وبيان المدى الذي يمكن به تطبيق منهجه التحرري على حالات البلدان التي تتشابه ظروفها مع ما كانت عليه ظروف الجزائر . قامت هذه الدراسة على أساس فرضيتين ، مفاد الأولى : أن البيئة السياسية وراء كل فكر سياسي ، وفي حالة البلدان المحتلة يتصف الفكر بصفة قائمة على الحرية ، أما الثانية فمفادها أن للفكر التحرري عند ابن باديس أثراً ساهم في تمكين الجزائر من نيل استقلالها .

وقد استخدم الباحث المنهجين التاريخي والوصفي ، لأنهما يتناسبان وموضوع الدراسة ، وتكمن فيهما المقدرة على تحقيق أهدافها والإجابة على أسئلتها .

وجاءت الدراسة مؤكدة لصحة الفرضيتين ، وأوصلتنا إلى عدة استنتاجات أهمها : إن الفكر التحرري عند عبدالحميد بن باديس صاغته الظروف البيئية التي كانت سائدة في الجزائر ، وإن أسباب مرض الأمة يكمن في البدع الصوفية التي كانت سائدة في البلاد الجزائرية ، وإلى السياسة الاستعمارية الفرنسية التي كانت قائمة على أساس التفرقة وبذر بذور الخلاف بين سكان الجزائر ، وإن إحياء اللغة

العربية وتفعيلها بين الجزائريين أدى إلى دب الوعي في صفوف الجزائريين وهذا يعني ان الجزائري يختلف عن الفرنسي ، كما أن التعليم العام وإحياء التراث الإسلامي النابع من أصول الدين الإسلامي الحنيف يعزز الاستقلالية وينزع إلى التحرر من قيد المستعمرين ، مما يؤدي إلى إحداث تغيير في المجتمع وهذا ما كان يرنو إليه ابن باديس ، وإن الوحدة السياسية بين الأقطار العربية توفر دعماً كبيراً للأقطار التي تقع تحت الاحتلال وتسهم إسهاما كبيراً في تحررها .

إن ما سبق من استنتاجات استوجبت عدة توصيات أهمها : ضرورة ارتكاز الحركات التحررية الإسلامية على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في رسم سيرتها التحررية ، وتربية الأجيال الصاعدة تربية إسلامية صحيحة وهذا يبعث على الوفاق والانسجام في المواقف التي يتخذونها فيما بعد ، إضافة إلى ضرورة محاربة البدع والخرافات التي تشوش عقول النشئ مما يؤدي إلى التشويش في القرارات التي تتخذ مستقبلاً ، إلى جانب إنشاء مراكز للدراسات وتنشيط البحث العلمي في الوطن العربي ، وامتلاك الفضائيات من أجل إسماع العالم عدالة القضايا العربية والإسلامية ، وهذا مؤداه تحرير العقول من شطحات وتضليل الطرف الآخر والمعادي للأمتين العربية والإسلامية .

The Liberal Thought of Abdul Hameed Ben Badis and It's Impact on Algeria Independence

Prepared by:
Firas H. Farsouni

Supervised by:
Dr. Mohammad A. AL-Hazaimah

Abstract

This study entitled "The Liberal Thought of Abdul Hameed Ben Badis and It's Impact on Algeria's Independence" aims at exposing the factors that have constructed Ben Badis's liberal thought and explaining the approach this thought provoked towards gaining Algerian Independence . It also shows the extent to which this approach can be carried out in other contexts similar to those of Algeria then. The study has two hypotheses: Political thought can't be divorced from the political thought context in which it has arisen. Particularly in occupied countries, thought is typically characterized by pursuing and glorifying freedom;

Ben Badis's thought played such an important role in enabling Algeria to attain Independence.

In accordance with the topic of this study, the researcher used both historical and descriptive approaches. The researcher's investigation confirmed the hypotheses of the study, and the investigation revealed that:

For Abdul Hameed Ben Badis , the liberal thought is drawn up by the contextual circumstances prevalent then in Algeria. The causes of the nation's illnesses consist in the Sufi heresies which were widespread in Algeria at that time, and are also attributed to the colonial French policy. Such policy was based on the divide

and rule principle and on spreading differences between the Algerian population. However, the revival and activation of the Arabic language between the Algerians led to enhancing awareness between the Algerians. This means that the Algerians differ from the French, and that public education and revival of the Islamic heritage stemming from the sources of the Islamic religion reinforce independence along with the tendency to seek freedom from the colonialist constraints. So, this will bring about change within the community which is what Ibn Badis had always yearned to achieve. On the other hand, the political unity between the Arab countries provides major support for the countries under occupation, and contribute largely to their liberation.

The aforementioned conclusions call for making several recommendations, namely the need for the Islamic liberal movements to be based on the Holy Quran and the pure Sunna of the prophet in terms of drawing up their liberal march and raising the young generations according to the sound Islamic education. Such a trend entails conformity and concord of the stances to be adopted thereafter. Besides, it is necessary to fight heresies and superstitions thereby confusing the generation's minds and subsequently the future decisions to made. It is recommended also to establish studies centers, activate scientific research in the Arab World, and posses satellite stations for explaining the just Arab and Islamic causes. In the final analysis, the minds will thus be freed from the delusions and deceptions of the other party that is hostile to both of the Arab and Islamic nations.

الفصل الأول :

مقدمات في الدراسة

لم يكن لأهل الجزائر أن يفقدوا الثقة بأنفسهم ، أو أن يصبروا على الذل الذي لحق بهم ؛ بسبب الهجمة الاستعمارية الفرنسية على بلادهم واحتلالها ، كما أنه ليس لهم أن يتحملوا انتهاك حرمة بلادهم الواقعة بيد أجنبية تعمل على القضاء على الشخصية الجزائرية ، منهمكة في محو تاريخها ، والعبث بأسس ومبادئ دينها ، وتقاليدها وجميع مقومات حياتها المتوارثة عن آبائها وأسلافها الامجاد ، مندفعة في ذلك بدافع الاستعمار في أخبث مظاهره ، ناقضة بذلك عهودها ومواثيقها التي قطعتها على نفسها يوم نزولها بهذه البلاد بالرغم عن انوف أهلها ، فغدا الأهالي يؤمئذ يعملون – أولاً – على معارضته ومقاومته بطرق سلمية داخل البلاد وخارجها توصلاً إلى إيقاف هذا الطغيان ومظاهر القتل والتشريد والتنكيل بأهل الجزائر ، ووضع حد لهذا الاعتداء الغاشم عليها .

لعل أبرز إيضاح للعمل الفرنسي الجائر في الجزائر ما وصفه المؤرخ الفرنسي "يوديكور" وهو من أشهر كتّاب السنوات الأولى من عهد الامبراطورية الفرنسية الثانية ، حيث كتب تحت عنوان "الحرب وحكومة الجزائر ١٨٥٣" ما يلي :"إن جنودنا كانوا خجلين من أنفسهم عند عودتهم من كل حملة كانت ترسل للجزائر ، حيث قطعوا في احداها (١٨٠٠) شجرة ، وحرقوا المنازل وقتلوا النساء والاطفال والشيوخ ، حتى أن جنودنا كانوا يقطعون شحمة الاذن عند النساء الجزائريات المنكوبات للحصول على الحلق الذهبي اللواتي كن يلبسنها ، وكان جنودنا يتركوهن على تلك الحالة البشعة " (سعدالله،١٩٩٢:٢٦) .

لقد اعترفت الحكومة الفرنسية المركزية بما ذهب إليه المؤرخ "يوديكور" ، وينبغي التنويه إلى أن دولة معتدية بهذه الصورة ، تكيل أطناناً من الرصاص لتصبها على الجزائر ، وفوق رؤوس أهلها ، فماذا كانت النتيجة ؟ إن حاجزاً لا يمكن اجتيازه قد أقيم في الجزائر بين الشعبين الجزائري والفرنسي اللذين لا يمكن أن يتكلما نفس اللغة، ولا يعتنقا نفس الديانة ، ولا يلبسا نفس الثياب ، ولا يمارسا نفس طريقة الحياة ، وهنا

انبعثت الروح التحررية التي ما زادتها الايام والسنين إلا صلابة وقوة، وكعادة الاستعمار ، حيث يميل إلى التهدئة كلما زاد تدفق الشعور الوطني في العروق ، وذلك باتباع كافة الاساليب ، فتارة يركنون إلى اطلاق الوعود المعسولة وتارة أخرى يمضون في اطلاق الاشاعات عن أنفسهم يومئذ أنهم إلى بلادهم عائدون تاركين الجزائر للجزائريين ، وبذلك استطاع الفرنسيون امتصاص الهيجان الشعبي الذي كانت تؤججه الروح التحررية التي عشعشت في ضمير وذهن الشعب الجزائري (الجورشي ، ٦:١٩٧٨) .

إن كل تلك الأساليب الفرنسية ، في واقع الامر ، ما هي إلا نوع من الخبث والدهاء السياسي ، وطريقة ماكرة في الدعاية الكاذبة والتدليس على السكان الجزائريين ، وذلك لكي ينشغلوا به ريثما يستتب لهؤلاء الغزاة الأمر ، ويعم الأمن حتى ينهبوا الجزائر أرضاً وشعباً (رابح ، ١٦٤:١٩٨١) .

لقد كان ذلك الواقع الجزائري المرير بمثابة الحاضنة التي ولد فيها الوعي التحرري للشعب الجزائري ، وهذا الوعي كان في حقيقة الأمر يبحث عن قائد ، فانبرى لهذه القيادة المفكر التحرري الإمام عبد الحميد بن باديس ، والذي يعتبره الكثير من أهل الرأي رائداً من رواد النهضة العربية الإسلامية ، وشهدت له أعماله بعبقريته ، واعترف له بعظمة جهاده من قبل أهل الفكر السياسي من العلماء الذين لهم مكانتهم أمثال : حسن البنا ومالك بن نبي ومحمود قاسم ومحمد عمارة وغيرهم من علماء الإسلام ، إضافة إلى شارل اندري جوليان ، وشارل روبير أجيرون ، وجاك بيرك وغيرهم من علماء الغرب (عويمر،٤٢:٢٠٠١) .

إن التوغل في أعماق التاريخ لهذه الأمة ومعرفة حقيقة مسارها ، وجوانب القوة والنهوض فيه ، وأسباب الضعف والسقوط ، لعلها تكون خطوات موفقة في رحلة جادة ممتعة إلى عالم المصلحين والمجددين أمثال المصلح التحرري الثائر عبدالحميد بن باديس الذي أرسى دعائم وجذور الوعي في صفوف الشباب ، وزرع حب الجهاد في قلوبهم ، فعادت الجزائر حرة عربية أبية بعد غياب طويل عاثت خلاله يد المستعمرين فساداً في كل أرجاء الجزائر كأرض ، وامتدت تلك اليد بطشاً في رقاب العباد من السكان ، وأزالت آليات المستعمر كل أثر له معنى ودلالة على أن شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب.

أهمية الدراســـــة :

تنبع أهمية الدراسة من مساهمة ابن باديس الفعالة في إعادة تشكيل وعي ثقافي وحضاري جديد ، مما يدعونا إلى الوقوف مع أنفسنا كعرب للفحص والمراجعة والمكاشفة والاستفادة من تجارب الأخرين وتجارب انفسنا ، خاصة من أبناء الأمة المخلصين ، كما يدعونا بحرارة للتعرف على العلل التي اسلمتنا إلى هذا الواقع المحبط الذي نحن فيه ، واقع يحتاج إلى تغيير – دون شك– ويحتاج إلى تجاوز شعار كثيراً ما نردده : "ليس في الإمكان أكثر مما كان" إن الأوضاع الحالية للعالم اليوم تجعلنا بأمس الحاجة لنتحرك في كل الاتجاهات لعلنا نتلمس الطريق التي بواسطتها نكتشف الدواء للداء الذي يعشعش في ذواتنا ، فإن كان الاستعمار بالامس هو الداء كان طريق التحرير الذي اختطه ابن باديس هو الدواء ، كما تنبع أهمية هذه الدراسة من الدور الذي لعبه فكر ابن باديس التحرري في تهيئة الشعب الجزائري وإعداده تربوياً وثقافياً وسياسياً وإعلامياً ، حتى تتوافر لديه القدرة الناجزة التي تمكن بها من طرد المستعمر ونيل الاستقلال والتحرر من القيود الاستعمارية الفرنسية ، خاصة أن الشيخ كان يتميز بقدرته على تشخيص الحالة التي وصلتها الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي البغيض وما آل إليه الوضع الجزائري من فقر مدقع وجهل لا نظير له .

وصلت القناعة لدى فرنسا أنها قد استطاعت سلخ الجزائر من حضن العروبة وزجت بها إلى حضن الفرنسة كباقي المستعمرات التابعة لها ، هذا الأمر يجعل من رد الجميل إلى صاحبه يحتل أهمية كبرى ، فابن باديس سعى إلى إعادة الجزائر كما كانت عليه عربية اللسان إسلامية المبدأ وهذا ليس بالسهل قياساً مع ما قامت به فرنسا خلال سنوات الاحتلال لقرن ونيف من الزمان ، إن عودة الجزائر إلى ما كانت عليه يجعل الإنسان يتساءل كيف كان ذلك لابن باديس ؟ إن التعرف على ذلك له أهمية كبرى إلى الحد الذي يجعل الإنسان ، وخاصة ذاك الذي يقع تحت الاحتلال ، يفكر بمثل ما فكر به ابن باديس ، ويعمل على شاكلته لكي يخرج من دائرة الإستعمار إلى دائرة أوسع ألا وهي دائرة الحرية ، كما أن الأهمية تنبع من كون الوطن العربي اليوم يتمتع في واقعه باستقلال ناقص ، يراعى فيه مصلحة الآخر وخاصة الدول الغربية ، هذا الواقع يرسخ في نفسية الانسان العربي الخوف من الآخر ويجعل من السير في ركابه أمرا لا بد منه ، لتأتي أهمية هذه الدراسة من أجل أن تفتح عيون العرب على أنه بالأمس كانت دولة من

دول هذا الوطن الكبير تحت نير المستعمر ، ولكنها عادت بفضل أصحاب الإرادة القوية والرؤية السديدة أمثال عبدالحميد بن باديس ، بالنهج الذي انتهجه والقائم على الاصلاح المرتكز على مصلحة الجميع ونبذ الفردية ، وتجذير العقيدة في الصدور ، وزرع الإرادة في النفوس ، كانت تلك الطريق التي قادت الى التحرر من الوهم و الخوف الذي كان يسيطر على الانسان العربي ، وبعد أن انقشع الخوف تحقق الاستقلال .

مشكلة الدراسة وأسئلتها :

١. **مشكلة الدراسة :** تكمن مشكلة الدراسة في بيان المدى الذي أحدثه الفكر التحرري الذي تملك عقلية عبدالحميد بن باديس ، في ايقاظ الوعي لدى أبناء الجزائر ، حتى هبوا جميعاً يداً واحدة ، فنالوا استقلالهم وأعادوا الجزائر إلى حضن العرب ودنيا الاسلام ، ولتذليل المشكلة فقد استوجبت عدة أسئلة .

٢. **أسئلة الدراسة :** لقد أثارت مشكلة الدراسة عدة أسئلة هي :

أ- ما العوامل المؤثرة التي شكلت عقلية ابن باديس الرامي للتحرير ؟ وكيف أثرت ؟

ب- كيف أصّل ابن باديس فكره التحرري والمجالات التي تناولها ؟

ج- ما أبعاد الفكر التحرري لدى ابن باديس ؟

د- ما نتاج فكر ابن باديس التحرري ؟

فرضيات الدراسة :

إن هذه الدراسة تقوم على أساس فرضيتين رئيستين ، الأولى أن البيئة السياسية وراء كل فكر سياسي ، وفي حالة البلدان المحتلة يتصف الفكر بصفة قائمة على الحرية ، وأما الثانية ، التي ترتكز على فكر ابن باديس السياسي حيث بلور الفكر التحرري عند المفكر ابن باديس أثراً ساهم في تمكين الجزائر من الحصول على استقلالها .

أهداف الدراسة : تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية :

١. بيان العوامل المؤثرة في بناء الفكر التحرري عند ابن باديس .
٢. التعرف على أثر العوامل المؤثرة السابقة في عقلية ابن باديس .
٣. ابراز مقدرة ابن باديس على تأصيل فكره من الناحية الوطنية والقومية .

٤. توضيح ابعاد الفكر التحرري عند ابن باديس .
٥. الوقوف على نتاج الفكر التحرري الذي اختطه ابن باديس .

حدود الدراسة :

تحدد هذه الدراسة بأبعاد ثلاثة هي :

- زمنياً : الفترة التي عاشها المفكر ابن باديس وحتى إعلان استقلال الجزائر (١٨٣٠-١٩٤٠) .
- مكانياً : بلاد الجزائر العربيـــــة .
- ديمغرافياً : الشعب الجزائري .

الإطار النظري والدراسات السابقة :

أولاً – الإطار النظري :

إن فكر بان باديس السياسي وبثه للوعي التحرري والإصلاح السياسي والتربوي والثقافي والديني ، له أثرٌ ساهم في تمكين الجزائريين من تحقيق استقلال بلادهم عن فرنسا .

لقد تميزت هذه الدراسة عن غيرها بأنها لم تستبعد من ثناياها جانب التطبيق المستقبلي لمنهج ابن باديس في القضايا المشابهة لحالة وظروف القطر العربي الجزائري، كما أنها انصبت على المنهج الذي سلكه فكر ابن باديس التحرري والذي جاء على شكل خطوات ولدت من فكر الشيخ ابن باديس وصولاً إلى الهدف الكبير ألا وهو استقلال الجزائر .

تتجلى الحيوية السياسية لفكر ابن باديس التحرري بشعار حرب التحرير الجزائرية وهو قوله تعالى: " إن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الرعد:١١) ، وهذا الشعار مرتبط بفكرة القضاء والقدر من جانب ، وبحرية الإنسان واختياره من جانب آخر ، حيث أن الاعتراف بالقضاء والقدر عند ابن باديس ليس معناه إنكار حرية الإنسان وقدرته على تغيير الواقع ، ذلك التغيير بأن تكون السلطة السياسية في النهاية للجزائريين بطرد المستعمرين .

إن من خصائص الفكر التحرري الذي امتاز به فكر ابن باديس أنه كان يقوم على

استشراف الماضي والتوغل في العمق التاريخي، واستيعاب التجارب، واكتشاف العلل الحضارية وعلل التدين، وجوانب القوة والنهوض، وأسباب الضعف والسقوط، وتحديد السنن الاجتماعية الفاعلة في الحياة والأحياء، والإحاطة بالقضايا المطروحة، وتحليل جوانبها المتعددة، وسننها أو قوانينها ، والنظر في نتائج هذا الماضي وصولاً إلى الحاضر بكل معاناته ، إن من وراء كل نهضة صحيحة او بعث قويم او تحرير حقيقي إعداد روحي ونفسي وأخلاقي شامل ، يقوم به رجال يملكون طاقات عظيمة على تكوين الأشخاص وإيجاد النخب التي تتحمل عبء النهضة والإصلاح والتحرير فيما بعد .

وفي عصرنا الحديث مثال رائع على هذا النوع من الرجال استطاع بما حباه الله من قدرة على المتابعة والاستمرار أن يبعث الحياة في امة كاملة ويدفعها في طريق التحرر النفسي والعقدي والاجتماعي والسياسي بعد أن ظن الكثيرون أنها فقدت الحياة حتى كتب لها الله النصر ، ذلكم هو المفكر عبد الحميد بن باديس باعث الإصلاح في الجزائر وحامل لواء ثورة التحرير وكان سر نجاح هذا المفكر أنه أدرك هدف الاحتلال الطويل للجزائر فحاربه بنفس الاسلوب ، فكان هذا الهدف يتمثل في محو شخصية الجزائر العربية الاسلامية فحاصره ابن باديس بالعمل على ابقاء الجزائر عربية مسلمة فكانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وكانت المدارس التي انبثقت عنها ، تعنى أول ما تعنى بالقرآن الكريم واللغة العربية ، حتى تثبت في قلوب وصدور الجزائريين عقيدة الجهاد التي هي السبيل الذي اختطه الجزائريون حتى أشعلوا ثورة التحرير ، وهكذا تحقق له (ابن باديس) وللجزائريين جميعاً ما أرادوا (حميداتو،٢٠٠٨:٢٤) .

وكان الإصلاح الروحي هو العمل التمهيدي الذي قام به المفكر الكبير ابن باديس وكان منطلقه في هذا الإصلاح الجمع بين العقيدة والعمل وصولاً إلى تبني عقيدة الجهاد ذات البعد الايدولوجي والتي من خلالها حقق أهدافه .ظن المستعمر أن عمله لا خطر فيه (قاسم،١٩٦٧:١٥) ، ذلك أنه يتكلم عن الدين والخلق والعقيدة وضرورة الاصلاح الديني والتضحية من أجل الآخرين والشورى عند الملمات إعداداً لمرحلة الجهاد والكفاح أي أنه وضع البذرة وتعهد النبت حتى فوجئ الآخرون بأن روح الشعب الجزائري التواقه للتحرر أخذت تحقق من جديد مفاجآت أذهلت الغرب وكل المستعمرين الذين حاربوا المقاومة بأساليب لم تكن لتجدي لأنها

جاءت بعد فوات الأوان .لقد كان سقوط الجزائر بيد الاستعمار سنة ١٨٣٠ نذيراً بسقوط دول عربية أخرى بأيدي المستعمرين مثل تونس ومصر وليبيا ومراكش ثم سائر البلاد العربية والإسلامية ثم استيقظ المسلمون من ركود وارتفعت صيحات الاصلاح والتحرير وأدركت فئة من المصلحين المخلصين في كل بلد ، أن سلاح اليقظة لن يكون الا بالعودة إلى المنهج الصحيح وهو الاسلام المستقى من الكتاب والسنة وما تقتضيه مصلحة الامة العربية (رابح، ١٩٨١:١٦٣) .

وهكذا كان الفكر التحرري لابن باديس قد كتب له النجاح بأن أتى بالثمرة التي هي الاستقلال وكف يد المستعمر عن نهب خيرات الجزائر والتوقف عند حدوده ويعود الفضل في منهج ابن باديس إلى جمعية العلماء الجزائريين التي أسسها .كما كان للشيخ بشير الإبراهيمي الذي جاء من بعده وشهد استقلال الجزائر الدور الكبير في حركة التحرر .لقد كان ابن باديس يمتاز بالصرامة والشجاعة العقلية النادرة التي أحالته إلى تبني الفكر التحرري ، وان سلطات الاحتلال كانت تعلم بهذه الصفة التي تميز بها وهذا يدفعنا إلى القول بأن شجاعته وجرأته في المواقف كانت سبباً في إصراره على تحويل الشعب الجزائري من شعب مستعمر إلى شعب يطلب الحرية (الجورشي، ١٩٧٨:٥) ، وفي هذا السياق نجد أن ابن باديس يستحق أن يؤخذ مثلاً يحتذى إذا ما أراد الآخرون أن يحرروا بلادهم ومجتمعاتهم من كل ما لحق بها من أذى وتخلف وفي جميع المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ففكره التحرري يستحق أن يُدرس لأن المجتمعات العربية بخاصة تظللها خيمة من العبودية التي تحتاج إلى اعمال منهج ابن باديس مع الأخذ بعين الاعتبار الظروف التي تحيط بكل بلد ومجتمع .

في الثلاثين من كانون الثاني عام ١٨٣٠ قررت الحكومة الفرنسية إرسال حملتها للجزائر منهية عهد الأتراك (١٥١٥-١٨٣٠) فيها لقد جاء الشيخ ابن باديس (١٨٨٩-١٩٤٠) على رأس مئة عام من الاحتلال الفرنسي للجزائر ، وقد أدرك من خلال استقرائه لتاريخ الجزائر الحديث أن الشعب الجزائري يواجه قوة كبيرة لا يستطيع ان يقاومها بالمعارك الحربية والقتال فحسب ، بل يجب أن تتهيأ الأمة من جديد عبر إعادة تكوينها الثقافي والسياسي والإعلامي والتربوي والنهوض بها نهضة

تصحح إنحرافات المجتمع (عبل،٢٠٠٠:٦٠) . إن الفكر القائم على التطلع نحو الحرية وطرد المستعمر والحصول على الاستقلال هو فكر تحرري أصيل.

يعد الشيخ عبد الحميد بن باديس أحد أهم أعلام الحركة السياسية التحررية ومن أبرز رجالات الدعوة الإسلامية في الجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين . حفظ الشيخ ابن باديس القرآن الكريم في مسقط رأسه وساعده ثراء أسرته على التحرر من طلب الوظيفة من الإدارة الفرنسية المستعمرة (ابن باديس ،١٩٦٨:٧٢) ، وعلى ان يخصص حياته بأسرها لإحياء الروح الجزائرية وإعداد أمته للمقاومة ضد المستعمر الفرنسي لقد وضع ابن باديس خطته على أساس مبتكر يتلخص في أن يحاصر فرنسا في رفق وعزم صارم ، في الوقت الذي تظن هي فيه أنها تحاصر الجزائر ، ولم تفطن فرنسا إلى مهارة هذه الخطة إلا بعد فوات الوقت ، فوجدت نفسها محاصرة ؛ بعد ان نحى ابن باديس أعوانها طائفة بعد أخرى ، وكان من الضروري ان يفلح في تنفيذ خطته بعيدة المدى (قاسم،١٩٦٧:١٥) .

لقد تأثر ابن باديس بالعديد من المفكرين ورجال الإصلاح الديني أمثال الشيخ أبي حامد الغزالي والطاهر الجزائري ، وجمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وعبدالرحمن الكواكبي وابن عربي ، كما تأثر ابن باديس بفكر المعتزلة ، خاصةً في قضية الحرية ، حيث يرى أن الإنسان حرٌ مختار لأفعاله ، فالعقل الإنساني يدرك ذاتياً ما في الأشياء من حسن وقبح ويميز بينها (ابن باديس،١٩٦٤:٧٥) . لقد نادى عبدالرحمن الكواكبي بجامعة عربية وخلافة عربية ، لكن الظرف التي كانت تعيشه الأمة وقتها لم يكن مؤهلاً للعرب أن يحكموا بقية المسلمين ، لأن سلطانهم الفعلي لم يكن بأيديهم بل كانت بلدان العرب تحت الاستعمار. إن عبدالرحمن الكواكبي سخر جهوده بالدرجة الأولى لفضح الاستبداد ، ولم ينصرف لمسائل الإصلاح الديني بينما ابن باديس لم يدع لقومية عبر نشاطه وانصرف للإصلاح بأشكاله المختلفة. يعتبر ابن باديس مصلحاً دينياً واجتماعياً مجدداً ، فكان أول من دعا إلى الإصلاح الديني والاجتماعي على الطريقة السلفية في المغرب العربي ، يتميز ابن باديس بإخلاصه للعمل الدعوي ، على ضعف بنيته وكثرة في أعماله الأخرى من مساهمة في الصحافة ولقاء الأقران الذين بدءوا يتجمعوا حول دعوته مما أدى فيما بعد إلى تأسيسه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في سنة ١٩٣١م (حميداتو،٢٠٠٥:٥).

وقد علت مكانة المفكر ابن باديس ، حيث ان فكره التحرري تأجج في فترة سمتها الأساسية الصراع الديني والسياسي ، وهي فترة من أشد الفترات التاريخية صراعاً بين الفكر الإسلامي من جهة وبين الفكر الغربي والعلماني من جهة أخرى، ولعل الأزمة الفكرية التي تمر بها البشرية حالياً على الصعيد السياسي تضفي مزيداً من الحيوية التي تسهم في إبراز سمات الفكر السياسي الإسلامي .

حقاً بأن الاستعمار الفرنسي للجزائر استطاع بجبروته أن يفرض لغته على كثير من المثقفين في الجزائر ، غير أنه لم يستطع أن ينال كثيراً من العقيدة الإسلامية رغم ما بذله المختصون في شؤون الثقافة من محاولات لفصم العقلية الجزائرية عن طريق تمجيد التصوف الكاذب وإشاعة الخرافات والأباطيل ومحاربة الثقافة العربية الإسلامية (الخطيب، ١٩٥٨:١٢٢) ، لقد كان قدر المفكر الكبير عبد الحميد بن باديس بأعماله أن ينقي العقيدة من كل ما علق بها ويصحح الانحرافات التي اعترضت طريقها بفضل أولئك الذين أرادوا للجزائر البقاء تحت السيطرة الفرنسية الأمر الذي جعل منه رائداً من رواد النهضة العربية الإسلامية الحديثة ، وتمّ الإعتراف له بعظمة جهاده من قبل الكثيرين من أعلام الفكر في الشرق والغرب من أمثال حسن البنا ومالك بن نبي والدكتور محمد عمارة وغيرهم من أعلام الفكر في عالمنا الإسلامي الكبير وكذلك أندري جوليان وشارل روبير وجاك بيرك وغيرهم من علماء الغرب الأمر الذي جعل تحرير الجزائر من براثن الاستعمار الفرنسي يرتبط باسم المجاهد الكبير ابن باديس حيث بات تحرير الجزائر بعد عناء مر واسم ابن باديس لا يفترقان.

وبعد هذه الملامح الرئيسة ، يخلص الباحث إلى القول :بأن الشيخ -وإلى حد بعيد -حاول أن يستوعب الواقع بكل مكوناته، سواء في ذلك الداخل الإسلامي (واقع الشعب الجزائري) أو على مستوى المحاولات الاستعمارية في طمس الهوية وممارسة عملية التذويب، عن طريق الثقافة والسياسة والتربية والتعليم، وتشكيل الطابور الخامس الملحق بفرنسا والمروج لها، سياسة وثقافة وحضارة (ابن باديس ،١٩٦٨: ٩) كما أنه لم ينس الأساليب السياسية والثقافية المستمرة في السيطرة على العالم الإسلامي، المتمثلة بسياسة : (اقطع الشجرة بأحد جذوعها) ، وذلك باحتواء واختراق بعض الفئات والتجمعات التي ترفع الشعارات الإسلامية، لتصبح ظهيرة للاستعمار بأنواعه المتعددة، ولِتُوهِمَ بأن فرنسا ليست ضد الإسلام كدين، وإنما ضد بعض الأنشطة الإسلامية، ولعل هذا أوضح ما يكون في

تاريخ الجزائر.

فالبعث والإحياء للواقع الإسلامي الراكد، الذي يسوده التقليد والجمود على مستوى الداخل، ومحاولات التغريب والخروج عن منظومته المعرفية وأصوله الحضارية على مستوى الوافد، لا يكون ولن يكون إلا بالعودة إلى الرسالة (قيم الكتاب والسنة) ومعايرة الواقع بها، بحيث ينظر إلى الواقع من خلالها، وتستوحى 'الحلول لمعاناة الواقع ومشكلاته في هديها، وأن ينطلق دعاة الإصلاح من داخل الأمة، بكل ظروفها ومعاناتها وميراثها الثقافي وهذا ما وعاه عبدالحميد بن باديس وحبذه لكسب معركة التحرير تحرير الفكر الجزائري أولاً ومن ثم الانطلاق إلى تحرير الأرض من يد الفرنسي المستعمر وكان له ذلك .

ثانياً – الدراسات السابقة :

هناك العديد من الدراسات تناولت فكر الشيخ ابن باديس وإن كثرت فأهمها ما يلي:

دراسة (ابن باديس،١٩٦٨) ، التي اشتملت على انتاج الشيخ ابن باديس في المجال السياسي والتربوي وأثاره العلمية الأخرى ، وقد قام الدكتور عمار طالبي بجمع وتصنيف ذلك الإنتاج الفكري تحت عنوان آثار ابن باديس ، وقد ضم هذا الكتاب إنتاج ابن باديس المنشور في صحف ومجلات جمعية العلماء المسلمين مثل الشهاب والصراط والمنتقد .

دراسة (ابن باديس، ١٩٦٤) ، تحت عنوان تفسير ابن باديس ، لقد بدأ ابن باديس تفسيره للقرآن الكريم إلقاءً على مريديه وطلبته عام ١٩١٤ وختمه عام ١٩٣٨، ولم يكتب منه إلا قليلاً ، فلم يكن الشيخ يكتب ما يلقي من التفسير ، ولم تكن آلات التسجيل شائعة ، ولكنه كتب مجالس معدودة من تلك الدروس ونشرها في فواتح أعداد مجلة الشهاب تحت اسم مجالس التذكير . لقد كان ابن باديس يؤمن بأن بناء الإنسان أصعب ، ولكنه أجدى للأمة من تأليف الكتب .

دراسة (الخطيب ،١٩٥٨) ، فقد تناولت دور الشيخ ابن باديس من خلال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بمناهضته لسياسة البدع والخرافات والأساطير التي حاولت فرنسا مع مؤيديها في الجزائر ، بثها ونسبها إلى الأولياء الصالحين ، فأخذ ابن باديس يدافع عن مبادئ الدين وصفاء اللغة من حيث تطهير الدين مما ألحق به الإستعمار من خرافات ومقاومة سياسة فرنسا في هدم المساجد أو تحويلها لكنائس ومناهضة سياسة هدم المدارس التي تأبى الخضوع للقوانين الفرنسية المستعمرة حيث أنها لا تأخذ بالمناهج

الفرنسية الغربية ، وقد توصل الباحث الى عدة نتائج منها :أن تحرير الفرد من الداخل من كل وهم ومن كل ما يلحق بالدين من أساطير ، يضعه على أول طريق التحرر ، وبدون ذلك فان الفرد يسير وهو مكبل بالاساطير ، وعندها لا يستطيع أن يرى للاستقلال معنى وبالتالي يبقى راضخاً تحت أرادة المستعمر .

هذا وكانت دراسة (Gillespie ،١٩٥٩) ترى أن ابن باديس أكد على أن الإسلام دين الله، وهو للإنسانية كافة ، لأنه يشرّف العقل ويمجده ويستنكر استعباد الإنسان للإنسان ، ويستنكر الاستبداد في كل صوره ، فالإسلام في جوهره ديمقراطي ولا يسمح بالحكم المطلق .كما ذهبت الدراسة إلى أن اهتمامات ابن باديس امتدت من النواحي الدينية إلى الشؤون السياسية ، وقد توصل الباحث الى استنتاجات اهمها :ان الاستعباد والاستبداد عوامل تدفع الانسان الى التحرر كلما وجد فرصة سانحة لذلك وأن طريق التحرر صعب وشاق يحتاج الى التضحيات بالمال والنفس .

أما دراسة (قاسم ،١٩٦٧) ، التي تقوم على اعتبار ابن باديس زعيماً روحياً لحرب التحرير الجزائرية ، مرتكزةً على إشتغاله بالصحافة ، وتأسيسه لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، كذلك أشارت تلك الدراسة إلى منهج ابن باديس في الإصلاح وإنقاذ الجزائر مستعرضة رؤاه السياسية وتصحيحه لبعض المفاهيم الروحية ، وقيادته لحركة تربوية إصلاحية ثورية تستند إلى الوطنية والعروبة والإسلام وترسيخ تلك المفاهيم في ذهن الجزائريين بالرغم من محاربة الإستعمار الفرنسي لكل ذلك ، وقد توصل الباحث الى نتائج هامة منها :أن التربية أساس الاصلاح والصلاح وتقود الى الثورة على المستعمر ، وأن الثورة تقود الى الاستقلال والتحرر ، وأن المفاهيم المبنية على الحرية هي المفاهيم التي من خلالها يتحقق الاستقلال والتحرر من العبودية .

أما دراسة (الزيبق ،١٩٧١) فقد رأت الشيخ ابن باديس ، قائداً للحركة الإصلاحية في الجزائر ، وزعيماً تحررياً فذاً ، فقاد الشعب نحو نهضة إسلامية إصلاحية حيث صلاح المسلمين بصلاح علمائهم ، لأنهم بمثابة القلب للأمة ، ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم ، ولن يصلح التعليم إلا إذا رجعنا به إلى التعليم النبوي وينظر ابن باديس للعلم كقيمة عليا مهمة فالعلم قبل العمل ويشير إلى رؤية الدنيا من مرآة الإسلام الواسعة لا من عين المذاهب الضيقة ، وقد خلصت الدراسة لعدة نتائج منها :أن الشعب المتعلم لا يرضى عن الاستقلال بديلا مهما طال زمن الاستعمار ، وأن التعليم الديني يورث الشعوب حب الجهاد والجهاد يقود الى الحرية والاستقلال .

وجاءت دراسة (جارودي ،١٩٨٣) كشهادة محايدة موضوعية ، مقدرة جهود ابن باديس ورجال جمعية العلماء المسلمين في محاربة التعليم الاستعماري الهادف إلى تحطيم مقومات الشخصية وقطع الطفل الجزائري عن الثقافة العربية الإسلامية، وكذلك النجاح الباديسي في محاربة الخرافات والإشاعات التي تتنافى مع روح الإسلام، وقد خلصت الدراسة الى عدة نتائج أهمها : أن للتعليم قيمة كبيرة في حياة الشعوب ، وأن التعليم الاستعماري أشد وطأة من الاستعمار نفسه وكلما كانت الشعوب متعلمة كان الوعي لفهم معنى الاستقلال أوسع .

وقد تناولت دراسة (مطبقاني ،١٩٨٩) الإمام ابن باديس ، عالماً دينياً وزعيماً سياسياً، ويرى الباحث أن ابن باديس عاش حياته كلها معلماً ، وما تلك إلا مهمة الرسل عليهم السلام ، فبدأ ابن باديس معلماً على خطى النبوة ، وأهلته مهنة التعليم للزعامة والقيادة كما أن الشيخ جاء ، ونور الإسلام يكاد يخبو إلا من بصيص يظهر هنا أو هناك ، وفي سنوات قلائل – من عمر الشعوب -جعل الجزائر من أقصاها إلى أقصاها تضيء بالنور الرباني ، فانتشرت المدارس ، والمعاهد والنوادي والجمعيات ، وتراجعت برامج الفرنسة والإدماج ، وانطفأت نيران البدع والخرافات والضلالات ، وأصبح الشعب الجزائري يردد "الإسلامي ديني ، والجزائر بلادي ، واللغة العربية لغتي "، وقد خلصت الدراسة الى نتائج أهمها :أن العلم ضرورة ماسة للشعوب الناظرة الى الحرية ، وكلما اتسع نطاق ثقافة الشعوب قصرت المسافة بينها وبين الاستقلال وأذنت برحيل المستعمر .

استندت دراسة (حداد ،٢٠٠٦) على رؤية تقوم على اعتبار الشيخ ابن باديس رائداً للحركة العلمية والإصلاحية في الجزائر ، وأن له من المجد التاريخي ذخيرةً أحيا بها أمةً تعاقبت عليها الأحداث ، ودِيناً لابسته المحدثات والبدع ، ولساناً أكلته الرطانات الأجنبية .وركزت الدراسة على الميراث الأسري للشيخ وذاتيته وشخصيته ونسبه ومراحل حياته وتعليمه ورحلاته العلمية ، وتوصلت الدراسة لنتائج هامه منها :أن نهضة الامة تاتي من التعليم النابع من تراثها ، وأن اهل العلم لهم من المكانه ما يؤهلهم لتولي دفة القيادة ، وأن للعلم دوره في حياة الشعوب وفي مقدمة ذلك الدور تحرير الانسان من القيود التي تكبله والتحرر من الاستعمار والمستعمرين.

وفي دراسة (حميداتو ،٢٠٠٨) رأى الباحث أن الجزائريين في تلك الفترة كانوا مهددين بخطر افتقاد الهوية الذاتية وذوبانها في شخصية الأمة الفرنسية المسيحية،

فالاستعمار بذل قصارى جهده لتفريغ هذا الشعب من مضمونه الإسلامي وجعله مسخاً تابعاً له ، في ظل تلك الظروف القائمة ، خاض ابن باديس معركته التربوية الرائدة الهادفة إلى إحداث التغيير الداخلي في الفرد الجزائري ، بإرجاعه إلى دينه وتعلمه من مصادره الأصيلة ، كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام ، وتوصلت الدراسة الى نتائج هامة منها :أن إعداد المعلمين إعدادا جيدا قائما على اساس الطابع العربي الاسلامي يحتل مكانة هامة ، وأن المعلم الجيد خير وسيلة لإعداد جيل يقاوم الاستعمار، وأن الشعب المتعلم يصعب على الاستعمار احتوائه ، وأن مقاومة الاستعمار لا تكون عشوائية ، بل يجب أن تبنى على منهجية واعية لإنجاح عملية المقاومة للاستعمار .

وقد تناولت دراسة (طالبي ،٢٠٠٨) النزعة الإنسانية والجمالية عند ابن باديس ، حيث أن الشيخ ابن باديس يعتبر أن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها والحدب عليها في جميع أوطانها وإحترامها في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها هو ما نقصده ونرمي إليه ، وقد استمد ابن باديس هذه النزعة الإنسانية من التصور القرآني للحقيقة الإنسانية ، تلك الحقيقة التي احترمت الكائن البشري ، وأولته الدرجة الأولى من الكرامة ، وأوضحت للناس أجمع أن بني الإنسان من طينة واحدة، تتساوى فيها جميع الأجناس ، وقد خلصت الدراسة الى عدة نتائج أهمها :أن مراعاة مصالح الشعوب لا تقتضي تفضيل مصلحة شعب على اخر فهم جميعاً بشر متساوون ، وأن التعايش السلمي القائم على الاحترام بين الشعوب أفضل وسيله لقيام علاقة ودية بينها.

ومن خلال مطالعتنا للدراسات السابقة فإن دراستنا هذه تتميز عنها بما يلي :

١. إن هذه الدراسة إنصبت على الجانب التحرري لفكر ابن باديس من حيث مرتكزاته ومقتضيات الظروف التي صاغته .
٢. إن هذه الدراسة تنصب على المنهج الذي سلكه الفكر التحرري الباديسي والذي جاء على شكل خطوات جاءت من لدن فكر المفكر وصولاً إلى الهدف الكبير والمتمثل باستقلال الجزائر .
٣. إن هذه الدراسة بينت الصعاب التي اعترضت طريق ابن باديس وهو ماض إلى هدفه الأخير وهو الاستقلال .
٤. إن الدراسات السابقة استبعدت من ثناياها جانب التطبيق المستقبلي لمنهج ابن باديس في القضايا المشابهة لحالة وظروف القطر العربي الجزائري.

تعريف المصطلحات ومنهجية الدراسة :

أولاً – تعريف المصلحات :

تتضمن هذه الدراسة المصطلحات التالية :

– **الفكر** : هو إعمال الخاطر في شيء ، وإمعان النظر والتأمل في ماهية الأشياء ، والفكر هو إحساس وحركة داخل النفس البشرية الهدف منه هو الوصول إلى المبادئ والانتقال منها إلى المطالب التي تحتاجها النفس(الهزايمة وحنون،١٩٩٣:٦) كما يعرف الفكر بأنه إعمال الفكر في المعلوم للوصول إلى معرفة المجهول وبالتالي ما هو إلا الصورة الذهنية لذلك المجهول المراد تحقيقه (مجمع،١٩٧٢:٦٩٨) .

إن الفكر إذاً هو مجموعة الآراء والأفكار التي صاغها العقل البشري لتفسير ظاهرة ما ، وعلاقاتها بالعالم والمجتمع من حيث قوتها ووجودها ووظائفها وخصائصها والقائمين بها وقد يستقى الفكر من التصورات المثالية أو من واقع التجارب البشرية .

-**التحرري** : نسبة إلى التحرر وهو حرية الإرادة (بيلي، ٢٠٠٤:٣٥٤) أو هو التطلع نحو الحرية ، والانعتاق من الاستعمار والقيود ، حيث أن التحرير الوطني ، مبدأ استحدثه الماركسيون ويدعو إلى الانتفاضات المسلحة ضد الأنظمة القائمة في العالم النامي ، وكان هذا المفهوم يستهدف بالأساس الأراضي المستعمرة ، ويجادل بأن تلك الحروب هي حروب ليس إلاّ ، إذ أن غرضهم هو تحرير الجماهير من الحكم الأجنبي وتثبيت حق تقرير المصير (إيفانز،٢٠٠٤:٥٧٢) إذا أردنا أن نعّرف التحرر مع الأخذ بعين الاعتبار ما تمّ إيراده سابقاً ، فإن التحرر هو كل ما يضطلع به فرد أو مجموعات أو شعب ، واقع تحت نير الإستعمار والإحتلال ، من خطط أو أعمال ذات صبغة عسكرية أو مدنية ، بهدف التخلص من ذلك الإستعمار .

– **الفكر التحرري** :هو مجموعة الآراء والأفكار التي صاغها العقل البشري بإمعان النظر والتأمل في ماهية الأشياء للوصول إلى هدف سامٍ يتمثل ببلوغ الحرية والانعتاق من سيطرة الاستعمار .

– **أثر** : هذا اللفظ مأخوذ من أثرت الشيء – بفتح الهمزة والثاء – أي : نقلته أو تتبعته ومعناه عند أهل اللغة : ما بقي من رسم الشيء وضربة السيف ، ويجمع على آثار ، وأثر في الشيء : ترك فيه أثراً (ابن منظور،بدون:٢٥) .

ثانياً – منهجية الدراسة :

سنعتمد في تحقيق الأهداف والاجابة على اسئلة الدراسة على المنهج التاريخي والمنهج الوصفي ، لأن الأول به نعود للماضي لاستحضار الحاضر ، وأما الثاني فإننا والحالة هذه لا بد من وصف الظاهرة السياسية التي كانت تشغل هم ابن باديس حتى اختط طريق التحرير فكراً وممارسة ، وتبرز أهمية المنهج التاريخي لمعرفة الماضي وأثره على الحاضر .

أما من حيث تقسيم الدراسة ، ولتسهيل مهمة إنجاز الأهداف وتحقيق إجابات للأسئلة المطروحة فقد تناولنا الدراسة بفصل تمهيدي وستة فصول أخرى حيث تضمن الفصل الأخير الخاتمة واستنتاجات الدراسة والتوصيات التي استوجبتها.

الفصل الثاني :

عوامل بناء فكر ابن باديس التحرري

لا يمكن فهم الدور الذي لعبه ابن باديس في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، إلا إذا فهمنا الظروف التي صاغت فكره التحرري آخذين بعين الاعتبار البيئة العامة للبلاد الجزائرية ما قبل الاحتلال الفرنسي وصولا إلى الاستقلال الذي ناضل من أجله ابن باديس . إن العصر الذي عاش فيه ابن باديس كان عصر بداية اليقظة الوطنية العامة في الجزائر وكانت البلاد تبحث لها عن طريقة ناجحة للخروج من ظلام الاحتلال الذي أطبق عليها بكل قواه ، وسلبها جميع الحقوق الأساسية للإنسان.

لقد كانت الآراء والاتجاهات التي سادت الجزائر في عهد الاحتلال وخاصة فيما بين الحربين العالميتين متقلبة ، وإذا أخذنا في الحسبان أن الاحتلال الفرنسي للجزائر بدأ عام ١٨٣٠م وانتهى بالاستقلال عام ١٩٦٢م كما أن الشيخ ابن باديس ولد عام ١٨٨٩م، أي أنه ولد خلال فترة الاحتلال وعاش شبابه في أوج تلك الفترة التي شهدت طلب بعض الساسة الجزائريين مساواة الجزائريين بالفرنسيين في الحقوق والواجبات مع المحافظة على قانون الأحوال الشخصية الإسلامية ، وبعضهم الآخر نادي بتطبيق الاندماج الكامل في فرنسا لكي يحصل الجزائريون على حقوق المواطنة الفرنسية، مع التنازل الكامل عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامي ، وهم المعروفون في تاريخ الجزائر الحديث بدعاة الاندماج والفرنسة والتجنيس . وبعضهم ارتموا في أحضان الاستعمار ، وأصبحوا عملاء للاستعمار الفرنسي ضد مصالح بلادهم العليا ، وهم المعروفون في تاريخ الجزائر بجماعة بني وي وي (العقاد ، ١٩٦٣ : ٢٠).

وفي مقابل تلك الاتجاهات كانت هناك طليعة ثورية جزائرية نادت بالاستقلال التام للجزائر وتكوين جمهورية جزائرية حرة ذات سيادة ، وأن تحرير الجزائر يجب أن يتم في نطاق حضارتها العربية الإسلامية ، لا في نطاق الاندماج والتجنيس والفرنسة .

إن سوء أحوال الشعب الجزائري قد بلغت حداً لا يطاق في ظـــل ســـيطرة استعمارية فرنسية خانقة وحرمان كامل من حقوق الإنسان واستبداد طـــاغ وتحكـــم مطلق في كل مقدرات الشعب الجزائري ، وتحقيقاً لأهداف هذا الفصل فإننا سنتناوله من خلال المبحثين التاليين :

المبحث الأول : عوامل البيئة العامة للبلاد الجزائرية .

المبحث الثاني : عوامل البيئة الذاتية لعبد الحميد بن باديس .

المبحث الأول :

عوامل البيئة العامـــــة للبلاد الجزائريـــــة

لقد انسلخت ولايتا الجزائر وتونس في القرن الـــسابع عـــشر عـــن الدولـــة العثمانية فصارت للجزائر حكومتها المستقلة التي لا تربطهـــا بتركيـــا إلا الرابطـــة الروحية التي تربط كل أمم الإسلام بخليفة المسلمين ، ولم يكن هناك تمـــايز بـــين الأتراك والجزائريين لأن الشعبين يدينان بالإسلام.

لقد كان للجزائر حكومة وطنية يشرف عليها الوالي وتدير شؤون البلاد مـــن مقرها الرئيس في مدينة الجزائر ، وتتكون هذه الحكومة من وزارات متعددة ، وقد اعترفت دول كثيرة بالدولة الجزائرية وتقربت إليها وطلبت ودها لتفوقها وســـيادتها على الجزء الغربي من البحر المتوسط ومن هذه الدول التي كان للجزائر علاقـــات دبلوماسية معها : الولايات المتحدة الأمريكية ، فرنسا ، بريطانيا ، هولندا ، وكـــان الاقتصاد الوطني حجر الزاوية في بناء الأمة فكان ريف الجزائر عظيم الخـــصوبة غني بقمحه وخضرواته وفاكهته مما أعطى قطاع الزراعة أهميـــة كبـــرى ، أمـــا الصناعة فكانت تستغل فيها حاصلات التربة إلى جانب ما يـــستخرج مـــن بـــاطن الأرض كالحديد والنحاس والمرمر ، لكن الظروف انقلبت بعد الاحتلال الفرنـــسي للجزائر ؛ فشاع الفقر والبؤس والجهل وقامت الثورات ضد المستعمر الذي تمكـــن من إخمادها ، وفرضت فرنسا حكماً ارهابياً على الشعب الجزائري في ظل القوانين الاستثنائية التي كانت غايةً في القسوة والعنف تحصي علـــى الجزائـــريين جميـــع حركاتهم وسكناتهم ، وأغلقت المدارس والمساجد إلا تلـــك التـــي تخـــدم أغـــراض المستعمر ، واستهدفت فرنسا طمس الشخصية الوطنية الجزائرية وهدم اللغة العربية وإفساد القيم الأساسية للشعب الجزائري .

ولتحقيق أهداف هذا المبحث، فإننا سنتناول أوضاع الجزائر من خـــلال المطلبـــين التاليين:

المطلب الأول: الجزائر حتى الاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠م.

المطلب الثاني: الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠ حتى عام ١٩٤٠.

المطلب الأول :

الجزائر حتى الاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠م

لم يكن للجزائر بحدودها الراهنة ، وتعريفها السياسي الحاضر ، تاريخ قديم مستقل بها ، فتاريخها مشترك مع تونس ومراكش التي كانت تشكل وطناً واحداً هو الوطن البربري ، وقد وجدت آثار تاريخية تدل على أن شمال افريقيا وخاصة المنطقة الوسطى منها (الجزائر) كانت آهلة بأناس العصر الحجري ، وقد لعبت شمال افريقيا دوراً كبيراً في هجرة الشعوب إليها ، كما اختلط سكانها الاصليون بالميد والفرس والأرمن ، وكونوا وحدة قومية (الخطيب ، ١١:١٩٥٨) .

البربر كلمة يونانية بمعنى صوت الألثغ ، وقد أطلقها اليونان على كل إنسان أو بلاد أجنبية عنهم ، وينحدر البربر من أصل سامي وينتسبون إلى مازيغ بن كنعان، ولغتهم هي اللغة المعروفة اليوم بلغة "تمازغت" ، أما دياناتهم فقد كانت عبارة عن تقديس بعض الحيوانات والطيور والزواحف ، وقد عثر في الجزائر على رسم أثري لأحد آله المصريين "عمون رع" وهو على صورة كبش تحيط به الهالة (الجيلالي، ١٩٥٣ : ٤٨) ، وهذا يدلنا على أن الجزائريين القدامى كانوا على اتصال وثيق بفراعنة مصر ، وأن الجزائر كمصر عريقة في التاريخ والحضارة .

لفتت سواحل شمال افريقيا الغنية ، أنظار الفينيقيين الذين أخذ الإغريق يزاحمونهم تجارياً في الشرق ، ولم يلبثوا أن غزوا أسواق هذه البلاد وأنشأوا مراكز تجارية لهم على طول الساحل. وفي القرن التاسع قبل الميلاد أنشأوا مدينة قرطاجنة التي كانت لهم بمثابة حصن قوي لتأمين مصالحهم التجارية في الجزء الغربي من البحر المتوسط ، ثم تعاقب على هذه البلاد بعد القرطاجنيون ، الرومان ، ثم حل بها الفاندال وأتى بعدهم البيزنطيون ، وتوالت الثورات الوطنية ضد المستعمرين الأجانب إلى أن جاء الفتح العربي الإسلامي ، فخلصهم من نير العبودية ، ونشر بينهم جواً من السكينة والعز والإيمان (سعدالله، ٣٥:١٩٩٨).

تمّ فتح شمال إفريقيا وخاصة الجزائر سنة ٧٠١ م وذلك بعد أن تمّ القضاء على الكاهنة ملكة الاوراس التي كانت تعد من أشد مقاومي الفتح العربي ، وبالقضاء

على تلك الكاهنة التي تذمر منها الشعب في أواخر عهدها ، ومد يد الترحيب والمساعدة للفتح العربي ، انتشر الإسلام في أنحاء البلاد بسرعة مذهلة ، مما يدلنا على مدى تشوق البربر لهذا الدين الحنيف الذي وجدوا فيه خير ملجأ للطمأنينة والسعادة ورأوا فيه المثل الأعلى للحرية والسلام ، حيث أصبحت شمال افريقيا جزءاً من الوطن العربي ، بعد سنين من الفتح ، وانضوى أبناؤها تحت لواء القومية العربية ، وأطلقوا على بلادهم اسم المغرب العربي ، تأكيداً لعروبتهم ، وتمجيداً لتاريخهم الذي هو جزء من تاريخ الأمة العربية (الخطيب ، ١٩٥٨ :١٤).

وظل المغرب العربي يأتمر بأوامر الأمويين ومن بعدهم العباسيين حتى خلافة هارون الرشيد ، وبعد ذلك تجاذبت الحكم فيه سلالات عربية مجيدة هي أقرب شيء إلى الأحزاب السياسية والطرق الدينية التي تتمتع بفلسفة خاصة في الحكم ، واجتهاد تطوري في الدين ضمن الإطار الإسلامي العام ومن هذه الأحزاب أو السلالات العربية ، الرستميون ، الادريسيون ، والأغلبيون الذين شيدوا جامع الزيتونة في تونس (الشامي ،١٩٨١:١٧٢) ، والفاطميون الذين فتحوا مصر وأقاموا فيها خلافة ودولة عظمى، وشيدوا مدينة القاهرة وبنوا فيها الجامع الأزهر، والصنهاجيون والحماديون الذين ازدهر في عهدهم المغرب العربي وخاصة المغرب الأوسط والجزائر .

لقد نقل الإيطاليون إبان حكم الحماديين علوم الجبر والمقابلة ، وأخذوا عن العرب في منطقة بجاية صناعة الشمع ونقلوه إلى اوروبا . والمرابطون الذين أسسوا مراكش وحكموا اسبانيا والموحدون الذين قامت على أنقاض دولتهم الوحدات السياسية المعروفة إلى اليوم باسم مراكش، الجزائر وتونس ، وفي هذا العصر راح ملوك البرتغال واسبانيا بعد أن زالت دولة العرب هناك، يستعينون بفرسان اوروبا المسيحية في شن غارات السلب والنهب على الشواطئ العربية ، فاستنجد المغرب العربي بقائدين بحريين تركيين هما عروج وخير الدين بربروس ، وذلك للعمل معهما على حماية الشواطئ الطويلة من الغارات والهجمات (العقاد،١٩٦٨:٢٨).

في القرن السابع عشر بدت الدولة الجزائرية حرة مستقلة لها حدودها السياسية ورايتها الوطنية ، تتمتع بجميع عناصر الدولة التي حددتها القوانين الدولية

والعرف الدولي ، وليس أدل على ذلك من قول المؤرخ الفرنسي المعاصر "شارل أندريه جوليان" في كتابه "تاريخ شمال إفريقيا" : لقد انسلخت ولايتا الجزائر وتونس في القرن السابع عشر كل الانسلاخ عن الدولة العلية ، فصارت للجزائر حكومتها المستقلة التي لا تربطها بتركيا الا الرابطة الروحية التي تربط كل امم الإسلام بخليفة المسلمين ، فكان للجزائر من الحرية السياسية أكثر مما لأي دولة من الممتلكات البريطانية المستقلة في ذلك الوقت ، وبما أن الشعبين التركي والجزائري يدينان بالإسلام الذي يناهض كل تفرقة عنصرية ، فلم يكن هناك تمايز أو تفرقة بين الجزائريين والأتراك ، كان للجزائر حياتها الوطنية والمنبثقة عن الحياة العربية الصميمة ، كما أن لها حياتها العالمية ، وقد كانت للجزائر حكومة وطنية يشرف عليها الداي (راشد،٢٠٠٤:١٣٢) .

وجد بالجزائر أسطول بحري ضخم يعد من أقوى أساطيل العالم في عصره ، وسبب تضخم هذا الاسطول الحربي هو حاجة الجزائر للدفاع عن ساحلها الممتد على مسافة ١٢٠٠كم ، ومما يؤسف ذكره أن هذا الاسطول أو القسم الأكبر منه ذهب ضحية مؤامرة خسيسة دبرت عليه وعلى الاسطولين المصري والتركي عام ١٨٢٧، وذلك بعد أن اتفقت انكلترا وفرنسا وروسيا سراً على تدمير قوة المسلمين البحرية في البحر المتوسط ، وكانوا قد أعدوا العدة لذلك ، وانقضوا على الاسطولين المصري والتركي فجأة ، فسارع الاسطول الجزائري لنجدة شقيقيه ، وأسفرت المعركة عن اغراق الاساطيل الاسلامية الثلاثة (السيد،٢٠٠٤:١٤١) . وعلى الرغم من نتيجة هذه الخدعة ، فقد ظلت باقي قطع الاسطول المتبقية في الجزائر ، سيدة الموقف على السواحل الجزائرية كما ظلت الحارس الأمين للجزائر حتى سنة ١٨٣٠م ، ولم تكن الحكومة الجزائرية كثيرة الاهتمام بالقوات البرية لانعدام الخطر عليها من الداخل ، فعلى الحدود الشرقية والغربية توجد تونس ومراكش ، وهما قطران تربطهما بالجزائر روابط الدين والقومية ، ويشدهما إليها التحالف الطبيعي ضد عدوان الطامعين الجشعين من دول أوروبا ، وتجمعهما بها الآمال والأحلام ، أما الجنوب فتحميه الصحراء الكبرى حيث لا ماء ولا حياة بل رمال صفراء تمتد آلاف الاميال داخل القارة السوداء (راشد،٢٠٠٤:١٢٩).

على الرغم من هذا فقد كان للجزائر جيش صغير منظم يفوق الخمسة عشر ألف جندي واجبهم السهر على حماية الوطن ، وشد أزر الدرك والشرطة في المحافظة على الأمن الداخلي ، وكانت أكثر فرق الجيش تعسكر في الحصون الساحلية ، كما أن الحكومة كانت تعتمد على شبان القبائل في صد أي اعتداء . لقد كانت الزراعة مزدهرة حيث انتشرت البساتين واعتنى الجزائريون بتربية المواشي لتوفر المراعي ، وبفضل ما كان يستخرج من باطن الأرض من معادن كالحديد والنحاس فقد أقيمت مصانع السلاح والسفن ، والبضائع المصدرة من الجزائر هي المواد الغذائية والمواشي والغلال والتين والزيتون والتمر والزيت والصوف والخشب والنحاس ، تنقلها سفن الأسطول الجزائري التي تعود محملة بالأسلحة غير تلك التي تصنع بالجزائر ، ومحملة أيضاً بالحرير والمرمر (الخطيب،١٩٥٨:٢٦).

استمد القانون القضائي الجزائري روحه من تعاليم الشريعة الإسلامية التي كانت تعد القانون العام ، وكان على رأس هذا القانون وزير الشرع والقضاء وهو في الوقت نفسه مفتي الجزائر الأكبر وقاضي القضاة ، ويحتكم أفراد القبيلة في القضايا الصغيرة إلى شيخهم ، أما الأمور الكبيرة فيتولى النظر فيها قاضٍ ، وفي حال وقوع خلاف بين جزائري وأجنبي يحكم بينهما قاضٍ جزائري ، أما المسيحيون فكانوا يحتكمون إلى قناصلهم حيث ينظر كل قنصل في قضايا أبناء جنسيته ، ووجدت في الجزائر أيضاً محاكم ملية يهودية ، وبهذه الطريقة كان النظام القضائي الجزائري يعد خير ضمانة لحرية واحترام العقائد الدينية المختلفة (السيد،٢٠٠٤:١٤٣).

إن الجزائر على هذه الحال تعد دولة ذات سيادة إلا أن الافكار الاستعمارية أخذت تدور في عقلية المستعمرين فجعلوا الجزائر محور تفكيرهم لكونها تتمتع بالكثير من الخيرات التي تختزن داخل الأرض وما هو على ظاهرها ، وهذا ما نلحظه من شاطئها الطويل الممتد على البحر المتوسط والذي يبلغ طوله (١٢٠٠) كم ويقابل الشواطئ الأوروبية ويحاكيها (راشد،٢٠٠٤:١٣٤).

المطلب الثاني:

الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠ حتى عام ١٩٤٠

إذا أردنا الالتفات إلى الأسباب المزعومة التي برّر الاستعمار الفرنسي بها احتلاله الجزائر وبقاءه فيها ، نجدها أسباباً ضعيفة خاوية يمكن دحضها بسهولة ، فقد جاء في هذه المزاعم الفرنسية أن "ضربة المروحة" كانت سبباً مباشراً للاستعمار حيث حضر "دوفال" قنصل فرنسا بالجزائر في ليلة عيد الفطر الموافق ١٨٢٧/٤/٢٩م ، ليقدم التهنئة إلى الداي في قصره ، وبينما هم في حديث ، استفسر الداي عن سبب تأخر فرنسا في تسديد ما عليها من ديون للجزائر ، ما كان من القنصل إلا أن أجاب بأسلوب يخرج عن الدبلوماسية ، بأن حكومته لن تجيب ، وأن جلالة الملك لن يتنازل إلى حد الرد على داي الجزائر ، فما كان من الداي ، بعد هذه الاهانة إلا ان اكتفى بالصياح على "دوفال" وكانت في يده مروحة من الريش وأشار بها إليه أن يخرج من حضرته ، فمست أطراف المروحة وجه القنصل ، وخرج من القصر صاخباً ، هناك سبب ثان عللت به فرنسا استعمارها للجزائر بأن الأخيرة لم تكن دولة وطنية إبان الاحتلال بل كانت ملكاً من أملاك تركيا ، كما ذكرت فرنسا بأن الاحتلال جاء لوضع حدٍ لأعمال القرصنة من البحارة الجزائريين وإذا أخذنا برأي فرنسا القائل إباحة استعمار دولة كانت تمتهن القرصنة ، فقد كان من الأولى بفرنسا استعمار الدول الأوروبية التي عاث قراصنتها في السفن الفرنسية سلباً ونهباً ، كما ادعت فرنسا بأن الجزائر كانت غير مثقفة قبل الاحتلال ، وأنه لم يكن يوجد فيها مدارس أو معارف وجاء الاحتلال الفرنسي لتثقيف هذا الشعب الجاهل ، وهذا افتراء لا يقبله الواقع التاريخي والعقلي (الخطيب ، ١٩٥٨:٣٠).

إن الدوافع الحقيقية للاحتلال الفرنسي للجزائر هي دوافع سياسية اقتصادية دينية ، فقد طمعت فرنسا في اقتصاديات الجزائر أكثر مما طمعت في التحكم في البعد السياسي والديني في الجزائر ، لقد أدى تلاشي أحلام الإمبراطورية الفرنسية بعد طردها من كندا ومصر والهند في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، وهزائمها المتوالية في أوروبا ، إلى تطلع فرنسا إلى آفاق أخرى

واحتلال بلاد أضعف منها قوة لاستعادة هيبتها المفقودة ، كما حرصت الحكومة الفرنسية على شغل الرأي العام الفرنسي بحرب خارجية تلهيه عن معارضة الملكية وكبت الحريات وسجن الجمهوريين والتنكيل بهم (سعد،١٩٨٣:٤٥).

أما الدوافع الاقتصادية فتتمثل بتصريف البضائع الفرنسية الصناعية والسيطرة على المواد الأولية الجزائرية حيث كانت الجزائر وقتها تمون فرنسا في حروبها النابليونية ضد أوروبا بالحبوب والمواد الغذائية وبعض الضروريات الحربية ، إضافة إلى عدم سداد فرنسا للأموال التي اقترضتها من الجزائر ، ويبرز أيضاً الأمل الفرنسي كدافع حقيقي لاستعمار الجزائر بهدف بسط النفوذ المسيحي على إفريقيا ومن ضمنها الجزائر (سعدالله ،١٩٩٢:٧٨).

لقد أرسلت فرنسا حملتين كبيرتين للاعتداء على الجزائر سنة ١٦٨٢ و١٦٨٨ غير أن الأسطول الجزائري ردهما على أعقابهما مدحورتين ، ثم جاءت الثورة الفرنسية تبشر العالم بالحرية والمساواة ، وتخفي بين طياتها الظلم والاستعمار ، حيث أعاد قادتها إلى الأذهان فكرة التوسع على حساب الشعوب ، فأرسلت الحكومة الفرنسية سنة ١٨٢٢ مهندسين جاسوسين للجزائر في مهمة سرية هدفها البحث عن منفذ خال على الساحل لتتمكن القوات الفرنسية من الرسو فيه دون مقاومة ، ثم حاكت فرنسا وبريطانيا وروسيا مؤامرة معركة "نافاران" في المياه اليونانية لاستدراج العرب والمسلمين للقضاء على قوتهم البحرية ، وفرنسا تعلم أن الأسطول الجزائري لن يترك أخويه المصري والتركي ، وأرسلت الحكومة الجزائرية قسماً كبيراً من أسطولها لمؤازرة إخوانه في "نافاران" ، وانزلقت الأساطيل العربية والإسلامية في المؤامرة الدنيئة ودارت عليها الدوائر وابتلعها البحر (العسلي ، ١٩٨٢:٤٨) . وعندما علمت فرنسا بترك الاسطول الجزائري سواحل بلاده ، أوعزت إلى قنصلها لإثارة الخلافات بينها وبين الجزائر كي تتمكن من تبرير غزوتها الاستعمارية ، وحدثت "ضربة المروحة" فسيرت فرنسا سنة ١٨٢٧ حملة كبرى لمدينة الجزائر لكنها أخفقت وانهزمت وعادت فرنسا إلى خرائط الجواسيس ، فدبرت خطة مفاجئة وسرية ، حيث انطلقت جيوشها الجرارة من ميناء طولون الفرنسي سنة ١٨٣٠ حيث فوجئ أهالي "سيدي فروج" بسفن كبيرة ترسو

على الساحل تنزل الرجال والعتاد ، وبدون سابق إنذار أعلنت فرنسا الحرب على الجزائر ودخلت القوات الفرنسية الجزائر من جهة لم تكن الحكومة الجزائرية تتوقع دخولها منها ، وما كاد الخبر المفاجئ يطرق مسامع الداي حتى جهز جيشه الصغير لرد العدوان ، فأبطأ من تقدم الجيش الفرنسي الذي كان يقتل كل إنسان يصادفه في طريقه دون تمييز في الجنس والسن ، وبعد أن شدد الفرنسيون الحصار على مدينة الجزائر ، لم يجد الداي بدّاً من التسليم حقناً للدماء وفرّ هارباً إلى مصر ، بعد أن وقّع مع قائد الجيش الفرنسي اتفاقية تسليم مدينة الجزائر التي تنص على تعهد فرنسا بترك الأموال الخاصة بالداي حسين وإتاحة المجال أمامه للبقاء أو السفر وكذلك إطلاق الحرية التامة للدين الإسلامي والجوامع الأهلية وتكفل أموال وأعراض وتجارة أهل البلاد (راشد،٢٠٠٤:١٣٦) ، ولم يقنع المستعمر باحتلال العاصمة وحدها بل شرع في ضم جميع الأراضي الجزائرية .

إن شعار فرنسا الخداع "حرية . مساواة. إخاء" فإنه يعني ، بعد إماطة اللثام عن جوهره ، استعباد الشعوب الحرة الآمنة ، فالقوات الفرنسية نهبت خزينة وأملاك الدولة الجزائرية بعد احتلالها العاصمة ، وقدرت هذه الأملاك بمبلغ ١٥٠ مليوناً من الفرنكات الذهبية (الخطيب،١٩٥٨:٤٩) ، وقد سرت موجه من الغضب ، عمت صفوف الشعب ، بعد سقوط العاصمة ، واستمرت المواجهات بين القوات الفرنسية والشعب الجزائري ، وكان على رأس الصفوف الجزائرية حكام جزائريون من عهد الداي حسين ، التأمت تحت راية الأمير محي الدين جنوب شرق مدينة معسكر ، حيث حارب الأمير ببسالة طيلة عامين كان النصر حليفه ، وقد برزت خلال تلك المعارك شجاعة الأمير عبد القادر ومقدرته في إدارة الحرب مما أدى بالأمير محي الدين نظراً لكبر سنه إلى مبايعة ولده الأمير عبد القادر بالإمارة والجهاد ثم نصبه الجزائريون سلطاناً عليهم ، حيث أخذ على عاتقه إحياء الدولة الجزائرية من جديد فأنشأ الوزارة واتخذ من مدينة معسكر مقراً رئيسياً لها بعد سقوط العاصمة الأولى في يد العدو ، وأبطل الأمير قوانين الضرائب والمغارم التي كانت فرضتها حكومة الداي فزاد التفاف الشعب حوله . وما كاد الأمير يفرغ من تنظيم أجهزة الدولة ، حتى أرسل إلى عمال الحكومة السابقة في المناطق التي لم يغتصبها العدو بعد ،

طالباً منهم الولاء لحكومته الجديدة ، فأجابته الأغلبية منهم بالسمع والطاعة ، اما الذين رفضوا فسرعان ما أقالهم الأمير بالمنطق أو بالقوة (راشد،٢٠٠٤:١٣٨).

حين علم العدو بظهور الأمير عبد القادر على رأس الحكومة الجزائرية تملكه الرعب ، فراح يغزو البلاد بهدف تعطيل أجهزة الدولة والقضاء على استعداداتها العسكرية في المهد ، إلا أن الأمير رد عليهم بالقوة والعنف وأرغمهم على البقاء معتصمين داخل القلاع والحصون . أخذ العدو الفرنسي يبحث عن وسائل تمكنه من قهر الشعب الجزائري وجيشه الباسل ، وقد توصل بالاتفاق مع حكومته الاستعمارية إلى وضع خطة تقضي بإطلاق يد الجنود في تنفيذ قانون الغاب والفتك بالنساء والشيوخ والأطفال الأبرياء ، وحرق الغابات وإتلاف المزارع والبساتين وردم العيون والآبار ، وبطبيعة الحال فإن مثل هذه الإجراءات اللاإنسانية تفتك بالشعب وتلهيه عن واجباته الحربية ، وتفتح ثغرات لا تسد في النظام التمويني للجيش ، ثم أخذت دائرة نفوذ الأمير عبد القادر تضيق شيئاً فشيئاً ، نتيجة الأعمال الإرهابية الوحشية التي اتبعها الفرنسيون في قتالهم واعتبرت الحكومة الفرنسية أرض الجزائر ، أرض أعداء محتلة فنفذت سياسة الاحتلال الكلي باستخدام وسائل مختلفة لتحقيق هذا الهدف (سعد ١٩٨٣:١٥) ، ولم يلبث الأمير وما تبقى لديه من قوات ضعيفة أن حوصروا داخل دائرة ضيقة في الجنوب الجزائري ، وقطع عنهم الماء والغذاء في أرض قاحلة ، آنذاك جمع الأمير مجلسي الوزراء والشورى وباحثهم في الأمر ، فأشاروا عليه بالاستسلام بعد أن أفلت زمام الموقف من أيديهم ، وبعد الاستسلام سنة ١٨٤٧ تم نفي الأمير إلى فرنسا ثم اختار دمشق مركزاً له وتوفي فيها ، وبعد أن ألقت الحكومة الجزائرية برئاسة الأمير عبد القادر سلاح المقاومة الرسمية ، تناول الشعب منها السلاح ، وقام يعرقل تقدم الجيوش الاستعمارية ويضربها ، وتفتك فرنسا بثلاثمائة قبيلة وقرية في بلاد القبائل الصغرى سنة ١٨٥٢، ثم تفجرت الثورة في بلاد القبائل الكبرى سنة ١٨٥٧ ، وما تكاد القوات الفرنسية تتمكن من إخمادها حتى تهب قبائل بني سناسن سنة ١٨٥٩ في وجه العدو ، ويهيج الاستعمار ويأخذ في التمثيل بأبناء الشعب . وعلى الرغم من إخماد الثورات الشعبية في التل وبعض مناطق الجنوب بصفة مؤقتة ، فإن الحرب

ظلت قائمة في الصحراء ولم تتمكن منها السلطات الاستعمارية إلا في أوائل القرن العشرين (الخطيب ، ١٩٥٨:٧٦).

على الرغم من الحصار الذي فرضته فرنسا على الجزائر لعزلها عن بقية الأقطار الإسلامية خاصة تلك التي لم تُبتل بما ابتليت به من محاولة لطمس دينها ولغتها ، فإنه مع إطلالة القرن العشرين بدأت الجزائر تعيش حركة فكرية شبه متواصلة مع الأقطار الإسلامية الأخرى ، سواء عن طريق الطلبة الذين ابتعثوا للدراسة في جامع الزيتونة والأزهر والجامعات الإسلامية الأخرى ، أو عن طريق الدعوات الإصلاحية التي قامت في البلاد الإسلامية ، مثل دعوة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وقد فقدت الجزائر خيرة علمائها في الثورات المتتالية وانتشر الجهل والأمية وساعدت فرنسا أصحاب الطرق الصوفية على نشر البدع والخرافات وبأن الاحتلال الفرنسي هو من باب القضاء والقدر ويجب التسليم به والصبر عليه وأن طاعته هي طاعة لولي الأمر (حميداتو،٢٠٠٥:١٤).

لم تذق المناطق المحتلة طعماً للهدوء والسكينة ، لتوالي الثورات الفردية فيها نتيجة لأعمال الانتقام الوحشية التي كان يقوم بها المستعمرون ، ونذكر من هذه الثورات ثورة بني شقران بالقرب من مدينة معسكر خلال الحرب العالمية الأولى ، وسببها رفض الأهالي تقديم أولادهم قرباناً للمجزرة في سبيل رفعة فرنسا وعزتها بعد أن سنت فرنسا قانوناً يقضي بتعميم التجنيد الإجباري على الشبان الجزائريين (راشد،٢٠٠٤:١٤٨) . وردت فرنسا على هذا الرفض بهجوم وحشي على القرى والدواوير ، وقد جمعت فرنسا علماء وفقهاء الثورة وأعدمت منهم الكثيرين دون محاكمة ونفت الباقين ، وهكذا أخمدت ثورة بني شقران ، انتهت أعمال المقاومة الشعبية المسلحة ضد الطغيان الاستعماري إلى حين ، إلا إن الأهالي الجزائريين كانوا يخضعون بخصوص الجرائم والهجمات والاعتداءات للقوانين الاستثنائية ، وهكذا فإن القانون المسمى بـ (قانون الأهالي) وقد وضع عام (١٨٨١) ، هذا القانون قد خلق بالنسبة إليهم مخالفات خاصة لا تحكم في التشريعات العادية ، ولكن يحكم فيها رجال من النظام الاداري المحلي ، وهي تشكل خرقاً لمبدأ الفصل بين القوى ، ومن جهة أخرى فإن الأهالي أخذوا يشكون من المحاكم المسماه بالمحاكم

الزجرية ومحاكم الهيئات وقد وضعت عام ١٩٠٣ التي لا تتضمن طريقتها التحقيقات العادية بالاضافة إلى ذلك هناك كانت عقوبة خاصة لا تطبق إلا على الأهالي وهي "الاحتجاز السري" الذي لم ينص عليه أي قانون شرعي، ولا يتبع تطبيقه أية طريقة قضائية ، وفي الحقيقة فإن أمراً من الحاكم العام كان كاف لاعتقال أي انسان حتى ولو كان من أكابر الأعيان وابعاده عن عائلته دون السماح له بشرح وضعه والدفاع عن نفسه ، ثم يؤخذ لمدة غير محدودة إلى معتقل خاص أو إلى جهة بعيدة عن سكنه وأهله ، وتفرض عليه الاقامة الجبرية بعد عودته الأمر الذي خلق لدى الجزائريين حالة استحباب المقاومة حتى الموت تفضيلاً عما كان يجري (الجيلالي ،١٩٩٤ : ٣٣١-٣٣٢) .

وأما ما فعلته فرنسا من ناحية العلم فقد أغلقت أكثر من ألف مدرسة ابتدائية وثانوية وعالية كانت موجودة في الجزائر سنة ١٨٣٠، وسمحت لبعض المدارس التي تروج للغة والثقافة الفرنسية بالعمل بعد أن فرضت لغتها بالقانون على الجزائريين وكانت لا تسمح بفتح مدرسة قرآنية إلا بشروط مهينة ، تنتهي بأن تجعل هذا التعليم في خدمة خطتها الاستعمارية وكان لزاماً على كل معلم يريد انشاء مكتب لتعليم اللغة العربية الحصول على ترخيص من قائد الفيلق الفرنسي في منطقته وإلا اعتبر خارجاً على القانون ، وكان من شروط منح الترخيص ، تدريس حفظ القرآن الكريم مع عدم التعرض لتفسير الآيات ، خاصة تلك التي تدعو إلى التحرر ومقاومة الظلم ، وعدم دراسة تاريخ الجزائر والتاريخ العربي والإسلامي وعدم تدريس الأدب العربي (قاسم ،١٩٦٧:٨).

أما المدارس الفرنسية ومدارس الإرساليات التبشيرية التي حلت محل المدارس العربية ، فكانت لها برامجها الهادفة إلى دراسة تاريخ وحضارة ولغة فرنسا (رابح،١٩٨١:١٦١)، حتى تتشرب نفوس الطلبة بحبها والسير في ركابها مع الحرص على الحط من حضارة العرب والمسلمين ، تنفيذاً لإدماج الجزائر بفرنسا ، لكن الإمام عبدالحميد بن باديس استطاع أن يفسد على فرنسا خطتها منذ ١٩١٣ ثم فاجأها أيضاً بتأسيس جمعية العلماء المسلمين سنة ١٩٣١ مما دعا الحكومة الفرنسية

في الجزائر إلى مقاومة حركة التعليم العربي والديني التي اضطلعت بها الجمعية بكل عنف .

لم يكن في الجزائر أحزاب سياسية وطنية بالمعنى المعروف بعد إخماد آخر ثورة تحررية مسلحة ، ومع أن الحركات السياسية التي أخذت تعبر تعبيراً صادقاً عن رغبات الشعب بدأت أعمالها سنة ١٩٢٧ إلاّ أن هيئات إصلاحية أو أحزاب لم تتمكن من تقديم برنامج يلبي رغبات الشعب ، نظراً لأن استعمال كلمة استقلال أو تحرر قد حظر عليها تماماً ، وأصبح لافظها يستحق القتل ، ونذكر من هذه الهيئات الإصلاحية حزب الشاب الجزائري سنة ١٩١٢ (الخطيب،١٩٥٨:٨٠) الذي طالب بإلغاء القوانين المختصة بالجزائريين والتساوي في الضرائب الأميرية بين الجزائريين والأوروبيين الغاصبين ونشر التعليم بين الأهالي كما طالب بزيادة الممثلين الوطنيين في المجالس الانتخابية فرفضت فرنسا ، وعمت المظاهرات الشعبية أنحاء البلاد فردت فرنسا بالزجر والبطش .

في سنة ١٩٢٧ نشأت عند أحد المغتربين الجزائريين في باريس ، الحاج عبد القادر ، فكرة تكوين حزب وطني يدافع عن مصالح شمال إفريقيا خاصة الجزائر ، وأسس هذا الحزب تحت اسم "نجم شمال إفريقيا" ثم قاد هذا الحزب بعد سنة من تأسيسه شاب جزائري يدعى مصالي الحاج ولكن عام ١٩٢٩ أمرت الحكومة الفرنسية بحل الحزب لأنه تقدم بمطالب تتمثل بجلاء القوات الاستعمارية عن شمال إفريقيا ، ثم أنشأ مصالي الحاج عام ١٩٣٧ حزباً جديداً هو حزب الشعب الجزائري وشعاره الثورة من أجل التحرر ، حيث قدم الحزب مرشحين عنه للانتخابات البلدية لمدينة الجزائر ولكن المستعمر شعر بخطر ذلك فاعتقل رئيس الحزب (سعدالله،١٩٩٢:٨٥) .

ثم ظهر شاب نشيط عرف بمقالاته التحليلية ودفاعه عن قضايا الشعب وهو فرحات عباس حيث لعب دوراً خطيراً إبان الحرب العالمية الثانية عندما طلبت فرنسا مساعدة الجزائريين لها لتحرير باريس من الحكم النازي ، فقد اشترط مقابل ذلك تلبية رغبة الشعب الجزائري في مطالبه العادلة ووقع مع ثمانية وعشرين نائباً عربياً عريضة أطلقوا عليها اسم " بيان الشعب الجزائري" فقبل ديغول زعيم فرنسا

بمطالبهم خوفاً من قيام الجزائريين بثورة تحريرية كبرى واستغلال الجزائريين لضعف فرنسا آنذاك ، وخدعت الحكومة الفرنسية الشعب الجزائري فاندفع الجزائريون نحو جبهة القتال لتحرير فرنسا (قاسم،١٩٦٧:٣٣) ، وكان لهم فضل كبير في سحق النازية وبعد انتصار الحلفاء عادوا للجزائر فخاب أملهم حينما فوجئوا بقنابل الأسطول الفرنسي تضرب مدنهم وقراهم ، والدبابات تدمر بيوتهم ، تلك كانت مجزرة ١٩٤٥ أو مأساة الحرية في الجزائر التي أعادت فرنسا تمثيلها بدقة بعد أن نقلتها عن الجستابو النازيين ، ونشطت أحزاب وحركات جزائرية توكد على المطالب الجزائرية بالحرية والاستقلال مثل جمعية العلماء المسلمين التي شقت طريقها قبل الحرب العالمية الثانية واستمرت بعدها وكذلك حزب الاتحاد الديمقراطي وحركة انتصار الحريات الديمقراطية (جغلول،١٩٨١:٦٣) .

لقد سافر قبل الحرب الثانية وفي سنة ١٩٣٦ إلى باريس وفد مؤلف من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين واتحاد النواب وقدماء المحاربين وقدموا لرئيس فرنسا مطالبهم لكن انتهت الحرب العالمية الثانية بالمجزرة التي تطرقنا لها ، وفي أول انتخابات عامة في الجزائر عام ١٩٤٨ قامت فرنسا بتزويرها وتم الإتيان ببني "وي .وي" من الجزائريين المؤيدين للنهج الفرنسي ليحتلوا المقاعد البرلمانية أما النواب الوطنيون فإنهم في المجلس كما في الشارع مضطهدون (حميداتو، ٢٠٠٥:١٢) .

بعد ثورة تونس ومراكش على الاستعمار الفرنسي في مطلع خمسينات القرن الماضي ، خشيت فرنسا من قيام ثورة عارمة في الجزائر ، فشددت الحراسة على الحدود وبثت العيون في كل مكان وأرسلت وزير داخليتها "فرانسوا ميتران" ليتحسس بنفسه مدى انتشار عدوى الحرية في الجزائر ، وقد فاحت من تصريحاته رائحة الشعور الاستعماري بوجود جبل بركاني يتضخم ويهدد بانفجار يزلزل أحلام المستعمرين ، وفعلاً كان استعداد الشعب الجزائري للدخول في حرب سافرة مع الطغاة قد بلغ ذروته ، ففي أول من تشرين ثاني عام ١٩٥٤ انفجرت الثورة في جميع أنحاء الجزائر واستمرت العمليات الحربية بين مد وجزر (راشد،٢٠٠٤:١٦٦) ، وتم إطلاق الرصاص على الضباط والجنود الفرنسيين وعلى

مراكز الدرك وكذلك القنابل المتفجرة ، وهاجم الثـوار قواعـد الجـيش الفرنـسي ومستودعات الأسلحة ونسفوا الجسور والسكك الحديدية وبرغم الإمداد والمعونـات للجيش الفرنسي من قبل حكومته ومن دول غربية أخرى فـإن النهايـة المحتومـة حصلت بأن استقلت الجزائر وتحررت من براثن المستعمر عـام ١٩٦٢ بعـد أن سالت دماء أكثر من مليون شهيد حيث ارتكب الفرنـسيون العديـد مـن المـذابح والمجازر وحصار المدن لمنع الجزائري من استنشاق هواء الحرية ، والتف الشعب حول جيش التحرير الوطني الجزائري لتحقيق الهدف الاسمى وهو التحرير(سعدالله ،١٩٩٨:٢٧٥) .

" لقد سخر الجزائريون من المشرّع الفرنسي الذي خيل إليه أن جبال الأطلس هي جبال الألب وأن نهر الشلق هو نهر السين ، والصحراء هي المـروج ، والعربيـة هـي الفرنسية ، والإسلام هو المسيحية ، وافريقيا هي أوروبا " (ابن بـاديس، ١٩٣٧:٤٢١) ، فعلى الرغم من الهجمة الفرنسية على الإسلام والعروبة في الجزائر بل وعلى جزائريـة الجزائريين أيضاً ، إلا أن ذلك كله باء بالفشل وفشل أيضا مخطط فرنسا بـأن الجزائـر جزء منها ، بل إن الإهانات التي وجهتها فرنسا إلى الإسلام والعروبة منذ الاحتلال حتى عام ١٩٣٠ هي التي مهدت لظهور مفكرين رائدهم التحرير ومصلحة الجزائريين ، وهم الذين وحدوا صفوف الجزائريين حول مظلة الإسـلام والعروبـة فأفـشلوا المخططـات الاستعمارية الرامية إلى تفرنس الجزائر ، وتوخياً لاستكمال المعلومة عما كان يجري في الجزائر من أحداث مأساوية فرنسية وردود أفعال جزائرية فإن الباحث يثبت ذلـك فـي الملحق الذي يبرز حجم المأساة التي صنعها الفرنسي في أرض الجزائـر ظنـاً منـه أن الجزائر باتت لقمة سائغة لتشبع الشره الاستعماري (انظر الملحق رقم١) .

المبحث الثاني

عوامل بيئة ابن باديس الذاتية

مما لا شك فيه أن هناك عوامل تلعب دوراً بارزاً في حياة كل شخص منا ، فالانسان الذي يعيش في بيئة اجتماعية مرموقة اقتصادياً ، تؤدي به الظروف إلى عيشٍ كريم والعكس صحيح ، والانسان الذي يعيش في بيئة علمية لا شك أنه يعشق العلم منذ صغره ويطلبه في شبابه ويصبح خادماً له في اخريات أيامه ، والانسان الذي يعيش في بيئة سياسية ملؤها العدل والانصاف يعيش حياة كلها أمن وطمأنينه ، لا يخشى إلا الذئب على غنمه ، والذي يعيش في بيئة مليئة بالظلم والاستبداد ، فإنه سيحيى حياةً كلها خوف وقلق وعدم ارتياح ، فالعوامل الاجتماعية والسياسية التي تحيط بالفرد هي التي تملي عليه نوعية الحياة التي سيحياها لكونها لا تنفك بالتأثير عليه ، وهو كذلك لا ينفك عن ردة الفعل لذلك الاملاء . إن الإنسان بطبيعته يميل إلى الهدوء والسكينة على أغلب الأحوال ، وما يبدل تلك الطبيعة بأخرى ، تلك الظروف البيئية المحيطة.

إن البيئة التي عاشها عبدالحميد بن باديس كانت زاخرة بالعوامل ذات التأثير المباشر على شخص هذا المفكر التحرري الثائر ، لذلك لم يستطع أن ينفك عن هذه العوامل ويستقل عنها لكونها تمس حياته وحياة كل مواطن ولد على أرض الجزائر، فتفاعل معها ، ونشر ابن باديس الوعي الكامل لمقتضيات تلك العوامل وما ستؤدي إليه بالشعب الجزائري والأرض الجزائرية على حدٍ سواء ، من هنا فلا بد من التعرف على تلك العوامل المؤثرة على شخصية المفكر ابن باديس وذلك من خلال المطلبين التاليين :

المطلب الأول : العوامل الاجتماعية المؤثرة في شخصية ابن باديس .

المطلب الثاني : العوامل السياسية المؤثرة في شخصية ابن باديس .

المطلب الأول

العوامل الاجتماعية المؤثرة في شخصية ابن باديس

على الرغم من الثراء والجاه والمكانة الاجتماعية المرموقة لأسرة الإمام ابن باديس ، إلا أنه أعرض عن كل ذلك متجهاً لطلب العلم ، معززاً عمله بتكوين عصامي فذ ، متلمساً في الوقت نفسه مواطن الداء في مشاكل امته ووطنه سياسياً وثقافياً واجتماعياً وتربوياً، إن نكران الذات في نضال الشيخ ، وصدقه في قوله وسلوكه ، حشد الجزائريين حوله . يرجع الشيخ في أصوله إلى البربر ولكن الجهود التي قدمها البربر في فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد البربري ، دليل على وجود مد إسلامي قوي بينهم ، وامتزج العرب والبربر مع مر القرون ، وتكون منهم جنس، أمه الجزائر ، وأبوه الإسلام كما يحلو للإمام ابن باديس أن يصفهم ، لقد اتضحت آيات إتحادهم جلية ، وبرهن المجتمع الجزائري في أحلك الأوقات أنه مجتمع واحد ، وكان الإمام ابن باديس الأبن البكر لوالديه (عبل،٢٠٠٠:٦٢).

ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس بمدينة قسنطينة ، عاصمة الشرق الجزائري ، في الرابع من كانون الأول عام ١٨٨٩م ، والده هو السيد محمد المصطفى بن مكي بن باديس حافظ للقرآن الكريم ، كان يشتغل بالتجارة والفلاحة ، ويُعد من أعيان قسنطينة وسراة أهلها وكان عضواً في المجلس الجزائري الأعلى ، عرف بدفاعه عن حقوق المسلمين في الجزائر وتوفي سنة ١٩٥١م . أما أمه فهي السيدة زهيرة بنت علي بن جلول ، من أسرة اشتهرت بالعلم والتدين ، إن أسرة ابن باديس مشهورة في شمال افريقيا ، نبغ فيها عظماء الرجال ، وكانت تجمع بين العلم والجاه ، تنحدر هذه الأسرة من العائلة الصنهاجية ، التي سطع نجمها في ميدان الإمارة والملك بالمغرب الأوسط في القرن الرابع الهجري ، ومن رجالات هذه الأسرة المشهورين ، الذين كان الشيخ ابن باديس يفتخر بهم : المعز لدين الله بن باديس ، الذي قاوم البدعة ونصر السنة ، فأزال مذهب الشيعة الباطنية وأعلن مذهب أهل السنة مذهباً للدولة ، وبالتالي انفصل عن الدولة الفاطمية بمصر . وفي أحضان هذه الأسرة العريقة نشأ الأمام عبدالحميد بن باديس ، وكان والده باراً به ، فحرص على أن يربيه تربية إسلامية خاصة ، فلم يدخله المدارس الفرنسية بل أرسل به إلى الشيخ المقرئ محمد بن المداسي ، فحفظ عليه القرآن وتجويده وعمره لم يتجاوز الثلاثة عشر عاماً (قاسم،١٩٦٧:١٦).

نشأ عبدالحميد بن باديس منذ صباه في رحاب القرآن ، فشب على حبه وتخلق بأخلاقه (حميداتو،١٩٨٥:١٥) . ثم ما لبث أن وجهه أبوه إلى المربي والعالم الجليل حمدان الونيسي فتلقى منه العلوم العربية والإسلامية ومكارم الأخلاق وعليه واصل السماع والتلقي في قسنطينة فنال إعجاب أساتذته . رحل الإمام ابن باديس في طلب العلم إلى الزيتونة في تونس عام ١٩٠٨ فكان طالباً أولاً ثم محاضراً ، وإلى الحجاز حاجاً ورحالةً متلمساً حال الناس ، وإلى باريس ينقل مطالب الجزائريين مع غيره في وفد إسلامي (قينة ، ٢٠٠٠:٣٨) ، لقد كان واعظاً وخطيباً ومدرساً وصحفياً ومربياً ، أسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام ١٩٣١م وانتخب رئيساً لها، نشط في مواجهة الإستعمار عبر خطة تعتمد على إعداد جيل صالح ينهض نهضة عربية إسلامية فحاصر فرنسا في رفق وعزم بينما كانت تظن أنها تحاصر الجزائر فأخرج جيلاً فجر الثورة وحصل على الاستقلال وتحرير الجزائر بعد وفاته.

من الإنصاف أن نذكر هنا الدور الإيجابي الذي قامت به بعض الطرق الصوفية منذ بداية الإحتلال الفرنسي للجزائر فقد ساهمت بعض زواياها في نشر الثقافة العربية الإسلامية ، إلا أن كثيراً من الطرق انحرف عن الخط العام ، فكثرت عندها البدع والضلالات وشجعت الخضوع بين أفراد المجتمع للمستعمر الفرنسي ، ووجد ابن باديس المجتمع قد سادت فيه الأمية وانتشار الجهل ، بعد إغلاق فرنسا للكثير من المدارس والمساجد وتشجيعها للمدارس الفرنسية التي تركز على فرنسة المجتمع والحط من قيمة اللغة العربية والإسلام (رابح،١٩٨١:١٦٣) . على الرغم من وجود تأثير لحركة الإصلاح الفكرية الناجمة عن المد ا لفكري لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده خاصة في أوائل القرن العشرين وكذلك اثر الطلبة الجزائريين المبعوثين للدراسة في الزيتونة والأزهر .

الإتجاه الذي كان سائداً في عصر ابن باديس لم يكن يشجع تعليم البنت ولم يكن يتيح لها فرص التثقيف التي تؤهلها لوظيفتها الاجتماعية التي تنتظرها بل كثيراً ما كانت الفرص التعليمية المتاحة خاصة بالبنين ، ومقصورة عليهم في أغلب الحالات (حميداتو،٢٠٠٥:٣٧)، وقد نبه الإمام ابن باديس أولياء أمور البنات إلى أهمية تعليم البنت ضمن الإطار الحضاري الإسلامي وكرس ذلك من خلال اتخاذه من الجامع الأخضر في قسنطينة معهداً لنشاطه ثم من خلال صحفه وجمعية العلماء وفي ضوء استبعاد فرنسا

للفرد والمجتمع الجزائري بزغت دعوة الإمام بالتركيز على أن حق كل إنسان بالحرية كحقه في الحياة ، إن العصر الذي عاش فيه ابن باديس كان عصر بداية اليقظة الوطنية العامة في الجزائر ، وكان المجتمع يبحث عن طريقة ناجحة للخروج من ظلام الاحتلال الذي سلبه جميع الحقوق الأساسية للإنسان ، وأزمة التخلف عند عبد الحميد بن باديس لا تكمن في إعداد جيل رباني برجاله فقط ، فقد كانت المرأة والدفاع عنها وعن تعليمها وحمايتها من الانحلال والتبرج والاختلاط الذي تدعو إليه النخبة المتفرنجة ، مجال اهتمامه ، ويظهر ذلك من خلال حديثه وتذكيره بنساء السلف (الزاهري،١٩٨٦:٦٢).

انقسم المجتمع الجزائري بين من يطلب مساواة الجزائريين بالفرنسيين في الحقوق والواجبات مع المحافظة على قانون الأحوال الشخصية الإسلامية ، أما البعض الآخر فقد تطرف ونادى بإندماج كامل في فرنسا لكي يحصل الجزائريون على حقوق المواطنة الفرنسية مع التنازل الكامل عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامي وهم المعروفون بدعاة الإندماج والفرنسة والتجنيس ، أما القسم الثالث من الجزائريين فقد باعوا أنفسهم وارتموا في أحضان الاستعمار ، حيث أصبحوا عملاء للاستعمار الفرنسي ضد مصالح بلادهم العليا وهم المعروفون بجماعة بني وي. وي. وهم الجزائريين الذين ساندوا الاحتلال العسكري الفرنسي للجزائر وساهموا بتكريس السلطة السياسية الفرنسية في الجزائر وفي المقابل هناك الكثير من الجزائريين الذين نادوا ومنذ ١٩٢٧ بالاستقلال التام للجزائر في نطاق حضارتها العربية الإسلامية (رابح،١٩٨١:١٦٠).

لقد بلغت أحوال المجتمع الجزائري حداً لا يطاق من السوء ، وانتشر الفقر والبؤس والجهل والمهانة والاستعباد في ظل السيطرة الاستعمارية الفرنسية ، الذي هدف إلى زرع الانحلال الخلقي والديني بين أفراد المجتمع ، وإشاعة الفساد بين شباب البلاد ورجالها لكي ينصرف الناس إلى الخمر والفسق والقمار (العقاد، ١٩٦٣:٢٥) .

عمدت فرنسا في كل أعمالها بنية تدمير وحدة المجتمع الجزائري وتفتيته لتسهيل عملية السيطرة الاستعمارية على الجزائر ، وطمس شخصيته وهويته وإنتمائه ، فبعد ما كانت الجزائر في بداية الإحتلال ، تتجاوز نسبة المتعلمين فيها (٤٠%) من السكان ، إلا أن الأمية ارتفعت بعد قرن من الإحتلال إلى (٩٠%) في أوساط المجتمع الجزائري بسبب تعسف الاستعمار تجاه الأطر التعليمية الجزائرية (سعدالله، ١٩٩٢:٦٢) ، هذا الميراث النكد لشجرة الزقوم ، نقطة مهمة على طريق فهم عبد الحميد بن باديس لأزمة الإنسان

والمجتمع الجزائري ، أما النقطة الثانية لفهم الظاهرة الاستعمارية هي ما قام به الاستعمار من خلال سياسة دينية صليبية حاقدة لقلع الإسلام من صدور الجزائريين ، بعد إبادة وتشريد أو سجن للعلماء والمثقفين الجزائريين .

إن دور الطابور الخامس في المجتمع الجزائري المتمثل في بعض الطرق الصوفية المنحرفة وبعض العائلات المنسوبة إلى الشرف والعلم وكذلك خيانة بعض افراد النخبة لمجتمعهم وعمالتهم للاستعمار ، ساهم كل ذلك في تكريس الحكم الفرنسي للبلاد ، خاصة بعدما احتكرت السلطات الفرنسية صوت المسجد وأممت الأوقاف وخربت المحاكم الشرعية ، كذلك نشرت الإلحاد وشوهت صورة الإسلام النقية في نفوس أبناء المسلمين الجزائريين نظراً لقلة زادهم الشرعي والثقافي ، لم يكن كافياً الجهد الفردي لابن باديس في دروسه بالمسجد الأخضر كما أن الظروف المحيطة نبهته لوجوب الالتفات للعمل الجماعي داخل المجتمع الجزائري ، خاصة مع وجود عيوب ذات طابع جماعي كالجدل والتشبث بأذيال الماضي والتحليق في الخيال (حميداتو،٢٠٠٥:١٢).

لقد اصيب المجتمع الجزائري بإرهاق وضغط ، وحفت به المخاطر من جميع الجهات ، تفترسه قوات الاحتلال في كل وقت وحين ، حتى غدى المجتمع الجزائري محتاراً في شأنه لا حامي ولا مجير ، وليس هناك من الدول الاسلامية الشقيقة المجاورة وغير المجاورة مساعدة أو تأييد أو دفاع ، وحتى أن دولة الخلافة الاسلامية العثمانية التي كان لها حق الاشراف السياسي على هذه البلاد لم تلتفت إليها ولم تعرها بالاً ، بينما حال الامة على ذلك ، فلا أمير يدب عن حماها ولا زعيم يذود عن سهلها ، فالأفراد متخاذلون يعتز كل جماعة منهم إما بتركيته أو عروبته أو ببداوته أو بربريته ، وهذا شأن المجتمع الجزائري هو الآخر، فرقة في الكلمة وتشتت في الأهداف ووحدة منحلة وتفرق إلى شيع وأحزاب ، وهذا ما أراده المستعمر وسعى إلى تحقيقه (سعد،١٩٨٣:٧٥) .

لقد ظلت أزمة المجتمع الجزائري قائمة على أشدها وكلما يقترب المجتمع من التئام الصف ووحدة الكلمة حتى يقوم المستعمر الفرنسي بإشعال روح العصبية، فيعود المجتمع إلى المربع الأول مرةً أخرى من فرقةٍ وتفكك ، وبقي الأمر كذلك والمجتمع الجزائري يتقلب في خضم متلاطم بين أمواج السياسة والاحتلال وعواصف الأهواء وعفونات الشعوبية والقبلية المنتنة عقود من الزمن حتى قيض الله لهذا المجتمع أهل رأي وفكر أمثال عبدالقادر الجزائري والبشير الإبراهيمي وابن باديس ... .

المطلب الثاني:

العوامل السياسية المؤثرة في شخصية ابن باديس

عاش الامام ابن باديس في فترة تكاد تكون الأشد وطأةً على الجزائر وهويتها السياسية والوطنية والدينية والقومية ، فقد أراد الاحتلال الفرنسي أن يقضي على معالم العهود السابقة للاحتلال ، وأن يفرض نظمه وقوانينه بالقوة ، وألحق بالبلاد الخراب والدمار والخسائر في الارواح والاموال ، وطرد السكان من منازلهم في المدن والارياف ، وأثقل كاهلهم بالضرائب وتسبب في بوار الاقتصاد ونقص المواد والسلع الغذائية ، وانتشار الامراض والأوبئة والمجاعات . وأقام جهازاً إدارياً عسكرياً عوضاً عن المدني ، وأسكن المستعمرين في الممتلكات المحتجزة والمصادرة ، كما ألحق الجزائر بفرنسا ، واعتبرها امتداداً للأرض الفرنسية عبر البحر المتوسط (جغلول، ١٩٨١:٢٥٣) .

ما من شك أن الاستعمار الفرنسي أنشأ في البلاد الجزائرية بعض البنى التحتية التي تفيده هو بالدرجة الأولى مثل السكك الحديدية ، وكذلك تأسيس البنوك وشق الطرق ، لكن بالمقابل فرض الاستعمار على الجزائريين وضعاً سياسياً مخزياً كانوا رعايا فرنسيين عليهم واجبات وليس لهم حقوق ، فقد فرضت عليهم الخدمة العسكرية الإجبارية ، وقُدموا وقوداً في جبهات القتال في الحربين العالميتين الأولى والثانية ، ولكن لم يتم الاعتراف بفضل جهودهم العسكرية ومساعداتهم المالية ، والجدير بالذكر أن الجزائر لم تستكن للمستعمر منذ احتلال البلاد ، فقد قاومت الغزو بكل ما استطاعت من قوى الدفاع الممكنة لديها منذ قيام الأمير عبد القادر الجزائري – بعد سقوط الجزائر العاصمة في يد الفرنسيين – بإنشاء حكومة وطنية في مدينة معسكر تولت قيادة معارك عديدة ضد الفرنسيين إلى أن حوصر الأمير وقواته عام ١٨٤٧م ، وواصل الشعب النضال على مختلف الأصعدة ، وعبأت قوى الشعب في حركتها الوطنية التي ما لبثت أن تحولت إلى حرب شاملة منذ ١٩٥٤، وآلت أخيراً إلى تحرير الجزائر عام ١٩٦٢(رابح،١٩٨١:١٦٣).

ردت فرنسا على الثورات الجزائرية المتلاحقة بأقسى الطرق وبحملات منقطعة النظير من القمع والمذابح والبطش والإرهاب والتنكيل والتشريد والسجن لكل من يعارض سياساتها وقوانينها الجائرة واستعمارها البغيض ، وخاصة من العلماء والشيوخ والدعاة ، على أيدي قادة فرنسا وجنودها الموجودين في الجزائر ، الذين سنوا قوانين منعت تعليم اللغة العربية ثم سمحت بتعليمها لاحقاً ضمن قيود مشددة ، وكذلك منعت فتح مدارس دينية إلا لتحفيظ القرآن الكريم بدون تفسير الآيات وشجعت المدارس الفرنسية التي تعتمد اللغة الفرنسية وتروج لحضارة فرنسا وقيم الغرب (سعدالله،١٩٩٢:٦٤).

في ظل سياسة الإبادة الجماعية للجزائريين ، وحركة التنفير من الاسلام التي قام بها قادة فرنسا في الجزائر ، وقطع صلة الجزائر بعمقها المشرقي والمغربي عرفت الجزائر في العشرينات من القرن العشرين ، حركة إصلاحية مبشرة بميلاد فجر جديد ، ونهضة علمية وأدبية ، ومرحلة جديدة لإعادة تشكيل العقل الإسلامي في الجزائر ، ومواجهة سياسة المسخ التي كادت أن تأتي على ما بقي من هذا المجتمع المنهك القوى ، وكانت مبادئ الإسلام قوام هذه الحركة المباركة لإنقاذ البلاد والعباد من مخالب الجهل ومظاهر الشرك والاستبداد الاستعماري (حسين ، ١٩٥٢:٣٦) .

لم يكتف المستعمر الفرنسي بذلك ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل وصل الأمر به إلى محاربة الدين الإسلامي وتهميش القيم الإسلامية وإشاعة الرذيلة والأخلاق الغربية ومعاقرة الخمر ، وتوغل المستعمر بعد محاربته الإسلام والعروبة إلى اللجوء إلى خديعة الجزائريين وعلى لسان رئيس فرنسا "ديغول" الذي قبل شرط علماء ورجالات الجزائر بمنحهم الاستقلال مقابل اشتراك الشبان الجزائريين إلى جانب فرنسا في الحرب العالمية الثانية في جبهاتها الأوروبية ، وفعلاً كانت خدعة كبرى في النهاية فلم يتم تلبية مطالب الجزائريين بالحرية والاستقلال بعد انتهاء الحرب (رابح،١٩٨١:١٦٤).

إن السياسة الدينية الصليبية التي انتهجتها فرنسا في الجزائر ، كهدم المساجد والزوايا أو تحويل بعضها إلى كنائس وتدمير المدارس ، ورعاية الطرق الصوفية التي تمجد الاستكانة للحكم الفرنسي ضمن إطار الطاعة لولي الأمر ، ونشر عادة تقديس القبور والجهل والخرافة والالحاد برز ايضاً من يدس السم في الدسم ويدعو شباب الجزائر إلى التفرنج والإندماج ، إن الحركة الإصلاحية أدركت بعمق أن الغرب مناهض للشرق ، والروح الصليبية لم تبرح كامنة في الصدور ، كما كانت قبل بطرس الناسك ، ولم يزل التعصب كامناً في عناصرها ، وهي تحاول بكل الوسائل القضاء على كل حركة يحولها المسلمون للإصلاح السياسي والنهضة ، وما احتكار ما يقال على منابر المساجد الجزائرية وتخريب الأوقاف والمحاكم الشرعية والسير بموازاة الدوائر الإعلامية الفرنسية والغربية التي كانت وقتها وضمن خطة مرسومة مسبقاً تروج للإلحاد والرذيلة والحط من شأن الإسلام (سعدالله ، ١٩٩٢:٨٢).

لقد استمرت فرنسا في سياستها الرامية إلى تنصير المغرب العربي الإسلامي بعامة ، والجزائر منه بخاصة ، فوجهت إرسالياتها التبشيرية العديدة معتقدة أن الجزائر ستكون تربة خصبة لبذورهم (العسلي،١٩٨٢:٥٦) ، إن هذه السياسة رافقها ظهور تيار داخل الجزائر يدعو إلى التفرنس والاندماج الكامل في فرنسا ، فكان ذلك دافعاً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين للرد ومقاومة هذا الإتجاه ، وتأكيد الشخصية الوطنية الجزائرية العربية ، لقد تجسد هذا الرد باصدار الجمعية فتوى بتكفير كل مسلم جزائري يتنازل عن قانون الأحوال الجزائرية الإسلامية من أجل الإندماج أو التجنس بالجنسية الفرنسية لتعارض ذلك مع مقومات الشخصية الوطنية العربية والإسلامية للجزائر (رابح ، ١٩٨١:١٦٦) .

إن هذه الأحداث كانت تنتظر رائداً قوياً في عقيدته وحجته وسلامة منطقه ، ليحمل على كاهله مسؤولية الدفاع عن هوية الجزائر وعروبتها وإسلامها في مواجهة المخاطر التي تهدده ، والتصدي لتيار الاستعمار الظالم والتغريبي ، الذي كاد أن يسلخ الشعب الجزائري العربي المسلم عن تاريخه ودينه وحضارته ، ويندد بالطرق صاحبة البدع ودعاة الفرنسة والنعرات التي تعد بمثابة سهام مسمومة موجهة إلى نحر الأمة ، لقد كان قدر الإمام عبد الحميد بن باديس ، أن يولد لهذه الفترة كي يعمل على تأصيل الفكر الإسلامي ، والتصدي لكل التيارات والحركات السياسية والفكرية الاستعمارية المعادية ، ويلاحق بفكره كل إتجاهات الأفكار المشبوهة وفي كل مجالات الحياة السياسية الجزائرية.

الفصل الثالث :

أثر عوامل البناء الفكري في عقلية ابن باديس

إن العوامل والظروف الموضوعية السابقة كان لها تأثيرات كبيرة في عقلية ابن باديس ، كون البيئة التي يعيشها الانسان تترك بصماتها على فكره وأحياناً تتملكه إلى الحد الذي لا ينفك تفكيره عنها ، ولا يستطيع بأي حال من الأحوال تناسيها .

هذا الإنسان العادي فكيف من أعطاه الله عقلاً كيساً كعبدالحميد بن باديس الذي رأى الظلم بأم عينه من قبل المستعمر الفرنسي الغاصب على ابن ملته ووطنه، وهو الذي نشأ في بيئة دينية وعلمية ، فالبيئة الدينية جعلت ابن باديس يرى هم اخوانه المسلمين في الجزائر أكبر من همه لهذا لا بد من القيام بما يجب القيام به لرفع الظلم عنهم وكسر القيود التي كبلتهم ليعودوا احراراً كما كانوا قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر ، وبيئة العلم التي عاش في كنفها ، جعلته يستشعر المسؤولية ، تلك المسؤولية التي رأى القيام بها بأنه واجب مقدس عليه القيام به وإلا سيسأل ليس أمام العباد بل أمام رب العباد لذا تطلب منه الواجب أن يكون مربياً تارةً ومعلماً تارةً أخرى ومبصراً بما يجب القيام به إزاء الاحتلال الفرنسي وما يمكنه فعله تارةً ثالثة ، وإلا سيؤول إلى مصير لا ضمير له راض عنه لكونه تقاعس عن أداء واجب كان عليه القيام به ، وانطلاقاً من المؤثرات تلك ، فإننا والحالة هذه سنبين آثارها على عقلية انسان وعى ظروف بلده وشعبها وأركن الله فيه قوة البصيرة والعلم وأعطاه القدرة والإرادة ليدفع الظلم ويحرر شعبه وبلده من القيود التي كانت بفعل الاستعمار الفرنسي وذلك في مبحثين هما :

المبحث الأول : التربية الاصلاحية والتحررية لمجتمع الجزائر .

المبحث الثاني : الإنخراط في العمل السياسي والصحفي.

المبحث الأول :

التربية الاصلاحية والتحررية لمجتمع الجزائر

إن المفكر التحرري عبدالحميد بن باديس وعى ما عليه المجتمع الجزائـــري من قيود كبلته بفعل ما فعلته يد المستعمر الفرنسي لتطمس هويته العربية وشخصيته الوطنية والسياسية، وذلك بقيامه بتجهيل الشعب الجزائري بإغلاق المدارس والعيث فساداً في مناهج التعليم على مختلف المستويات وتغييب الدين الإسلامي عن الواقـــع ومحاولة فرنسا إلحاق الشعب الجزائري بالشعب الفرنسي وجعله شعباً تابعـــاً مـــن الدرجة الأخيرة في التصنيف من وجهة نظر الفرنسيين .

إن هذا الوضع الذي عليه شعبٌ مثل شعب الجزائر يعتبر بمثابة قيد على هذا الشعب وذلك بجعله يتخلى عن مقومات شخصيته وربطها بمقومات أخـــرى دخيلـــة عليه وذلك بفعل القوة الغاشمة التي استخدمها الاحتلال الفرنـــسي لأرض الجزائـــر وشعبها ، ولما كان عبدالحميد بن باديس قد وعى الحالة هذه ، عرف الطريق نحـــو تحرير هذا الشعب من كل ما كبلته من قيود والتي أرادت به الإنحراف عن الـــدين الإسلامي والعروبة كنهج قومي .

إن هذا المفكر وضع لنفسه استراتيجية هادفة إتجاه شعب الجزائر وعنوانهـــا تحرير الفرد الجزائري مما رسمته يد المستعمر له وجعله حراً طليقاً يرسم مستقبله بيده وما تمليه عليه إرادته ضمن خط الدين الإسلامي ووفق خطه القومي ، ووفقـــاً لهذا السياق وتحقيقاً لأهداف هذا المبحث فإننا سنتناوله في المطلبين التاليين :

المطلب الأول : التربية المجتمعية للتحرر من القيود الاستعمارية .

المطلب الثاني : الأخذ بدور العلماء لدب الوعي التحرري .

المطلب الأول :

التربية المجتمعية للتحرر من القيود الاستعمارية

يعتبر ابن باديس التعليم أساس الإصلاح ، ويرى أن صلاح العلماء شرط لكل تغيير حضاري ، وبالتالي لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم ، ولن يصلح العلمـــاء إلا إذا صلح تعليمهم ، ولن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه ، في مادته وصورته ، أو بمعنى أخر يجب الاعتماد على القرآن والسنة وكتب السلف الصالح كمقررات أساسية لتعليم النشئ دينهم ولغتهم العربية الصحيحة وتاريخ امتهم . لقد اتخذ ابـــن باديس الجامع الأخضر في قسنطينة مركزاً لنشاطه التربوي ، وكان يحضر دروسه أكثر من ثلاثمائة طالب ، ويدرس فيه التفسير والحديث والفقه والعقيدة وعلم التجويد والنحو والصرف والحساب والجغرافيا ، وكان الامام ابن باديس يحث طلبته على تعلـــم اللغـــة الفرنـــسية إذ صارت مادة مقررة على التلاميذ في جمعية التربية والتعليم الإسلامية التي يشرف عليها في قسنطينة (عويمر ،٢٠٠١: ٤٢) ، وأيضاً فإن اللغة الفرنسية هي لغة العدو ومعرفتها تكـــسب الجيل قدرة على التعامل الصحيح معه.

كان ابن باديس متواضعاً مع تلاميذه يشجع المجتهدين ويقربهم منه ، وهذا ما يؤكده واحد منهم ، وهو محمد الصالح رمضان حيث قال : "استدعاني الامام بعد ثلاث سنوات فقط من التلمذة عليه لأعاونه في التدريس لطلابه بقسنطينة مع معاونيه، ثم عينـــني معلمـــاً فـــي مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة ، ومع ذلك لم انقطع عن دروسه العامة ، وخاصـــة درس التفسير حتى لقي ربه " (سلطاني ،١٩٨٢: ٦٥). راسل ابن باديس علماء الزيتونة والأزهـــر للحصول على منح دراسية لطلبته ، وأوفد بعثات طلابية إلى القاهرة وتونس ودمشق ، وكان ابن باديس يضع آمالاً كبيرة فيها ، وينظم حفلة كل عام لاستقبال الخريجين بتفوق وتكريمهم ، ، يقول محمد الصالح بن عتيق الذي تخرج من الزيتونة في منتصف الثلاثينات من القـــرن العشرين :" عدت إلى الجزائر أحمل الشهادة وفرح بي أهلي ، ولكن فرح استاذنا العظيم كان أكثر فقد استقبلني مع بعض الاخوان الذين فازوا في امتحان الشهادة استقبالاً رائعاً ، وأقام لنا حفلاً وأهاب بنا إلى القيام بالدعوة الإصلاحية ، ونشر أسمائنا في مجلة الشهاب تحت عنوان (نجوم الجزائر) تشجيعاً لنا وتعريفاً للأمة بنا " ومن أشهر تلاميذ ابـــن بـــاديس : الفـــضيل الورتلاني ، والمبارك الميلي ، وسعيد صالحي ، وعبداللطيف سلطاني، ومحمد الصالح بـــن عتيـــق ، وســـعيد الزاهـــري ، وأحمـــد بـــو شـــمال ، ومحمـــد الـــصالح رمـــضان (بن عتيق،١٩٩٠: ٧٣).

يرى كثير من الباحثين والمؤرخين أن مشروع ابن باديس الاصلاحي امتداد لحركة الامام محمد عبده ، إذ تأثر ابن باديس في شبابه بالحركة السلفية ومدرسة محمد عبده عن طريق اساتذته بجامع الزيتونة ، وخاصة محمد الطاهر بن عاشور ومحمد النخلي ما بين (١٩٠٨-١٩١٢م) ، وخلال زيارته للمشرق العربي في عام ١٩١٣م ، وعن طريق المجلات والصحف الاصلاحية التي كانت تصل إلى الجزائر رغم الرقابة الشديدة التي مارستها السلطة الاستعمارية ، إلا أنه لا يمكن اغفال بعض الخصائص التي تتعلق بالوضع الاستعماري للجزائر وجهود ابن باديس دون اجحاف لدور محمد عبده ، ويرى الدكتور فهمي جدعان أن مشروع ابن باديس الاصلاحي جاء نتيجة للظروف التاريخية التي مرت بها الجزائر الواقعة تحت الاستعمار حينئذ ، ولم يكن ذلك المشروع نتيجة تأثر ابن باديس بشكل مباشر بأفكار محمد عبده (جدعان، ١٩٨٨:٤٦٢) ، في حين أن الباحث هنا يرى تداخلاً في التأثير على فكر ابن باديس من قبل محمد عبده ومن تلك العوامل في البيئة الجزائرية تحت الاستعمار الفرنسي الوحشي ، لأن ابن باديس تأثر أيضاً بتيار جمال الدين الأفغاني الفكري ، كما احتك خلال جولاته خارج الجزائر بالعديد من المفكرين الإسلاميين .

إن المشروع الإصلاحي عند ابن باديس يتمثل في المقام الأول في التركيز على تربية النشئ كوسيلة لتحضير مستقبل الجزائر وتوعية الشعب الجزائري ، كل ذلك لكي يتمكن ذلك الشعب من أن يقف سداً منيعاً في وجه سياسة الاندماج والاستيطان التي تنتهجها فرنسا في الجزائر ، وقد استمد ابن باديس فلسفته من الآية القرآنية الكريمة : "إن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم " (الرعد:١١)، وبهذا الربط بين الإصلاح التربوي المؤسساتي والسياسي ، تفادى الامام ابن باديس الأخطاء المنهجية التي وقع فيها رواد المشروع التحرري الذين سبقوه (النجار،١٩٩٩:١٧٤) ، فقد ركز كل من جمال الدين الافغاني والكواكبي على التغيير السياسي بينما اهتم محمد عبده خاصةً بالجانب التربوي .

إن أساليب التربية المجتمعية التي اتبعها ابن باديس للتحرر من قيود الاستعمار هي أساليب ووسائل متنوعة ، مستوحاة من مصادر الإسلام الأصيلة ، نذكر أهمها تالياً :

أولاً : التربية بالقدوة : والقدوة هي الاسوة فالتلميذ في المدرسة يحتاج إلى نموذج عملي وقدوة يراها في كل معلم من معلميه ؛ ليوقن ويتحقق بأن ما يطلب منه من

السلوك والاخلاق هو امر واقعي يمكن تطبيقه وممارسته ، وعليه فإن انجاح العلمية التربوية يتوقف إلى حد كبير على وجود المربي الذي يحقق بسلوكه وممارساته التربوية ، المثال الصادق لأهداف المنهج التربوي المراد تحقيقه ، فقد أمر الله تعالى رسوله محمد علي السلام أن يقتدي بهدي من سبقه من الرسل ، فقال : "أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده" (الانعام:٩٠) .

ثانياً : التربية بالوعظ : ان الموعظة الحسنة عند ابن باديس هي التي ترقق القلوب لتحملها على الامتثال لما فيه خير الدنيا والآخرة وعلى الرغم من أن ابن باديس كان خطيباً واعظاً مفوهاً بليغ الكلام ، إلا أنه اهتم بالتكوين والبناء التربوي أكثر من الوعظ ، ذلك لأن الوعظ في حقيقته يجدي في مجتمع صالح قد تحدث فيه أخطاء ، فيقوم الوعاظ عند ذلك بتنبيه الخاطئين بايقاظ وتحريك تقوى الله في نفوسهم ، لكن الأمر يختلف بالنسبة إلى حالة المجتمع الجزائري في أيام ابن باديس ، حيث لم يبق في نفوس عامة الناس إلا اسلام طُرُقيّ (حميداتو ،٢٠٠٥:٤٣) .

ثالثاً : التشجيع على التحصيل الذاتي وتنمية القدرات الذاتية للطالب : يؤدي التحصيل الدراسي إلى فهم قواعد العلم وتطبيقها ، اما توسيع دائرة الفهم والاطلاع فإنما يتوصل إليها الطالب بنفسه من خلال المطالعة للكتب ، حيث يحث ابن باديس الطلبة ومعلميهم على عدم الاكتفاء بالبرامج المدرسية وحدها ، إضافة إلى أنه ركز على تنمية القدرات العقلية للطلبة ؛ فإذا كان التفكير لازماً للانسان في جميع شؤونه وكل ما يتصل به ادراكه ، فهو لطلاب العلم ألزم من كل انسان ، فعلى الطالب أن يفكر فيما يفهم من المسائل تفكيراً صحيحاً مستقلاً عن تفكير غيره ، وإنما يعرف الطالب تفكير غيره ليستعين به ، ثم لا بد له من أن يستعمل فكره هو بنفسه وبالاعتماد على ذاته (ابن باديس ،١٩٦٨:٩٦).

رابعاً : التربية بتفريغ الطاقة وملء الفراغ بما ينفع : إن استغلال طاقة الشباب ، وتوجيهها وجهتها الصحيحة هام جداً ، حيث أدرك ابن باديس تلك الأهمية ، فكان ينهى متعلميه عن تبديد أوقاتهم وجهودهم فيما لا فائدة فيه ، والتربية عند ابن باديس لا تقتصر على مكان دون آخر ، فهي في المدرسة والمسجد والنادي وحتى في الشارع والسوق (العسلي ،١٩٨٢:٧٥) .

في ظل ظروف الاحتلال الفرنسي للجزائر ، خاض ابن باديس معركته التربوية الإصلاحية مستهدفاً التصدي لذلك الاحتلال ، حيث كانت الامة الجزائرية وقتها مهددة بخطر افتقاد الهوية الذاتية ، بضياع شخصيتها وذوبانها في شخصية الامة الفرنسية المسيحية ، فالاستعمار بذل جهده لتفريغ هذا الشعب من مضمونه الاسلامي ، وجعله مسخاً تابعاً له ، لذلك وضع ابن باديس برامجه التربوية لإعداد الشعب لحياة تلائم البيئة التي يعيشون فيها ، بعد أن أخذ في الحسبان ما ينبغي أن يحدث من تغيير في المجتمع ، لاسترجاع الحرية والكرامة المسلوبتين ، وصولاً بالبلاد إلى التحرر من بطش الاحتلال ، وذلك بالرجوع بالشعب إلى عقائد الاسلام المبنية على العلم ، وفضائله المبنية على القوة والرحمة وأحكامه المبنية على العدل والاحسان حيث أن مقياس المفاضلة مرتكز على التقوى . إن التربية لدى ابن باديس تهدف إلى تحقيق العبودية الخالصة لله في الحياة الفردية والجماعية وذلك بتعلم الاسلام من مصادره الأصلية ؛ مما يؤدي إلى تكوين المواطن المؤمن المتميز عن المستعمر المغتصب في جميع جوانب حياته ، وبالتالي إحداث التميز المجتمعي للأمة الجزائرية التي أرادت فرنسا احتواءها . تبرز هنا أهمية ربط الاجيال بالتراث والحضارة العربية الإسلامية من خلال إحياء التراث ، فإذا ما تحقق للشعب الاستعداد الداخلي للتغيير ، أو بعبارة أخرى : التخلص من القابلية للاستعمار ، يمكنه عندها ارتقاء سلم الرقي الحضاري في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية لقد تم جمع كثير من آثار ابن باديس العلمية بعد وفاته نذكر منها : تفسير ابن باديس، ومجالس التذكير من حديث البشير النذير ، والعقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وكتاب رجال السلف ونساؤه ، كما حقق ابن باديس كتاب العواصم من القواصم (حميداتو،٢٠٠٥:٤٦) .

يجد المتتبع لآراء وفكر الامام ابن باديس فيما تركه لنا من آثار مكتوبة ، أنها تتمحور في التربية والسياسة والدين والعلم والأخلاق ، وفي القضايا الوطنية والثقافية ، وكلها نابعة من فكر انسان ملتزم بدينه الإسلامي وتاريخ امته ونهج السلف الصالح ، ومتفاعل مع واقع مجتمعه وحقائق عصره ، ومتفتح على أفكار غيره ، وهو حريص أيضاً على بعث يقظة فكرية تربوية وسياسية في نفوس الأجيال تعيد للأمة كرامتها وللعروبة والاسلام مجدهما ، وللوطن حريته واستقلاله . (الشامي :١٩٨١:١٨٧) .

لقد نشر ابن باديس الوعي التحرري أيضاً عبر جمعية العلماء المسلمين – التي أسسها ورأسها – وعبر مدارسها ، وفي جميع أوقاته حتى في الدكاكين والأسواق . تبرز أيضاً تربيته الفريدة للنشئ عبر الخطابة والصحافة حيث كان للجرائد والمجلات التي أصدرها مثل الشهاب والصراط والمنتقد أثر بارز في نيل الجزائر لاستقلالها ، حيث نشرت الوعي السياسي والتربية الوطنية بين الجزائريين، وحملت لواء الدفاع عن حقوق الشعب الجزائري ومقومات شخصيته الوطنية .

إن ابن باديس مرب عظيم ، استطاع أن يربي للجزائر جيلين من الرجال الصناديد ، كانا عمدة نهضتها العربية الإسلامية الحديثة ، وقد كان له رأي خاص في تربيته الناشئة الجزائرية ، نظراً لظروف الجزائر الشاذة الناجمة عن الاحتلال الفرنسي ، لخصه البشير الإبراهيمي : "كانت الخطة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة المنورة سنة ١٩١٣ في تربية النشئ ، هي ألاّ نتوسع له في العلم ، وإنما نربيه على فكرة صحيحة ، ولو مع علم قليل ؛ فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا " (رابح ،١٩٨١:١٥٩) .

المطلب الثاني :

الأخذ بدور العلماء لدب الوعي التحرري

إن صوراً من كفاح العلماء المسلمين الجزائريين ضد الاحتلال الفرنسي كانت ذات جدوى وأثر كبير في نيل الجزائر لاستقلالها حيث أن توضيح مكانة العلماء في قيادة الأمة التي اشار إليها الاستاذ محمد قطب في مقولته التي جاء فيها : " لقد كان علماء الدين في تاريخ هذه الأمة هم قادتها وموجهيها ، وهم ملجأها كذلك إذا حزبهم أمر وملاذها عند الفزع " (قطب،١٩٨٧:٣٢٦) . وكما كان العلماء هم قادة الأمة ومرشديها في أمورها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية ، كذلك كانوا دعاتها إلى الجهاد كلما حدث على الأمة عدوان ، يذكرونها بالله وباليوم الآخر ، وبالجنة وبالنار وكانوا يشاركون في الجهاد بأنفسهم أحياناً بل يقودون الجيوش بأنفسهم أحياناً .

ولما ابتعد العلماء عن الساحة أصبحت القيادة في يد مجموعة من الزعماء العلمانيين الذين صاغهم الاستعمار والغزو الفكري الذين أخذوا يطالبون بحقوق الجماهير ، ويطالبون أن تكون الأمة مصدر السلطات ، وأن يكون للحاكم حدود يلتزم بها ولا يتجاوزها.

لم تنقطع نداءات ابن باديس لجمع الطاقات وتوحيد الصفوف معتمداً على كتاب الله وسنّة رسوله عليه السلام ، اللذين هما الأساس لكل نهضة تتطلع لها الأمة، ورغم ما للأعمال الفردية من منافع ، إلا أنه لا ينهض بالأمم والشعوب من العمل الا ما كان منه منظماً . وبعد عشر سنوات من شروعه في التعليم وظهور نتائج ذلك النشء العلمي الذي كونه ، حاول ابن باديس أن يعلن الدعوة العامة إلى الإسلام الخالص والعلم الصحيح ، ففي سنة ١٩٢٤، تدارس مع الاستاذ البشير الابراهيمي فكرة تأسيس جمعية تكون نواة للعمل الجماعي تحت اسم : الإخاء العلمي ، تجمع شمل العلماء والطلبة ، وتوجه جهودهم، وتقارب بين مناحيهم في التعليم والتفكير ، وتكون صلة تعارف بينهم ، ومزيلة لأسباب التناكر والجفاء ، ثم حدثت حوادث عطلت المشروع الذي كان لا بد له من زمن أوسع ، حتى يتخمر وتأنس إليه النفوس التي ألفت التفرقة ، بعدها انصرف ابن باديس إلى تأسيس الصحافة الإصلاحية ، فكانت جريدة المنتقد ، ثم الشهاب التي كان لها في سنتها

الثانية والثالثة دعوة إلى مثل تلك الجمعية وكان كتّاب الشهاب إذ ذاك كتبوا في ذلك الموضوع ، وكانت تلك الأفكار والأقوال تمهيداً للعمل ، ثم أيضاً تمهيداً لجمع شمل العلماء في الجزائر تحت لواء التنظيم المنشود ، فكتب ابن باديس في الشهاب تحت عنوان كلمات حكيمة : "إنما ينسب للوطن أفراده الذين ربطتهم ذكريات الماضي ومصالح الحاضر ، وآمال المستقبل . والنسبة للوطن توجب علم تاريخه ،والقيام بواجباته ، من نهضة علمية واقتصادية وعمرانية ، والمحافظة على شرف اسمه وسمعة بنيه" (ابن باديس،١٩٣٧:٨) ، كما بادر ابن باديس إلى تأسيس جمعية التربية والتعليم الإسلامي بقسنطينة (حميداتو،٢٠٠٥:٢٢).

تأسس التنظيم المنشود ألا وهو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة ١٩٣١ كما أسلفنا ، في مرحلة دقيقة عبرتها الجزائر المعاصرة ، حيث أتت لتتقاطع مع أكثر من خط :

أ. مع فرنسا المستعمرة ، ومشاريعها اللاغية للجزائر تاريخاً وواقعاً وفكراً .

ب. مع وضعية التردد واللاحسم من قبل عدد من التيارات المحلية .

جـ. مع إنكفاء الحركة الشعبية وانزوائها في ممارسة طقوس وجدت فيها مجال تمايز وحيد عن فرنسا .

د. مع الحاجة الملحة لمشروع جديد يقود الجزائريين عملياً ، نحو توازن أقوى مع قوات الاحتلال ، جاءت الجمعية لتقيم هذا التوازن ، على المستوى الثقافي – الحضاري، الذي سوف يؤدي بدوره إلى توازن على المستوى السياسي ، والتوقيت كان مناسباً ودقيقاً (الخطيب،١٩٥٨:١٢٣).

كان مركز نشاط الجمعية الأول في نادي الترقي بالعاصمة الجزائرية ، وقد تولى رئاستها منذ تأسيسها الشيخ ابن باديس ، وبعد وفاته خلفه الشيخ الإبراهيمي الذي ظل رئيساً للجمعية ، وهو في المنفى ، إلى تاريخ حلها عام ١٩٥٦، بعد إندلاع الثورة الجزائرية بسنتين ، لقد سعت الجمعية إلى محاربة الاحتلال السياسي والتغريب الثقافي والتجنيس والفرنسة والتنصير ، بإتباع وسائل ذكية تحول دون تعرضها المباشر والفوري لخطر الانتهاء أو حظر النشاط من قبل المستعمر ، فركزت على النواحي الثقافية ، عاكسة بذلك "براءة" سياسية ، سوف تظهر التطورات اللاحقة "ذنبها" الكبير الذي سحب بساط الاستقرار من تحت أقدام فرنسا ، ويمكن إيراد الأهداف التالية للجمعية (الشامي،١٩٨١:١٨٤):

- جمعية العلماء تعمل للإسلام بإصلاح عقائده ، وتفهم حقائقه ، وإحياء آدابه وتاريخه ، وتطالب المستعمر بتسليم مساجده ، وأوقافه إلى أهلها ، وتطالب باستقلال قضائه .
- تسمي الجمعية عدوان المستعمر على الإسلام ولسانه ومعابده وقضائه عدواناً .
- تطالب بحرية التعليم العربي ، وتدافع عن الذاتية الجزائرية التي هي عبارة عن العروبة والإسلام مجتمعين في وطن .
- تعمل الجمعية لإحياء اللغة العربية وآدابها وتاريخها ، في موطن عربي وبين قوم من العرب .
- توحيد المسلمين في الدين والدنيا وتمكين أخوة الإسلام .
- تذكر المسلمين الذين يبلغهم صوتها ، بحقائق دينهم وأمجاد تاريخهم وأعلامهم .
- تقوية رابطة العروبة بين العربي والعربي ؛ لأن ذلك طريق لخدمة اللغة والأدب.

يتضح من كل ذلك ، أن هدف الجمعية سياسي بوسائل تربوية ، أي مباشرة عملية ردّ ثقافي على تغريب واستعمار فرنسي ، يحاول قتل الرغبة بالحرية الكامنة في نفوس الجزائريين ، ومما زاد في أهمية أهداف وعمل الجمعية ، تعاظم الحملة المعادية للإسلام حيث جاء الاستعمار الدنس إلى الجزائر يحمل السيف والصليب ، ذلك للتمكن ، وهذا للتمكين؛ فملك الارض واستعبد الرقاب وفرض الضرائب وسخّر العقول والابدان ، ولم يتوقف عند هذا الحد ، بل وقف للإسلام بالمرصاد من أول يوم ، وانتهك حرماته ، فابتز أمواله الموقوفه بالقهر ، وتصرف في معابده ، بالتحول والهدم ، وتحكم في الباقي منها بالاستبداد ، واحتضن اليهودية ، وحمى أهلها وأشركهم بالسيادة ، ليؤلبها مع المسيحية على حرب الإسلام (الابراهيمي، ١٩٦٤:١٤٥) ، وبهدف مواجهة حملة استعمارية كتلك، كثفت الجمعية نشاطاتها التي تركزت أساساً على إنعاش مؤسسات التعليم والتربية التقليدية مثل الزوايا والكتاتيب والمساجد ، وإنشاء مدارس إسلامية جديدة مستقلة عن الإدارة الفرنسية ، في شكلها وإدارتها وموادها التعليمية ولغتها ، وقامت الجمعية تحت إشراف ابن باديس بالتالي (الشامي،١٩٨١:١٨٥):

- أعدت مدرسين في الكتاتيب التي انتشرت بسرعة في الاحياء والقرى كافة ، ليعلموا الاطفال مبادئ القراءة والكتابة باللغة العربية ، كمدخل ضروري لتدريس القرآن وحفظه .
- أعادت تنشيط الزوايا ، وتنقية الطرق الصوفية ، بفضح بعض مشايخ الصوفية الذين كانوا يدعون للانكفاء والاستسلام للأمر الواقع .

- جددت نشاط المسجد التعليمي والتربوي والوطني ، ويذكر أن الحملة الفرنسية المعادية للمساجد اسفرت بعد عدة سنوات من الاحتلال عن تقليص عدد المساجد إلى ١٦٦ مسجداً في مقابل ٣٢٧ كنيسة و٤٥ معبداً يهودياً .
- أنشأت مدارس تربية وتعليم في جميع أنحاء الجزائر ، وبتمويل ذاتي من الأهالي ومن أموال الاوقاف .
- نشر الأخلاق الفاضلة والمعارف العربية الفرنسية ، والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين .
- إيفاد البعثات الدراسية إلى الخارج وخاصة فرنسا ، وكذلك البعثات التربوية لإبقاء الصلة بين المهاجرين ودينهم وتحصين هؤلاء من الذوبان في ثقافة الغرب .
- إصدار الصحف والمجلات وتفعيل الدور الاعلامي الوطني والعربي الإسلامي .

ويستمر إنسياب مرتكزات تأصيل فكر ابن باديس عبر المرتكز الصحفي ، فقد كان الشيخ ابن باديس من بناة الصحافة العربية في الجزائر الحديثة (رابح،١٩٨١:١٥٩)، وقد أسس مجموعة من الجرائد ، بعضها مثل جريدة المنتقد ، التي لها من اسمها نصيب كبير ، حيث أصدرها سنة ١٩٢٥ ولم يصدر منها سوى ثمانية عشر عدداً ، اذ أغلقتها قوات الاحتلال بسبب صريح عباراتها ، وحدة لهجتها المناوئة لها ، وبعد إغلاق المنتقد ، أصدر الشيخ جريدة الشهاب ، وذلك في العام نفسه والتي اضطرت للصدور كمجلة اسبوعية ثم شهرية إلى أن توقفت عام ١٩٣٩. كما أصدرت جميعة العلماء المسلمين صحيفة السنّة المحمدية عام ١٩٣٣ فأغلقها الاحتلال في العام نفسه . وأعقبها صدور الشريعة المطهرة والبصائر ، وأغلقتا ، ثم جريدة البصائر عام ١٩٣٥ التي استمرت حتى عام ١٩٥٦، حيث أن الجمعية وبعد جهود مضنية تمكنت من الحصول على رخصة باسمها تسمح بموجبها السلطات الفرنسية للجمعية باصدار البصائر ، وقد كان للجرائد والمجلات تلك ، أثر بارز في النهضة ، حيث نشرت الوعي السياسي، والتربية الوطنية بين المواطنين ، وحمل ابن باديس من خلالها لواء الدفاع عن حقوق الشعب الجزائري السياسية ومقومات هويته (قاسم،١٩٦٧:١٩).

مما يؤخذ على التجربة الخاصة بجمعية العلماء المسلمين أنه لم يكن لها مشروع دولة وإنما كان هدفها الاستقلال فلما ساهمت بانجاز الاستقلال وخروج المستعمر الفرنسي، أخذ العلمانيين مكانهم في الحكم والإدارة والتوجيه وهي نتيجة مرّة لاستشهاد أكثر من مليون جزائري . ومن الملاحظ أن تجربة هذه الجمعية لم تتكرر في بلد آخر

لقيادة الأمة نحو التحرير لا في زمانها وإلى الآن ، ولعل ذلك يرجع لشخصية الشيخ عبدالحميد بن باديس . هناك بعض الأسباب في تعليل لماذا لم تستلم الجمعية زمام الحكم في الجزائر بعد الاستقلال وهي ذات الأسباب التي أقعدت الحركة الإسلامية المعاصرة منها :

أولاً : القصور الواضح في إدراك خطورة النشأة ، حيث نشأت الجمعية كجمعية دينية لا علاقة لها بالسياسة مما أثر تأثيراً بالغاً في الخطاب السياسي للجمعية حيث أن الخطاب السياسي هو الذي يشكل وجه الدولة وكل خطاب يسيطر يخلق واقعاً جديداً فالواقع الثقافي والاجتماعي والديني بعد الثورة الفرنسية مثلاً يختلف عن الواقع قبلها .

ثانياً : قصور في فهم الخطاب السياسي الإسلامي وهو ما جعل بعض العلماء يعجز عن طرح التصور البديل للنظام القائم .

كما أن الاخفاق الذي تعاني منه الحركة الاسلامية المعاصرة يمكن أن نرجعه إلى الفصل بين العقيدة وبين الخطاب السياسي وإلى عجز كثير من العلماء عن معالجة اشكاليات الواقع المريض الذي فرضه علينا الغرب (النجار،١٩٩٩: ١٧٨).

لقد حاربت فرنسا جمعية العلماء المسلمين ووضعت في مسيرتها الدعوية كل العقبات ففي ١٦شباط ١٩٣٣ نشر والي العاصمة الجزائر بياناً هاجم فيه جمعية العلماء واتهمها بالعمالة للجامعة الإسلامية ، وبعد يومين اصدر قراراً بمنع العلماء من التدريس والإرشاد في المساجد دون رخصة من السلطة الفرنسية وبلغ الصراع أوجه في عام ١٩٣٨ اذ أصدر وزير الداخلية الفرنسي قانون ٢٠كانون ثاني للتضييق على نشاطات الجمعيات والنوادي الثقافية والرياضية والمدارس التابعة لجمعية العلماء وبقرار ٨ آذار الصادر من الوزير نفسه أغلقت مدارس حرة عديدة واعتقل كثير من العلماء بذريعة عدم امتلاك الرخصة (رابح،١٩٨١ :٦٠) .

المبحث الثاني :

الإنخراط في العمل السياسي والصحفي

إن من الآثار التي تركت بصماتها والعوامل التي أحاطت بابن باديس ، كل ذلك دفعه قدماً لاقتحام باب العمل السياسي والانخراط فيه على الرغم من الحذر الذي كان يبديه ابن باديس نتيجة ابتعاد الكثير من العلماء المسلمين من ذوي الاختصاص في العلوم الشرعية عن السياسة في أوائل القرن المنصرم ، لأن السياسة قد أضحى لها مفهوم عجيب يوم ذاك ، لأنهم أخذوا هذا المفهوم من اللغات الأوروبية التي تربط السياسة بالخداع والغش والكذب والمناورة .

ولما كان العلماء هم قادة الأمة ومرشديها في امورها كلها ، كذلك كانوا دعاتها إلى نيل التحرير وتحقيق الاستقلال كلما حدث على الأمة عدوان ، لهذا وجد عبدالحميد بن باديس نفسه وجهاً لوجه مع الأعباء الثقيلة التي لا بد له من حملها ، تبرئة للنفس واستحقاقاً لواجبات عليه القيام بها لينهض ببني ملته على طول الأرض الجزائرية وعرضها ، فنهض بالأعباء كلها دون مراوبة أو زوغان فندد باولئك الذين صاغهم الاستعمار من بني جلدته ، ليعودوا عن غيهم وضلالهم ومن ثم ندد بالاستعمار وغزا الساحة الجزائرية بالسياسة والاعلام حيث جعل من مادته الصحفية سبيلاً لإيقاظ الوعي من سباته وتوصيل كلماته إلى الشعب الجزائري ليقوم بأعباء التحرير مهما كانت التكاليف وليسمع من خلال الصحافة العالم مشهّراً بالظلم الذي تلحقه فرنسا بالشعب الجزائري من أجل كسب الرأي العام العالمي للضغط على فرنسا للانسحاب من الجزائر وأبقاء الوطن الجزائري للجزائريين ، ونحن في هذا المبحث سنتناوله من خلال المطلبين التاليين :

المطلب الأول : السياسة في فكر ابن باديس .

المطلب الثاني : الصحافة في فكر ابن باديس .

المطلب الأول :

السياسة في فكر ابن باديس

إن تعريف لفظ السياسة في اللغة العربية يدل على الرعاية والاهتمام والمداراة ، وقد جاء في لسان العرب لابن منظور أن كلمة سياسة معناها القيام على الشيء بما يصلحه (ابن منظور ،بدون:١٠٨) ، أما أبو البقاء الكفوي فيعرف السياسة على أنها استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجب (ابو حبيب ،١٩٨٥:٤٤٠) ، وأما زعمهم أن السياسة هي فن الغش والكذب فليس في حياة المسلم أي مكان لذلك حتى أن الرسول عليه السلام أمر بالصدق وحث عليه وحذر من الكذب ، وقد أصبحت السياسة في عصرنا علماً مستقلاً له مناهجه وبحوثه المختلفة ، وتطورت المفاهيم وتعقدت حتى أن تعريف السياسة اصبح هو الآخر يعكس هذا التطور حيث يقول أحد الباحثين أن السياسة أو مفهوم السياسي هو :" مجموعة العلاقات التي تتناول الحكم والسلطة " . ويعرض هذا الباحث لأقوال العلماء الغربيين من ارسطو وماكس فيبر وغيرهما ويضيف قائلاً : " إن السياسة إنما تتعلق أساساً بالأفكار والمبادئ اللتين تكونان الجسم العقدي الذي يصنع القرارات في داخل الجماعة ، وبما يتضمنه من مؤسسات سياسية رسمية وغير رسمية والتي يناط بها ممارسة المسؤوليات العامة " (درويش،١٩٧٥:٢٣) .

ولئن لم يتطور لدى المسلمين علم بالمعنى المفهوم لدى الغرب اسمه (علم السياسة) فإن الفقه الإسلامي وهو العلم الذي يشمل السياسة وغيرها يضم في فروعه ما يسمى (السياسة الشرعية) أو ما يطلق عليه الأحكام السلطانية وهذه تتعلق بالدولة وأجهزتها ومسؤولية كل جهاز ومؤسسة . من التعاريف الدقيقة لما هو سياسي أو سياسة هو ما كتبه أحد الباحثين المسلمين :" إنما السياسة هي الإدارة العامة لشؤون الناس، إما أن تفضي إلى عدل أو إلى ظلم ، والقرار السياسي هو الذي يحدد طبيعة السكن الذي نسكنه ، وطبيعة الطريق التي نسلكها ، وطبيعة الجريدة التي نقرأها ، وطبيعة التلفاز الذي نشاهده ، وكمية الدراهم التي نحملها في المحفظة " (مطبقاني،١٩٨٩:٢٨). فإذا كان هذا هو تعريف السياسة وكيف أن الاسلام دين يدعو إلى الصدق والأمانة والتقوى ؟ كل ذلك استنبطه ابن باديس وتأثر بالمفهوم الإسلامي للسياسة .

لا شك أن السياسة في ذهنية ابن باديس كان لهـا آثـار اشـعلت اسـتنكار الحكومة الفرنسية وإدارتها الاستعمارية في الجزائر . وعلى الرغم من انشغال ابـن باديس بالتعليم والتفرغ له إلا أنه كان ممن لا يهابون الخوض في أمور الـسياسة ، منطلقاً في ذلك من نظرته الشاملة للاسلام الذي لا يفرق بين السياسة والعلم ، ومـع أن القانون الأساس لجمعية العلماء المسلمين ينص على عـدم الاشـتغال بـالامور السياسية ، إلا أنها تركت المجال مفتوحاً أمام أعضائها للخوض في هـذا الميـدان بصفتهم الشخصية ، وكان فارس الميدان في ذلك رئيسها ، الإمام ابن باديس الـذي كانت له مواقف ثابتة تجاه ما يجري في الجزائر وفي العالم الإسلامي ومن مواقفـه المشهورة في هذا المجال دعوته لعقد مؤتمر إسلامي في الجزائر للحيلولة دون تنفيذ مؤامرة ادماج الشعب الجزائري المسلم في الامة الفرنسية النصرانية التي كان ينادي بها من بعض النواب ورجال السياسة الموالين لفرنسا ، ورغم أن غالبيـة اللـذين حضروا المؤتمر كانوا من أنصار سياسة الادمـاج إلا أن ابـن بـاديس ورفاقـه استطاعوا توجيه قراراته للاعتـراف بالشخـصية العربيـة الاسـلامية للجزائـر (سعدالله،١٩٨٣:٥٠).

ولما لاحت نذر الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩م سعت فرنسا إلى كسب تأييـد مختلف الجماعات السياسية في الجزائر فأبدى الخاضعون لسلطانها تأييدهم ومساندتهم لها، ولما عُرض هذا الأمر على ابن باديس رفضه ورفضته جمعية العلماء بأغلبية أعضائها، عندها قال ابن باديس : " لو كانت الأغلبية في جانب موالاة فرنسا لاستقلت مـن رئاسـة الجمعية ولن اوقع على برقية التأييد ولو قطعوا رأسي " (سلطاني،١٩٨٢:٧٤). وكان ابن باديس يرى ضرورة العمل من أجل الاستقلال والتضحية في سبيل ذلك وأن الحريـة لا تعطى ولا توهب بل سجل التاريخ أنها تؤخذ وتنتزع . وتظهـر مواقـف ابـن بـاديس السياسية في المقالات المتعددة التي ضمنها جرائد ومجلات الجمعية والتي تناول فيها مـا يجري على الساحتين العربية والإسلامية من أحداث فقد كتب عـام ١٩٣٣م مـثلاً فـي جريدته المسماة "الصراط" موضحاً موقفه من أصحاب الطرق الصوفية الموالين لفرنسا : "لقد كان أعوان الباطل يظنون أنهم يستطيعون الاعتماد على عامة الـشعب التـي تعـد بالملايين ، لكنهم فوجئوا عندما علموا أن صـوت المـصلحين سـبقهم إلـى الـشعب " (ابن باديس،١٩٣٣:٢) ، كما تظهر مواقفه كذلك في البرقيات العديدة التي بعث بها إلـى

جهات إسلامية وأخرى أجنبية يوضح فيها موقف الجمعية من مختلف الأحداث . كما أن لابن باديس رأي في مسألة الخلافة حيث يستلهم خطبة أبي بكر الصديق عندما تولى الخلافة حيث يتولاها الأكثر تقوى والذي يعامل الناس بسواسية وعدل كما يتضح موقفه المناهض للصهيونية واحتلالها لأرض فلسطين ، كما أن الذهنية السياسية لابن باديس وجمعية العلماء ونشاطها السياسي كانت محط تركيز بعض التقارير الغربية السياسية التي أبرزت بشكل من الأشكال خطورة فكر ونشاط الجمعية ورئيسها في المجال السياسي ، وقد فهم هذا بعض الباحثين الغربيين ونكتفي هنا بذكر باحث امريكي كتب مقالاً في المجلة التنصيرية المشهورة (العالم الإسلامي Muslim World) حول حقيقة العلماء وخطورة ما ينبثق عن الذهنية السياسية لابن باديس ، فكان مما قاله ذلك الباحث :" الذين قادوا الثورة ضد فرنسا على المستوى الثقافي هم أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، هذه الجمعية التي تأثرت بالافغاني ومحمد عبده والتي أسسها الشيخ عبدالحميد بن باديس سنة ١٩٣١، وكان هدفها رفض الاندماج الكلي بفرنسا ، واصلاح ما فسد من الممارسات الإسلامية لدى عامة الشعب الجزائري التي جعلت لديهم قابلية للاستعمار ، ووسعوا التعليم العربي والديني . لم يبدأ العلماء الثورة ولكن سرعان ما أيدوها " (بن عتيق،١٩٩٠:٨٥) .

وأخيراً فإن العلماء فهموا السياسة ، وكان على رأسهم ابن باديس بذهنيته السياسية المتقدة وكانت له ولهم مواقف وأقوال بارزة ، ويبدو لنا ان الانفصام بين العلم والسياسة هو أحد الأسباب التي جرّت على هذه الأمة ألواناً من التخلف والظلم والتبعية الفكرية والسياسية والاقتصادية ، لم يكن هدف ابن باديس الخوض في المسائل السياسية البحتة ، بل ان ما تعانيه بلاده من ظروف متردية نتيجة الاستعمار الفرنسي الظالم ، فرض على ابن باديس الولوج إلى هذا الحقل من أماكن متعددة وإن لم يصرح بذلك أحياناً ، بتوعية الشعب بحقوقه وبالظلم الذي تمارسه فرنسا عليه ، وكذلك فإنه نشط في تحضير الرأي العام وتعبئة الشعب الجزائري لكي يقوم بمطالبة فرنسا بحقوقه ، لقد زرع ابن باديس بذور الثورة وما إهانة الشعور العربي الإسلامي من قبل فرنسا بطريقة منهجية مطردة إلا ممهداً لحوادث ١٩٤٥ ثم للثورة الشاملة (قاسم،١٩٦٧:٧٦) .

المطلب الثاني :

الصحافة في فكر ابن باديس

هناك من يعرف الصحافة بأنها جميع الطرق، التي تصل، بواسطتها، الأنباء، والتعليقات عليها، إلى الجمهور، وكل ما يجري في العالم، ويهم الجمهور، وكل فكر، وعمل روائي، تثيره تلك المجريات، يكون المادة الأساسية للصحف ، أي أن الصحافة تعني، بهذا المفهوم، فن تسجيل الوقائع اليومية، بدقة، وانتظام، وذوق سليم، مع الاستجابة لرغبات الرأي العام، وتوجيهه، والاهتمام بالجماعات البشرية، وتناقل أخبارها، ووصف نشاطها، ثم تسليتها، وشغل أوقات فراغها، ومن ثم فالصحافة هي مرآة تعكس صورة الجماعة، وأداءها وخواطرها ، فالصحافة وظيفة اجتماعية مهمتها توجيه الرأي العام، عن طريق نشر المعلومات، والأفكار الجيدة الناضجة، مفعمة ومنسابة إلى مشاعر القراء، خلال صحف دورية ، ويرى ويكهام ستيد، أحد أعلام الصحافة الإنجليزية، إن الصحافة ليست حرفة، كسائر الحرف، بل هي أكثر من مهنة، وهي ليست صناعة، بل طبيعة من طبائع الموهبة، والصحافيون خدم عموميون، غير رسميين، هدفهم الأول العمل على رقي المجتمع (مدكور،٢٠٠٢:٧٥) .

أدرك ابن باديس أهمية الصحافة باعتبارها من أهم الوسائل لنشر أفكاره الإصلاحية بين قطاعات الشعب المختلفة، فأصدر جريدة المنتقد سنة ١٩٢٥ ورأس تحريرها، لكن المحتل عطلها، فأصدر جريدة الشهاب في السنة نفسها، وعمد ابن باديس إلى استغلالها في توسيع دائرة نشاطه التعليمي، ليشمل أكبر عدد ممكن من الناس، فخصص افتتاحياتها لنشر مختارات من دروسه في التفسير والحديث، تحت عنوان: مجالس التذكير، واستمرت الشهاب في الصدور حتى سنة ١٩٣٩، كما اشترك في تحرير الصحف التي كانت تصدرها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مثل السنة والصراط والبصائر.

كان ابن باديس مشغوفاً بقراءة الصحف والمجلات العربية كالمنار للامام رشيد رضا ومجلة الفتح لمحب الدين الخطيب وجريدة المؤيد واللواء والجرائد الفرنسية ويقول ابن باديس : " لا ننكر أننا مع المعجبين بالصحافة الفرنسية الكبرى وما لها من بديع نظام ومهارة أقلام وجرأة وإقدام (ابن باديس، ١٩٦٨:٢١٢) وكان على يقين

بالأثر الفعال الذي تمارسه الصحافة في توعية الجماهير والتأثير في أصحاب القرار وهذا ما جعله يؤسس مطبعة ويصدر جرائد لتحقيق هذه الأهداف ودعم نشاطها التربوي خارج المسجد وتكريس الفكر التحرري الاستقلالي ففي بداية عام ١٩٢٥ اصدر العدد الأول لصحيفة المنتقد السالف ذكرها وكان شعارها (الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء) وفي عددها الثاني أكد من جديد على استقلالية الجريدة وشرح فلسفتها التي تعتمد على الوفاء للوطن والجرأة في بيان الحق : " إننا لسنا لإنسان ولا على إنسان وإنما نخدم الحق والوطن ونكرر القول إن "المنتقد" لا يباع ولا يشترى " (ابن باديس، ١٩٦٨:٢١٣) أصبحت هذه الصحيفة منبراً لتوجيه وتوعية الجزائريين وقناة لنقد الوضع الاستعماري المفروض على الجزائر وصوتاً لمناصرة القضايا الكبرى للمسلمين في فترة العشرينات من القرن العشرين كثورة الأمير عبدالأمير الخطابي في الريف المغربي وكذلك مساندة الشعب الليبي .

أصدر الأمام ابن باديس عدداً آخر من الصحف والمجلات ضمنها مقالات وفتاوى وقصصاً وأخباراً وطرائف وتراجم وعرضاً للكتب والصحف العربية والأجنبية وكذلك نشر مقالات للكتاب والشعراء العرب من مصر ولبنان وتونس والمغرب . في السنوات الأولى كتب ابن باديس معظم المقالات وقام بتصميمها وكان يوزعها بنفسه وكان مثله كمثل أبي الأعلى المودودي صاحب مجلة "ترجمان القرآن" في بداية مشواره الدعوي ، كانت لهذه المجلة شهرة واسعة في العالم الإسلامي ، وشهد بفضلها كبار العلماء والمصلحين . كتب الإمام حسن البنا في افتتاحية العدد الأول من مجلة أسسها ابن باديس وهي "مجلة الشهاب" في نهاية الأربعينيات من القرن الماضي حيث سطر البنا كلمة تقدير وجهها للامام عبدالحميد بن باديس ومجلته "الشهاب" ونذكر هنا بأن مجلة الشهاب في الجزائر قامت بقسط كبير من الجهاد مستمدة ذخيرتها من هدي القرآن الكريم وسنة النبي العظيم محمد عليه السلام كما كتب أيضاً في الثناء على مجلة الشهاب المفكر السوري الدكتور محمد المبارك في مجلة المجمع العلمي الدمشقية حيث أنه كان يطالع في شبابه في الثلاثينيات من القرن الماضي مجلة الشهاب الجزائرية التي تصل دمشق مع مجموعة من أصدقائه الطلبة بلهفة شديدة . وعن تأثيرها في المغرب يقول الشيخ محمد غازي أحد علماء فاس :" مجلة الشهاب الغراء خدمة

الإسلام والمسلمين عموماً والإصلاح والمصلحين خصوصاً ، تلك الجريدة التي كان الشمال الافريقي متعطشاً لمثلها منذ زمان (بن عتيق، ١٩٩٠:٧٥) .

فرض الشيخ عبدالحميد بن باديس نفسه على عالم الصحافة في عشرينات القرن الماضي وثلاثيناته وصار رائداً من رواد الصحافة العربية الحديثة وأرسى دعائمها على أسس متينة من الإيمان بالمبدأ والوطنية والتقاليد الصحفية العالية (تركي،١٩٧٠:١٨٥) . بعد جولة قصيرة في البلاد العربية ومنها مصر عاد ابن باديس إلى أرض الجزائر فكان لقاءه بالشيخ بخيت المطيعي في مصر وكانت هذه الزيارة اسهاماً في توسيع مدارك ابن باديس وزيادة معارفه حول الأمة الإسلامية . عاد ليبدأ الجهاد فاختار كتاب الشفاء للقاضي عياض وما أروع هذا الاختيار ، لقد علم ابن باديس ان بالجزائر امراضاً لا شفاء لها الا في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقضى زمناً يدرس حتى لاحت له الفرصة لاتخاذ قرار سياسي آخر اذ حين صدرت جريدة النجاح شارك فيها بالكتابة حول الجزائر وما تعانيه من احتلال (ناصر،١٩٨٠:٤٣) . ولكنه بعد فترة رأى أن يستقل بصحافة أكثر قوة وشجاعة وإخلاص فأسس جريدة المنتقد ليخالف أصحاب الطرق الصوفية الذين يقولون (اعتقد ولا تنتقد) .

لكن كل ذلك كان صوب رغبة ابن باديس في توجيه نقده بصراحة ودون مداورة لينتقد الحكام والمديرين والنواب والقضاة وكل من يتولى شأناً عاماً من أكبر كبير إلى أصغر صغير ، من الفرنسيين والوطنيين ويناهض المفسدين والمستبدين فينصر الضعيف والمظلوم بنشر شكواه والتنديد بالظالم كائناً من كان .

إن النشاط الصحافي الأكبر لابن باديس يتمثل في صبغة سياسية قام بها منذ بدأ دعوته إلى الله ألا وهو العودة إلى الإسلام الصحيح خالٍ من الشوائب والخرافات في الاعتقاد والتشريع ، وكذلك الدعوة إلى الإهتمام باللغة العربية . جاءت فرنسا إلى الجزائر لتحارب الإسلام والعربية وتحارب الجزائريين الذين يعتزون بانتمائهم للإسلام واللسان العربي ، فنجح ابن باديس أيما نجاح في بث الشعور بالانتماء إلى الإسلام

ولغته ، ووفرت له الصحافة نشر دعوته إلى جميع أنحاء الجزائر وخارجها وتعدى ذلك ليبعث الدعاة إلى فرنسا .

كانت الصحافة الإصلاحية في زمن ابن باديس في طليعة وسائل التربية والتعليم، فقد ساهمت في نشر الفضيلة، ومحاربة الرذيلة، وتبصير العقول، يقول ابن باديس: (وسيكون هذا الباب من المجلة مجالاً لفنون من التذكير، جعلنا الله والمؤمنين من أهل الذكرى، ونفعنا بها دنيا وأخرى) . يوضّح أنواع ذلك التذكير، فيقول: (ننشر في هذا الباب من مجلة (الشهاب) ما فيه تبصرة للعقول أو تهذيب للنفوس، من تفسير آية كريمة أو حديث شريف، أو توضيح لمسألة في أصول العقائد أو أصول الأعمال، معتضدين بأنظار أئمة السلف الذين لا يُرتاب في رسوخ علمهم وكمال إيمانهم، وأئمة الخلف الذين درجوا على هديهم، في نمط وسط بين الاستقصاء والتقصير) (ابن باديس،١٩٣٧:٣) ، فكانت الصحافة من أمضى الأسلحة التي حاربت بها الحركة الإصلاحية خصومها، ونشرت بها أفكارها وتعاليمها. وقد شهدت الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى صراعًا مريرًا بين رجال الإصلاح من جهة، وأصحاب الطرق الصوفية المنحرفة من جهة أخرى (ناصر،١٩٨٠:٨٥) . ولعل عبد الحميد بن باديس كان من الرائدين الذين جعلوا الصحافة من الوسائل التي يجب الاعتماد عليها لنشر الوعي عند الجماهير وتحسيسها وتجنيدها.

الفصل الرابع :

تأصيل الفكر التحرري عند ابن باديس

لقد كان ابن باديس مؤمناً بالحرية ، واعتبرها حقاً شرعياً للإنسان وبـــدونها تنعدم وتزول إنسانيته ، فحق كل انسان في الحرية كحقه في الحياة ، كما أكد الشيخ ابن باديس على أن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا ، ولم يكن من الذين يدّعون علم الغيب مع الله تعالى ، ويقولون أن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلـــى الأبد ، فكما تقلبت الجزائر مع التاريخ ، فمن الممكن أن تزداد تقلباً ، وتصبح الأمة الجزائرية مستقلة استقلالاً واسعاً تعتمد عليه فرنسا اعتماد الحر على الحر.

لم يكن ابن باديس من النوع الذي يؤثر القول على الفعل بل كان من النـــوع الذي يقرن الأقوال بالأفعال ، فكما أنه علم جماهير الأمة ونفض غبار الجهل عنهـــا وصقل روحها العامة فإنه كذلك وصل ليله بنهاره من أجل أن تنعم بلاده بالحرية ، حيث كان يسأل تلاميذه إن كانوا قد أدوا الخدمة العسكرية ، فمن أداها منهم ، ميزه عن زملائه وأشار إلى أنه سيحتاجهم يوماً ما .

إن التأصيل هو الوفاء للنص المقدس ، والاستظلال بروح أحكامه والالتـــزام بقيمه وتعاليمه ، ولا ينفي التأويل الذي هو ضرورة فكرية وإلزامية دينية وحتميـــة عصرية ، وابن باديس – رحمه الله – جعل من القرآن الكريم والـــسنة النبويـــة ، المحور الذي تدور عليه آراؤه الفكرية فهو رأس التربية الإسلامية وجوهر التأهيـــل النفسي والأدبي ، وقد استهدفت جهود ابن باديس التحررية ثلاثة أبعاد اختزلها فـــي شعاره المأثور : الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا .

وسنتناول هذا الفصل من خلال المبحثين التاليين :

المبحث الأول : تأصيل الفكر الوطني الجزائري .

المبحث الثاني : تأصيل الفكر القومي العربي في الجزائر .

المبحث الأول :

تأصيل الفكر الوطني الجزائري

من الطبيعي أن تكون الصبغة العامة لأي فكر وطني في كل البلاد والأوطان الواقعة تحت نير الاستعمار والقهر ، ذات نكهة مضمخة بحب الحرية والانعتاق من القيود، ديدنها رفض الاستعمار والاستعباد بل ومقاومته أيضاً ، وفي الجزائر مثلاً تم أيضاً رفض الاحتفال بمناسبات استعمارية يحتفل بها المستعمر ، لأن القبول بمثل هذه المظاهر الاستعمارية معناه السير في أول الطريق باتجاه فقدان الهوية الوطنية المميزة للجزائريين الخاضعين للاستعمار عن الفرنسيين الذين يستعمرون بلادهم .

يتمحور الفكر الوطني الجزائري في التركيز على خصائص الشخصية الوطنية الجزائرية ، التي تتجسد في تحديد عناصر الشخصية الجزائرية في مواجهة الفرنسة والاندماج والتغريب وتأكيد عروبة الجزائر ورفض الاحتلال ومقاومته ، حيث أن الاستقلال وتحرير الجزائر هو غاية في حد ذاته ، جاء ابراز أهمية الوحدة الوطنية للشعب الجزائري في اسهامات العديد من المفكرين الجزائريين ، ومنهم ابن باديس الذي اكد على مساهمة الأمازيغ (البربر) إلى جانب العرب في بناء صرح الحضارة الاسلامية، فاستحقوا بنوتها على قدر المساواة دون تفرقة وتمييز ، كما أكد أيضاً على أن تكوّن الأمة لا يتوقف على اتحاد دمها ولكنه متوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها وعقولها اتحاداً يظهر في وحدة اللسان وآدابه واشتراك الآلام والآمال (الميلي،١٩٧٣:٤٨) ، فالامتزاج الحضاري بين العرب والبربر ثابت وأكيد على مر الزمن ، ولم يفترقوا وهم الاقوياء ، فكيف يفترقون وغيرهم القوي ، والمقصود هنا فرنسا أو الاستعمار الفرنسي ، وكل محاولة من جانب الاستعمار للتفريق بين العرب والبربر لا تزيدهم إلا شدة في اتحادهم .

برز تأكيد الشخصية الوطنية الجزائرية كرد فعل على إصدار الإدارة الاستعمارية الفرنسية قانون الظهير البربري عام ١٩٣٠ (عبل،٢٠٠٠:٦٢)، والقاضي بمنح الجماعة المحلية صلاحيات قضائية ومحاكم لا تستند في أحكامها للشريعة الإسلامية بل إلى العادات والتقاليد البربرية أما الجنح فيتولاها التشريع الفرنسي ، مما رتب على ذلك أن شن رجال الإصلاح الديني حملة شعواء ضده (الميلي، ١٩٨٢:٣٨) . ولتحقيق أهداف هذا المبحث ، فسيتم تناوله عبر المطالبين التاليين :

المطلب الأول : تأكيد الشخصية الوطنية الجزائرية .

المطلب الثاني : تأكيد الاستقلالية الجزائرية بمعارضة التفرنس .

المطلب الأول :

تأكيد الشخصية الوطنية الجزائرية

ربما كان ابن باديس هو أول من حدد فكرة الوطن الجزائري في النصف الأول من القرن العشرين ، بعد أن ظنت فرنسا وظن الكثيرون معها أنها جعلت الجزائر مقاطعة فرنسية بفضل القرارات التي كانت تصدرها تباعاً منذ صدور الأمر الفرنسي في عام ١٨٣٤، والقاضي بأن الجزائر ملكية لفرنسا ، وذلك قبل أن تتمكن من احتلالها كلياً . ولما استطاعت القضاء على ثورة الأمير عبد القادر التي استمرت حتى ١٨٤٧(الخطيب، ١٩٥٨:٧٣) ، ثم بعد ذلك بعام ، أي في ١٨٤٨ قامت فرنسا بإصدار مرسوم تعلن فيه أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا ، وفي سنة ١٨٧٠ قسمت الجزائر إلى ثلاث مقاطعات فرنسية ، ثم عادت بعد مجزرة سطيف في سنة ١٩٤٥ تؤكد من جديد أن الجزائر فرنسية ، وتشرع لها دساتير صورية ترمي إلى التعلق بتلك الاسطورة التي حاكت خيوطها أكثر من قرن من الزمان ، فلم تقنع أحداً بصدقها . ما كان لفرنسا ولا لأعوانها أن يحملوا هذا الادعاء محمل الجد ، ولا سيما أن فكرة الجزائر العربية المسلمة ظلت راسخة في النفوس عبر الزمن ، رغم كل ضروب وأصناف العسف والإبادة منذ الفتح العربي الاسلامي.

لقد كان عبد الحميد بن باديس إماماً وعلامةً محباً لوطنه ، ووجدت فيه فرنسا خصماً عنيداً أفسد عليها سياستها ، ومهد الامام للقطيعة التامة بين الفرنسيين والجزائريين بعد الحرب العالمية الثانية ، وكشف النقاب عن عبث جميع المحاولات التي قامت بها فرنسا ، أو بعض زعماء الاحزاب السياسية الجزائرية في الثلاثينات والأربعينات ، ففي سنة ١٩٢٦م أصدر جريدة "المنتقد" بهذا العنوان :"الحق فوق كل أحد ، والوطن قبل كل شيء" ، لذلك نرى كم من الأهمية لهذا الوطن الجزائري في فكر ابن باديس ، حتى اعتبر الوطن قبل كل شيء ، فالجزائر اذن هي المعين الذين ينهل منه ابن باديس ، وهي البستان الذي يسقيه في الوقت نفسه : هي معه اينما حلّ، وهو لها مهما فعل وقال (القاضي،١٩٨١:٧٩)، ثم يعود شيخنا إلى تأكيد فكرة الوطن الجزائري في سنة ١٩٣٧، وذلك بعد عودة عشرات الألوف من الجنود

الجزائريين الذين جندتهم فرنسا لمساعدتها في الحرب العالمية الأولى حيث وجدوا أن فرنسا خدعتهم ، فهم قاتلوا إلى جانبها في الحرب العالمية الأولى وعندما عادوا لبلادهم ، وجدوا فرنسا تدمر بيوتهم وقراهم وتهدم مدنهم وتحكمهم بالحديد والنار ، إن ابن باديس يذكّر هؤلاء الجنود الذين أصابهم اليأس ، بأن مشكلة الجزائر لن تحل إلا على أساس الاعتراف بكيان هذا القطر العربي الاسلامي ، وهو يذكرنا بأنه نادى بهذه الحقيقة في الوقت الذي كانت فيه كلمة الوطن والوطنية جريمة سياسية ، فهو يقول : "وقليل جداً من يشعر بمعناها وإن كان ذلك المعنى ، دفيناً في كوامن النفس ككل غريزة من غرائزها ، لاسيما في أمة تنتسب إلى العروبة وتدين بالإسلام مثل الأمة الجزائرية " (قاسم، ١٩٦٧:٦٨) .

لكن في سنة ١٩٣٧ أصبحت هذه "الوطن" سهلة على كل لسان ، وقد يقولها قوم ولا يفقهون معناها ، وقد يقولها آخرون بألسنتهم ولا يستطيعون أن يتسموا بها في المكتوب من رسمياتهم ، ويفزع منها من يتخيلون فيها ما يعرفون في وطنياتهم، وينكرها آخرون زعماً منهم أنها ضد إنسانيتهم وعمومياتهم ، أما هؤلاء الذين يفزعون منها فهم فرنسيو الجزائر (القاضي،١٩٨١:٧٨) ، الذين يرون في فكرة الوطن الجزائري نهاية لسيطرتهم في شمال القارة الافريقية ، وأما هؤلاء الذين قد ينكرونها فهم هؤلاء الذين عنى ابن باديس بتوجيه الكلام إليهم ، وعلى رأسهم فرحات عباس الذي أحسن الظن بفرنسا ، وظن أن مبادئ ثورتها توجب عليها أن تطبق شريعة العدل في الجزائر كعضو في الإتحاد الفرنسي ، لكنه رجع عن رأيه ، واعترف بخطأه فيما بعد ، وانضم إلى جبهة التحرير في سنة ١٩٥٦ بعد أن انساق في ١٩٣٦ إلى انكار الوطن الجزائري في نصٍ مشهور أخذه عليه خصومه ، وليس رد الامام الشيخ عبدالحميد بن باديس على فرحات عباس أقل شهرة .

يتمثل رد ابن باديس فيما كتبه في مجلة الشهاب في عدد تشرين ٢سنة ١٩٣٧ تحت عنوان " كلمة مرة لأنها صريح الحق ولباب الواقع " حيث قال: " نعرف كثيراً من أبنائنا الذين تعلموا في غير أحضاننا ينكرون ، وربما من غير سوء قصد ، تاريخنا ومقوماتنا ، ويودون لو خلعنا ذلك كله واندمجنا في غيرنا ، وكنا نرد عليهم بالقول في كل مناسبة تبدو منهم فيها مثل هذه البوادر السامة

الخاطئة ، ووقع مرة أن كتب بعضهم ، وهو ممن له قيمة معتبرة عندنا ، ما هو صريح أو كالصريح في ذلك الضلال المهلك ، فرأينا من الواجب علينا أن نرد عليه "كلمة صريحة" نعرب بها في يقيننا ، عن الحقيقة التي يعتقدها الشعب الجزائري إلا الشاذ في صميم نفسه ، فقلنا في كلمتنا تلك ، الامة الجزائرية أمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا ، ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل أعمالها ، ولها وحدتها الدينية واللغوية ، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها ، بما فيها من حسن وقبيح شأن كل أمم الدنيا ، ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ، ولا يمكن أن تكون فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت ، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد ، في لغتها ، وفي أخلاقها ، وفي عنصرها ، وفي دينها ، ولا تريد أن تندمج ، ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري ، بحدوده الحالية المعروفة والذي يشرف على إدارته العليا السيد الوالي المعين من قبل الدولة الفرنسية" (ابن باديس،١٩٣٧:١٨).

لقد بين ابن باديس أنه وضح حقيقة الأمر في الوطن الجزائري ، وأنه قطع الطريق على كل متقول بالباطل ، وأن كلمته الصريحة قد حققت غايتها ، وأنها علت في الصحافة والمجالس والمؤتمرات على كلمة الباطل التي أرادت أن تجعل الجزائر فرنسية ، هذا إلى جانب أن الفرنسيين أنفسهم أخذوا يحتجون بها لمعارضة مشروع "فيوليت" الذي لم يطالب بالحقوق السياسية إلاّ لنحو خمسة وعشرين ألفاً من الجزائريين ، في حين طالب ابن باديس بالوطن الجزائري العربي المسلم لعشرة ملايين (قاسم،١٩٦٧:٦٩).

إن الجزائر كلها بمدنها وقراها ، بشرقها وغربها ، كانت رفيقة ضمير ابن باديس ومحط رحال نشاطه ، ففي محاضرة له بعنوان"لمن أعيش" ؛ وعندما شعر أن عليه أن يوضح هدفه من حياته كلها سأل نفسه السؤال الافتراضي التالي : "لمن أعيش أنا ؟ ، فجاءت إجابته حازمه وقوية : أعيش للإسلام والجزائر" (الميلي ، ١٩٧٣:١٧٠) ، وحقيقة ما كان أحد يستطيع تكذيب ابن باديس ، الذي يعرف الآخرون قدر ما بذل من نفسه وجهده في إرساء قواعد النهضة الجزائرية ، وهو وحده الذي يعلم كيف يجرؤ على أن يحشد الأمة وراءه للمطالبة بحقوقها

الوطنية والتمسك بعروبتها وإسلامها ، ففي الوقت الذي يحارب فيه الفرنسيون هؤلاء الذين يطالبون بتنفيذ مشروع "فيوليت" ، ويسجنون هؤلاء الذين يريدون تأسيس برلمان جزائري يشمل المسلمين والفرنسيين على السواء ويشرع القوانين للجزائر . ويغدو القطر الجزائري بذلك مستقلاً في إدارته عن فرنسا ، في ذلك الوقت يتكلم ابن باديس عن ضعف حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا ، وتنكرها لمبادئها ، وعن تغلب الطغيان الاستعماري والجبروت المالي الاستغلالي ، والاهتمام بحالة المستعمرين ، وصرف أموال باهظة لنصرة قوات الاحتلال الفرنسي (القاضي،١٩٨١:٨٠) ، لكي يعلن بعد ذلك للشعب الجزائري أنه من الواجب ألا نعتمد إلا على أنفسنا والتوكل على الله ، ثم يتوعد ابن باديس فرنسا بتلك الآية الكريمة : "وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون" صدق الله العظيم.

لقد تنبأ أحد أعوان ابن باديس لفرنسا بأسوأ مصير عندما قال : "تقول إنهم أخطأوا الطريق ... وإن عاقبة هذه السياسة الخرقاء لن تكون إلا وخيمة مهما اعتزوا بقوتهم واغتروا بسلطانهم " (قاسم ،١٩٦٧:٧٠) ، إن هذه اللهجة لا تصدر حقيقةً إلا في أمة عقدت العزم على التحرر ، وهي نبرة تعلوا قبيل الحرب العالمية الثانية ، وفرنسا في أوج سلطانها . إن وراء هذه الكلمات لنهضة جزائرية لا شك في أنها كانت تنبئ بالكثير الكثير من الخير القادم والبشرى المثمرة .

وأخيراً ، يؤكد الباحث على أن هذه النزعة الوطنية الجزائرية الواضحة في فكر الإمام عبد الحميد بن باديس ، هي نزعة متأصلة في ضميره ووجدانه ، وكان لا بد لها من أن تصل ضمير ابن باديس بالإسلام والعروبة ، اللذان كان لهما أثر كبير في تعميق تصور ابن باديس لوطنه .

المطلب الثاني :

تأكيد الاستقلالية الجزائرية بمعارضة التفرنس

من المسّلم به أن بريطانيا استعمرت بلاداً عديدة من بينها الولايات المتحدة الأمريكية والهند ، كما استعمرت اسبانيا دول أمريكا اللاتينية ، وعلى الرغم من الروابط الروحية واللغوية التي تربط بريطانيا بالولايات المتحدة ، واسبانيا بأمريكا اللاتينية ، فإن هاتين الدولتين لم تجرؤا يوماً على الادعاء بأن الولايات المتحدة أضحت بريطانيا وأن الأرجنتين أو المكسيك أو التشيلي هي اسبانية . لكن فرنسا على النقيض من ذلك ، ما كادت تعتدي على الأراضي الجزائرية ، وتشتبك مع شعبها في حروب دامية حتى أصدرت سنة ١٨٣٤م أمراً بتحويل الجزائر من أرض محتلة إلى "ملكية فرنسية" ناقضة بذلك العرف الدولي وحرية الفرد والجماعة (عبل،٢٠٠٠:٦٢) .

يقضي ذلك الأمر أن يحدد للقيادة العليا وإدارة الممتلكات الفرنسية بشمال افريقيا ، منصب حاكم عام ، يعمل تحت امرته موظفون عسكريون ومدنيون . ومما يبعث على العجب أن تحدد فرنسا مستقبل الجزائر قبل وثوقها النهائي من النصر متجاهلة بذلك وجود دولة جزائرية مستقلة ، وشعب عربي حر من حقه وحده تحديد مستقبل بلاده ، وزاد التعنت الفرنسي في تجاهل الحقيقة الجزائرية من شدة نار الحرب بينها وبين الشعب الجزائري حتى سنة ١٨٤٧ حين تمكنت فرنسا بواسطة القوة الغاشمة من كسب الجولة الأولى ، ولم يلبث أن أصدر المشرّع الاستعماري في ١٨٤٨ مرسوماً أعلنت فرنسا فيه أن الجزائر جزء لا يتجزء من فرنسا ، وأخذ المشرّع الفرنسي الاستعماري بعد هذا يسن القوانين وينظم دساتير حسب هواه دون الرجوع في شيء إلى الشعب الجزائري (الخطيب، ١٩٥٨:١٠٦). ومن المعلوم أن اتفاقيتي الداي حسين ، والأمير عبدالقادر مع القادة الفرنسيين كانتا اتفاقيتي تسليم عسكري لا أكثر ، وبهذا أصبح كل قانون يصدره الشارع الاستعماري بشأن الجزائر باطلاً أصلاً ، ذلك أنه ليس هناك اتفاقيات أو عقود تقضي بتحويل السيادة الوطنية أو تشهد بالعدول عنها ، كما لم تجر أية إنتخابات شعبية للمصادقة على قوانين من هذا القبيل .

إن فرنسا تدرك تماماً بطلان هذه القوانين من الناحية الواقعية ، إلا أنها تأبى التراجع عنها خشية فقدان امتيازاتها الاستعمارية ، ولذا صدر مرسوم في ١٨٧٠، يعلن أن الجزائر تتألف من ثلاث مقاطعات فرنسية ، وحتى يزداد الطين بلةً صدر أمر عام ١٩٤٤ يعلن أن المسلمين الجزائريين أصبحوا فرنسيين ، فساد التذمر بين أفراد الشعب الجزائري بعد هذا الإعلان ، وكانت مجزرة ١٩٤٥ كنتيجة لرد الفعل الشعبي . وفي ١٩٤٦/٥/٧ صدر قانون أعلن أن جميع الجزائريين مواطنون فرنسيون ، لكن الدستور الفرنسي في ١٩٤٦/١٠/٢٧ وضع حداً لهذه القوانين إذ أعلن أن الجمعية الوطنية لها وحدها صلاحية إصدار القوانين ، ولا يمكن أن تفوض هذه الصلاحية لغيرها ولا حتى للقائد العسكري ، وقد أحس المشرّع الفرنسي الاستعماري بأن قوانينه الخاصة بالجزائر لن تكون ذات صبغة فرنسية طالما أنها متباينة روحاً ومعنى مع الدستور الفرنسي ، ولهذا أكد الدستور في ١٩٤٦/١٠/٢٧ بأن النظام التشريعي لمقاطعات ما وراء البحار هو نفسه نظام الوطن الأم (فرنسا) ، إلا ما استثناه القانون (عبل،٢٠٠٠:٦٢) .

في عام ١٩٤٧ صدر قانون باسم (النظام الأساسي للجزائر) ، وهو بمثابة دستور خاص بها ، يحتوي على ستين مادة ، وقد جاء في أهم مواد اللائحة الأولى(راشد،٢٠٠٤:١٦٣):

أولاً : إن الجزائر عبارة عن مجموعة من المقاطعات لها ذاتيتها المدنية والمالية ، ونظامها الخاص المنصوص عليه في مواد هذا القانون .

ثانياً : المساواة التامة مكفولة لجميع المواطنين الفرنسيين في المقاطعات الجزائرية الثلاث ، دون تمييز في الأصل والجنس واللغة والدين .

خامساً : يمثل الحاكم العام حكومة الجمهورية الفرنسية في الجزائر.

سادساً : إنشاء مجلس جزائري يخول إدارة المصالح الجزائرية بالاتفاق مع الحاكم العام ، وقد حددت خصائص هذا المجلس ببحث النظام التشريعي والاقتصادي في الجزائر .

تبين للباحث من هذه المواد أن الجزائر عبارة عن دولة مستقلة استقلالاً إدارياً ومدنياً ومالياً ، وهذا ما يناقض تماماً الأسطورة الفرنسية القائلة بأن الجزائر جزء من فرنسا ، أي أن فرنسا نفسها لم تتمكن من إخفاء حقيقة الشخصية الجزائرية .

إن الجزائر ليست مقاطعة فرنسية مثل النورماندي وغيرها من المقاطعات الفرنسية التي تسير بموجب دستور فرنسا ، فقد وضع لها دستور خاص بها ، والسبب وراء وضع ذلك الدستور ، أن فرنسا تأبى مساواة الجزائريين بالفرنسيين في الحقوق والواجبات حيث يبرز هنا نظام الحماية وليس نظام الاندماج، كما ينص الدستور الجزائري الخاص على إيجاد مجمعين انتخابيين في الجزائر ، حيث يشمل المجمع الأول الأوروبيين واليهود ، وهو المجمع المفضل والحاكم بأمره، أما المجمع الثاني : وهو الخدم في نظر الاستعمار ، ويشمل الشعب الجزائري ، فهل يوجد مثل هذا النظام في فرنسا؟ بالطبع لا ، فالدستور الفرنسي ينص على مساواة جميع المواطنين في الحقوق والواجبات ، وحتى المادة الثانية من دستور الجزائر الخاص تمنح مثل هذه الحرية ، إلا أن المادة الواحدة والثلاثين منه تناقضها تماماً وتأبى إلا أن تميز بين شعب مستعبد وأقلية الأسياد الاوروبيين ، وكذلك لنفرض جدلاً أن الجزائر فرنسية أو جزء من فرنسا ، فلماذا وضعت على الحدود بين البلدين هيئات الجمارك؟ حيث نجد أن هيئات الجمارك غير موجودة بين باريس ومرسيليا مثلاً ، إضافة إلى وجود عملة خاصة بالجزائر ومصرف أيضاً ... أسئلة ومفارقات واضحة ، وجوابها واحد ، وهو أن الجزائر لها شخصيتها التي لا يمكن أن تتغير بتغير القوانين وشكليات الحكم فيها (سعدالله،١٩٩٢:٤٦٢).

أمام فرنسا أمران لا مناص منهما وهما : إما أن تبقى على النظام الحالي وبهذا تكون قد اعترفت ضمناً بالشخصية الجزائرية ووجودها ، وإما أن تدمج الجزائر دمجاً عملياً بفرنسا وتقتلع النظام الحالي من جذوره وتساوي بين الفرنسيين والجزائريين ، بحيث يكون القانون السائد في فرنسا هو نفسه المعمول به في الجزائر ، وبهذا يتقلص ظل الاستعمار عن الجزائر ، ويمسك الجزائريون البالغ عددهم آنذاك عشرة ملايين نسمة بزمام الحكم في بلادهم (الخطيب، ١٩٥٨:١١١)، وما أسهل الانفصال بعد هذا .

في كلتا الحالتين فرنسا خاسرة ، ففي الحالة الثانية وهي فرنسة الجزائر فرنسة صحيحة نقية ، وهذه لا يمكن أن تقرها فرنسا بسبب ضغط المزارعين المستعمرين الذين أطلق عليهم اسم (الكولون) نظراً لاغتصابهم أكثر الأراضي الجزائرية وأغناها ، حيث يأبى (الكولون) إلا أن يظل الجزائريون خدماً لديهم ، وعمالاً في مزارعهم ، يتقاضون أجوراً زهيدة لا تكاد تسد حاجة الفقير ، ويصرون على عدم مساواة الجزائري بالأوروبي حتى لا يطالب بحقه الإنساني المشروع ، ويقاوم (الكولون) دمج الجزائر دمجاً عملياً بفرنسا لأن الجزائريين يمثلون الأغلبية الساحقة في بلادهم ، بينما لا يتجاوز تعداد الأوروبيين المستوطنين في الجزائر مليون نسمة ، فإذا ما طبق قانون المساواة تطبيقاً صحيحاً يصبح للجزائريين تسعة أعشار الحكم في بلادهم ، وخمس الحكم في فرنسا ، وتخشى فرنسا إذا ما أفلتت يد الجزائريين في إدارة المصالح والمؤسسات الجزائرية أن يعلنوا بين ليلة وضحاها إنسلاخ بلادهم عن (الوطن الأم) ، ويدعموا استقلالهم بالبراهين والأدلة القاطعة التي لا تقبل الجدل والنقاش ، ولنفرض أن فرنسا قبلت مكرهة هذا الحل ، فالجزائريون ليسوا على استعداد لقبوله ، وكذلك فالشعب الجزائري ليس على استعداد لتبديل سيادته الوطنية وقوميته العربية ، بسيادة وقومية ولغة أخرى ، حتى ولو إلى حين، كما أن فرنسا كانت على علم بعدم قبول بل برفض ومقاومة الشعب الجزائري لكل ذلك (سعد،١٩٨٣:١١٧).

إن عبارة الجنرال (بيجو) وهو الحاكم العام للجزائر ، التي كان يرددها أمام أسقف المدينة ، في كل مرة يُحضر إليه مجموعة من الأيتام الجزائريين ، بعد تصفية أهاليهم ، اعتراف صارخ بأهمية الإسلام في يوميات المواجهة ضد الغزو الفرنسي والفرنسة ، أما العبارة فتقول : حاول يا أبتي أن تجعلهم مسيحيين ، وإذا فعلت ، فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار (عباس، بدون تاريخ :٩١) ، وهنا ينبغي عدم فهم التحصين الإسلامي الذي مارسه الجزائريون ، بوصفه مواجهاً للمسيحية ، وإنما وسيلة لإجهاض محاولات استعمال المسيحية من قبل قوة استعمارية غاشمة ، لا مكان لله عندها ، لا في القلب ولا في العقل ، تلك القوة التي

جعلت من المساجد كنائس تنشر المسيحية وتبشر بها في قطر إسلامي . كما استعملت في ذلك أموال المسلمين ، وتلك هي الطامة الكبرى .

بالنسبة لفرنسا ، لا يضمن استمرار السيطرة والاستعمار إلاّ الفرنسة الثقافية والسياسية والاجتماعية ، او لنقل لا يضمن استمرار الاستعمار الفرنسي للجزائر حسب وجهة نظر فرنسا ، إلا التخريب الثقافي (الحضاري) : حرب المقومات الثقافية (التعليم واللغة) ، وكذلك السياسية (التجنيس) ، والاجتماعية (التقاليد ، الأزياء ، الطقوس ، المرأة ....) . وما يضمن التغريب الثقافي يكمن في عزل قسري للجوانب الحضارية للتراث العربي الاسلامي في الجزائر ، وتبديل الهوية الثقافية السائدة ، والراسخة رسوخ التاريخ ، فلا تقبل فرنسا أدنى مصالحة مع حضارة المجتمع المغلوب ، وبالتالي على الجزائر أن تكون فرنسية في كل شيء، وأن تدفن ذاكرتها وجسور اتصالها بالماضي مرةً واحدة وإلى الأبد (رابح،١٩٨١:١٦١).

بهدف استئصال هذه المناعة الإسلامية ، ودفع المجتمع المغلوب للذوبان في المجتمع الغالب ، وبهدف تفكيك عرى الثقافة الاسلامية في الجزائر ، جهدت فرنسا في تطبيق استراتيجية تغريب وفرنسة شملت المستويات الثقافية كافة . ولقد أدركت فرنسا في البدء ان الثقافة الاسلامية تقوم على مبدأي التعليم والتربية ، ومأواهما الوحيد المساجد والزوايا ، ومراكز انتشار هذه الثقافة تستمر بفضل الأوقاف ، فعمدت فرنسا ومنذ السنة الأولى لوصول جيوشها إلى أرض الجزائر ، إلى مصادرة ملكية الاوقاف الاسلامية ، حيث سارعت إلى إصدار قانون وضع اليد على الاوقاف. والذي أصدر هذا القانون الجنرال (دي بومون) في الثامن من أيلول (سبتمبر) عام ١٨٣٠. أعقبه صدور قانون آخر مكمل له في كانون الأول (ديسمبر) من العام نفسه ، ينص على : حق التصرف في الأملاك الدينية بالتأجير أو الكراء (رابح، ١٩٧٤:١٣١) . وبهدف إضعاف علماء الاسلام الذين شكلوا نواة المواجهة الصلبة ومحورالتحصين الثقافي ، عمد مسؤولو الاحتلال إلى تنفيذ عملية تخريب ضد المراكز الدينية ، قامت على هدم المساجد والكتاتيب وبعض الزوايا التي كانت كلها تقوم بنشر التعليم ، والتي كان منها يتخرج المفتون والقضاة والمدرسون

والفقهاء والعلماء . وكانت الدعاوى التي استندوا إليها في ذلك على أنــواع ، فهــذا المسجد يوشك على الانهيار ، وهذا الكتّاب غير صحي ، وهذه الزاوية تعيــق مــدّ الطرق العامة ... الخ . ولكي تتم الحلقة حول الثقافة الوطنية اســتولى الفرنــسيون على الاوقاف الاسلامية ، بما في ذلك أموال الزكاة ، وسبل الخيرات ، وجعلوها من أملاك الدولة .

في وقت لاحق ، تكشف الارقام من جهتها ، بدون أدنى التبــاس الجوانــب المظلمة من سياسة التغريب الثقافي الذي استخدمته فرنسا لتعزيز منهج الفرنــسة ، حيث ورد في تقرير قدمه مدير اكاديمية الجزائر إلى لجنة الاصلاحات الإســلامية عام ١٩٤٤ ، أن عدد الأطفال الجزائريين الذين يتلقون العلم في المدارس الابتدائية الفرنسية يبلغ مئة ألف طفل ، يتلقون العلم في ٦٩٩ مدرسة ، تشتمل علــى ١٩٠٨ فصول دراسية ، اما عدد الاطفال الفرنسيين الذين يتلقون العلم في الفترة المذكورة ، فيبلغ ٢٠٠ الف طفل ، يتلقون دراستهم في ١٤٠٠ مدرسة تشتمل على ٤٢٠٠ فصل دراسي . هذا مع العلم بأن عدد السكان الجزائريين كان يقدر بحوالي ثمانية ملايين نسمة ، وعدد الاوروبيين بحوالي ثمانمائة ألف نسمة ، وأن نسبة المتعلمــين هــي ١٠٠% بين أبناء الفرنسيين ، بينما لا تتجاوز هذه النسبة بين أبناء الجزائريين سوى ٨% فقط (الشامي،١٩٨١:١٧٦).

اما الاختصاصات المهنية التي تتطلب التحصيل العالي ، فإنها أكثر مأساوية، وقد ذكر الدكتور تركي رابح احصائية حول هذه الاختصاصات ، جاء فيها أنه كان في الجزائر عام ١٩٤٩ ، أي بعد اكثر من قرن على نشر الحضارة الفرنسية :

٨٢ طبيباًجزائرياً ، من مجموع ١٥٥٩، وذلك يعني ٥,٢%.

١٠ اطباء أسنان جزائريين ، من مجموع ٣١٧، وذلك يعني ٣,١%.

٣٥ صيدلياً جزائرياً ، من مجموع ٥٠٦ ، وذلك يعني ٦,٩%.

١١ قابلة جزائرية (مولّدة) ، من مجموع ٤٢٧ ، وذلك يعني ٣,٨%.

٥٠٩ معلمين جزائريين فــي الابتدائيــة ، مــن مجمــوع ٦٢٢٧، بنــسبة ٨,١% (رابح،١٩٧٤:١٤٧) .

يتضح من ذلك أن سياسة فرنسا التعليمية كانت تقوم على التمييز القاطع بين طلاب العلم الفرنسيين والجزائريين ، كما برز دور ابن باديس ودروسه في المساجد وتأسيسه لمدارس جمعية العلماء المسلمين التي تعارض الفرنسة وتركز على تعليم اللغة العربية والتاريخ والأدب العربي ، ففي حين كانت مدارس الأوروبيين تعد طلابها وفق وسائل تعليمية متطورة ومتنوعة ، بهدف تأهيلهم لتحصيل الاختصاص العالي ، نرى المدارس التي أنشأتها فرنسا خصيصاً للجزائريين أشبه بمدارس محو الأمية ، إذ أنها لم تعمل سوى على إعداد الجزائريين للقيام بوظائف هامشية ، سواء في الإدارة أم في المصانع ومزارع المستوطنين (الشامي،١٩٨١:١٧٦).

ولمّا كانت المعاملات كافة ، الخاصة بالجزائريين ، غير خاضعة لتحكيم القانون الفرنسي ، يضاف إليها رفض الجزائريين اللجوء إلى شرع آخر غير الإسلام اضطرت الحكومة الفرنسية إلى إصدار مرسوم بتاريخ ٣٠أيلول (سبتمبر) عام ١٨٥٠ ، ينص على إنشاء بعض المدارس الإسلامية بهدف معالجة أزمة رفض الشرع الفرنسي ، ولكنها في الوقت نفسه ، تؤسس تدريساً إسلامياً يخضع لشروطها تحاول من خلاله عزل العلماء المعارضين لها ، وتأمين تغطية لسياستها عبر بعض الذين ارتضوا التدريس في مدارسها ، أو قبلوا تسلّم مهمات القضاء ، وقد حصر المرسوم هذه المدارس بثلاث : واحدة في العاصمة ، واحدة في تلمسان ، وواحدة في قسنطينة . ورغم ذلك ، فإن بناء هذه المدارس لم ينته إلا عام ١٩٠١، أي بعد أكثر من نصف قرن على صدور المرسوم . وقد تحددت أعوام الدراسة بستة : أربعة في المرحلة الابتدائية ، واثنين في المرحلة العالية ، التي لا تُدرّس إلا في مدرسة العاصمة ، أما الراغبون في الانتساب إلى هذه المدارس فعليهم النجاح في تلك الشهادة الابتدائية الفرنسية ، وبعد ذلك يدخلون المدرسة الاسلامية ، حيث يحصلون على تاهيل اسلامي ، يحدد مضمونه مثقفو فرنسا (الخطيب،١٩٥٨:١٣٣).

رغم كل ذلك ، لم تنجح هذه المدارس في إبعاد الجزائريين عن مراكز تعليمهم التقليدية ، ولم تخرّج هذه المدارس في أعوامها الاولى إلا القليل ممن قبلوا الانتساب اليها ؛ ففي عام ١٩٠٤ مثلاً ، لم يتخرج فيها سوى أحد عشر طالباً ، وفي

١٩٠٦ تخرج اثنا عشر طالباً ، وفي عام ١٩٠٨، كان عدد الناجحين ١٣ طالباً، وفي عام ١٩١٠، لم يتجاوز هذا العدد ١٥ طالباً ، اما عدد الطلاب الاجمالي ، فلم يتجاوز في احسن الحالات خمسمائة طالب ، بنسبة واحد من كل عشرة الاف جزائري . وإذا اجرينا احصائية مماثلة لعدد الطلاب الجزائريين في المدارس الاخرى التي لا علاقة لها بالاسلام واللغة العربية ، فإننا نحصل على النتيجة نفسها تقريباً(الشامي ،١٩٨١:١٧٧).

لماذا تقيم فرنسا هذه المدارس ؟ إن الاجابة على هذا السؤال لا علاقة لها بنشر العلم والحضارة . ورغم ذلك ، فإن هناك الكثيرين من الفرنسيين ، عارضوا قيام هذه المدارس ، مشددين على ضرورة الحؤول دون وصول فضلات العلم الغربي إلى الجزائريين وعندما رد السيد (برنارد) مدير معهد المعلمين في الجزائر على مقررات مؤتمر المستوطنين الاوروبيين الذي انعقد بتاريخ ١٩٠٨/٣/١٩، والذي طالب بإلغاء التعليم الابتدائي للجزائريين لأنه يشكل خطراً على الاستعمار الفرنسي ، كشف في رده عن ماهية الاستعمال الفرنسي للجانب الثقافي من الحضارة الغربية ، حيث قال : " ليس من الكرم او الجود في شيء ان تنشر الجامعة العلم في القبائل ، بل دعونا نقولها كلمة صريحة مدوية : ان ذلك في مصلحة فرنسا وحدها ، وهو ما نضعه نصب اعيننا ، وقد يضفي ذلك على تعليمنا طابعاً خاصاً ، ويساعد مدرسينا على تطبيق طرقهم ووسائلهم الخاصة ، وقد يضفي في الوقت نفسه ، على برامجنا طابعها الخاص . إنه لمن الاهمية بمكان ان نبث في أذهان الاهالي فكرة رفيعة ونقية عن وطننا ، بتلقين تلامذتنا دروساً تتناسب مع اعمارهم ، وتتفق مع درجة ثقافتهم ، عن عظمة فرنسا وجيشها ، وثروتها ، وليس من شك في أن مركزنا سيكون أقوى تدعيماً ، لو استطعنا ان ندع الاهالي يفكرون من تلقاء انفسهم ، وبمحض ارادتهم ، فيما بينهم : ألا ما أقوى وأكرم هؤلاء الفرنسيين ! إنهم احسن ما نود أن يكون عليه اساتذتنا . إن المدرسة الاهلية في شكلها الراهن وعملها الخيري المزدوج ، ليست أداة تجديد خلقي فحسب ، بل هي على وجه الخصوص أداة سلطة وسلطان ، وأيضاً وسيلة نفوذ وسيطرة ، وسنخلق من رعايانا عضواً مفيداً جداً ومساعداً قوياً لفرنسا" (الخطيب ، ١٩٥٨:١٣٣) .

وهكذا ، فالجزائري كان امام خيارين : إما الثقافة الفرنسية ، وإما الجهل المطلق . وقد انحاز الجزائري للخيار الثاني ، وفضل الأمية على القبول بالتثقيف الفرنسي الذي هو احد مداخل فرنسة المجتمع الجزائري ، إلا أن خياره هذا لم يكن دون صراع ، إذ أنه رغم تخريب المساجد والزوايا ، ورغم إنشاء المدارس الفرنسية ، خاض الجزائريون ومن ضمنهم وبدور بارز جمعية العلماء بقيادة ابن باديس معركة استقلال الثقافة الاسلامية ، معركة اضطر الفرنسيون في أحيان عديدة لتطويقها ، من خلال السماح بوجود مدارس يديرها الجزائريون ، ولكنها تخضع لموافقة السلطات الفرنسية التي تعطي الرخصة ، حيث تتدخل في مواد التدريس ، وذلك حسب ما جاء في القانون الفرنسي الصادر بتاريخ ١٩٠٤/١٢/٢٤، والذي يحظر على كل جزائري أن يفتح أو يتولى إدارة مدرسة عربية أو كتّاب لتعليم القرآن الكريم ، إلا بترخيص من المحافظ الفرنسي في المناطق الشمالية التي تخضع للحكم المدني ، أو للحاكم العسكري في المناطق الجنوبية الصحراوية التي تخضع للحكم العسكري ، كما ينذر هذا القانون كل فرد أو جماعة تقوم بفتح مدرسة عربية بدون ترخيص مسبق إما بالحبس أو الغرامة ، أو العقوبتين معاً، وعندما تمنح الرخصة لأي شخص ، يشترط عليه التقيد بالشروط التالية :

١- اقتصار التعليم في المدرسة أو الكتّاب على حفظ القرآن الكريم وحده .

٢. عدم التعرض بأي صورة من الصور إلى تفسير الآيات القرآنية ، وخاصة الآيات التي تحض على الجهاد ، وتندد بالظلم والاستبداد .

٣- استبعاد دراسة التاريخ بصفة عامة ، والتاريخ العربي الاسلامي بصفة خاصة ، وكذلك جغرافية الجزائر والبلاد العربية .

٤- استبعاد دراسة الأدب العربي بجميع فنونه .

٥- عدم تدريس المواد الرياضية والعلمية (الشامي ، ١٩٨١:٧٩) .

ان اعتماد فرنسا على تفتيت وحدة الشعب الجزائري ، بين عربي وبربري ، وتقوية الطرق الصوفية المستكينة للاستعمار ، وجعل كل ذلك مدخلاً لتسهيل عملية فرنسة الجزائر ، جلب رداً موحداً من الجزائريين بالتفافهم حول وحدتهم الوطنية المرتكزة على محوري العروبة والاسلام ، اللذين يوضحان المعالم الرئيسية

للشخصية الجزائرية ، التي تختلف عن الشخصية الفرنسية في كثير من الامور الهامة المتبلورة في عمق تلك الشخصية منهجاً وسلوكاً ، وليس اقلها الاختلاف الحضاري الذي يميز الامة ، أي أمة كانت ، في منطلقاتها وغاياتها وكينونتها ووجودها . ويتجلى دور الشعب الجزائري في معارضته للتفرنس ، واضحا في جهود علمائه وفقهائه وشيوخة ورجال الاصلاح والمفكرين ، وكذلك الجهود الجماعية (العمل الجماعي) المنظم الذي يتبلور في أكثر من هيئة وجمعية، ولا شك أن أثر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ورئيسها الامام الشيخ عبدالحميد بن باديس ، هو أثر يشار إليه بالبنان ، وعندما كان الادماجيون يدعون إلى توثيق الروابط بين الجزائر وفرنسا ، فقد اقتربت آراء العلماء من الثورية ، وفي عام ١٩٣٦ أعلن أحد رواد الفكر في الجزائر وهو الامام ابن باديس أن الشعب الجزائري ليس هو فرنسا (عبل،٢٠٠٠:٦٣).

وأخيراً ، تجدر الإشارة إلى أن معارضة الفرنسة انطلقت من افراد الشعب الجزائري ، حيث أن إرادة الانسان هي مفتاح التغيير والاصلاح السياسي ، وإرادة التغيير لا تنافي القدر ولا تصادمه ، كما يدعي أصحاب المذاهب الإرجائية ، بل إن الارتكاز إلى معرفة الوحي (قيم الكتاب والسنة) هو وحده الذي يحقق الانتشال الحقيقي للانسان من تحكم العادات والتقاليد ومن قيم المستعمرين ، وكذلك من الإرث الآبائي في التشكيل الثقافي ، وذلك الارتكاز يمنح الاطمئنان وقوة العزيمة على الانعتاق من البيئة المتحكمة .

المبحث الثاني :

تأصيل الفكر القومي العربي في الجزائر

لقد كان لسقوط الجزائر ، الأثر السيء لدى الشعب الجزائري ، اذ شعر الوطنيون الجزائريون أن الامر تجاوز الحملة التأديبية للاتراك (كما كان يدعي بعض ساسة فرنسا عند بداية الاحتلال) ، فبرز إلى الوجود حمدان بن عثمان خوجة الجزائري (١٧٧٣-١٨٤٠) الذي كان أول من نادى بأن الجزائر للجزائريين، مؤكداً الاعتراف بالقومية العربية في الجزائر ، ودعا إلى حركة استقلال سياسي عبر اقامة حكومة مستقلة مرتبطة بفرنسا بعلاقات طبيعتها العامة طيبة وحسنة .

إن ثورة الامير عبدالقادر الجزائري (١٨٣٢-١٨٤٧) ، ساهمت في مراحلها الاولى في تطور الوعي القومي في الجزائر ، عندما أعلن عن بداية حكومة عربية في الجزائر متميزة بعروبتها ، كما أن قدوم الامام ابن باديس بعد حوالي مئة عام من احتلال الجزائر ، ورؤيته للأوضاع بأن ذلك الشعب لا يستطيع مقاومة الاستعمار الفرنسي ذو القوة الكبيرة ، بالقتال والمعارك فحسب ، بل يجب أن تتم تهيئة الشعب من جديد عبر إعادة تكوينه الثقافي والقومي ، ويعرّف الشيخ ابن باديس القومية على أنها "مجموع تلك المقومات وتلك المميزات ، وهي اللغة التي يعرف بها ويتأدب بآدابها ، والعقيدة التي يبني حياته على أساسها ، والذكريات التاريخية التي يعيش عليها وينظر لمستقبله من خلالها ، والشعور المشترك بينه وبين من يشاركه في هذه المقومات والمميزات" (ابن باديس ، ١٩٦٨:٣٥٢) ، إن الاحتلال الفرنسي زعزع مقومات القومية في الجزائر ، فجاء ابن باديس ليؤصل تلك المقومات من جديد ، وفي هذا المبحث سنتناول ما قام به ابن باديس في هذا المجال في مطلبين رئيسيين هما :

المطلب الأول : بعث عناصر القومية العربية .

المطلب الثاني : التأكيد على وحدة الوطن العربي .

المطلب الأول :

بعث عناصر القومية العربية

لقد بين عبدالحميد بن باديس عناصر القومية حيث حصرها باللغة والعقيدة والذكريات التاريخية والشعور المشترك ، هذه العناصر حاول المستعمر الفرنسي افراغها من مضمونها فالفرنسية حلت محل العربية والعقيدة باتت اسم بلا مضمون في صدور أهل الجزائر ، والتحق التاريخ العربي الإسلامي في الجزائر بالتاريخ الفرنسي بعد أن صدر قانون فرنسي يجعل من الجزائر ولاية فرنسية ، واستبدل الشعور المشترك العربي بشعور جزائري مشترك مع فرنسا وفي هذا المطلب سنتناول اللغة العربية التي يقرأ بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وهما مصدر العقيدة الرئيس ، والتاريخ كونه مادة الذكريات التي تعزز الفخار في النفوس وتجعلها تواقة له وتحدث نفسها باستعادته ، لهذا كان التركيز على هذين العنصرين وسنتناولهما في فقرتين رئيسيتين وعلى النحو التالي :

أولاً – اللغة العربية والجزائر : انتهجت فرنسا للسيطرة الدائمة على الجزائر عدداً من الأساليب ، ومن أهمها المؤامرات التي حاكتها لتصفية اللغة العربية ، وسعيها لتجزئة المجتمع الجزائري بين العرب والبربر الامازيغ ، وفرنسة الجزائريين بالتجنيس والتنصير والإدماج...، كما يبرز تركيز الاستعمار على اللغة العربية وتصفيتها ، لأن اللغة ، أي لغة ، هي عامل مشترك من عوامل وحدة الأمم والشعوب وهي وسيلة اتصال ايضاً ، فكيف إذا كانت هذه اللغة هي اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، لغة الإسلام (الشامي،١٩٨١:١٨٥).

يؤكد الباحث على أهمية ووظيفة اللغة ، فاللغة هي أداة تعبير وتفاهم ، ووعاء تفكير ، وسبيل تغيير وبناء ثقافي ، حيث لا يُنكر دور وطبيعة الالفاظ والمفردات في التأثير والتحريك والتغيير ، سواء في مجال الوجدان والمشاعر ، أو في مجال التفكير وتخصيب الخيال أو تجمده ومحاصرته ، فعجمة اللسان تدعو إلى عجمة العقل والقلب.

لذلك أدرك الشيخ عبدالحميد بن باديس رحمه الله ببصيرة نافذة ، مـــا للغـــة العربية من أهمية عظيمة ، فاعتبرها من قسمات الشخصية الجزائرية ، ومرتكزات الهوية القومية ، وحصن الثقافة الذاتية ، ومقومات إعادة بناء الأمة ، وسبيل إداركها لعقيدتها وشريعتها ودينها ، لأن اللغة العربية من الدين ، ولغة الدين ، على الـــرغم من أنه كان ينحدر من أصول بربرية ، وأنه كان يحسن قراءة الفرنسية وفهمها ، إلا أنه كان يترفع عن الكلام بها لغير ضرورة (حميداتو،٢٠٠٥:٧).

وقد يكون من الأمور اللافتة للنظر حقاً والدالة على أهميـــة اللغـــة – فـــي صياغة التفكير والمساهمة في التشكيل الثقافي ، والارتباط بالجذور ، وتحقيق النقل الثقافي ، وأهم من هذا وذاك كونها لغة التنزيل ، ومفتاح فهمه ، وإدراك مقاصده ، والصلة بين الأمة وأجيالها – الهجمة الاستعمارية المتركـــزة علـــى عـــزل اللغـــة وتهميشها ، وإشاعة اللهجات العامية والمحلية ، وتقطيع أوصـــال الأمـــة ، وبعـــث اللغات العرقية ، ليس كوسيلة تفاهم محلي ، وإنما كبديل حضاري وثقافي ، ومعبـــر من معابر الغزو الفكري الذي يؤدي إلى التفتيت والتبعثر وتمزيق النسيج المعرفي . ومن هنا ندرك دور العربية في الاحتفاظ بهوية الجزائـــر وعروبتهـــا وإســـلامها ، وندرك إصرار الشيخ عبدالحميد بن باديس ، رائد الإصلاح والتجديد ، على إشاعة العربية والتحدث بها وجعلها لغة العلم والتعليم والتعلم ، والارتكاز حول حفظ وتلاوة القرآن الكريم ، حفاظاً على وحدة الأمة ولغتها ، التي هي وعاء تفكيرها ، ومصنع أحاسيسها ومشاعرها ، ومخزن تراثها .

ولا يفوتنا أن نبين هنا ، أن مصطلح العروبة في بـــلاد المغـــرب العربـــي الاسلامي ، يرادف في مدلوله الإسلام تماماً ، ولا يعني فلسفة بديلة عنه ، أو توجهاً مقابلاً له ، كما هو الحال عند ملاحدة المشرق من العرب ، وبعض الاقليات الدينية المتعصبة الحاقدة على حضارة الاسلام ، لذلك لا بد من إدراك هذه الحقيقة بوضوح حتى لا تختلط الاوراق . لقد تنبه الفكر القومي في الجزائر إبان الاحتلال الفرنـــسي إلى خطورة دور اللغة العربية ، في النهوض والتحرير ، وكذلك أهميتها في التربية

والبناء الثقافي ، وكأداة مواجهة للاستعمار والفرنسة ، استناداً لامكانيات تلك اللغة وصلتها بالدين ، وكونها عامل تجميع ووحدة (راشد،٢٠٠٤:١٥٤).

اتخذت اللغة العربية حيزاً كبيراً من اهتمامات الشيخ عبدالحميد بن باديس في الإصلاح والنهضة ، بل أنه قد عدّها رابطة بقوله :" لا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد إلا هذا الحبل المتين ، اللغة العربية ، لغة الدين ، لغة الجنس ، لغة القومية ، لغة الوطنية المغروسة ، إنها وحدة الرابطة بيننا وبين ماضينا ، وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا ، وبها يقيس من يأتي من بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين ، أرواحهم بأرواحنا ، وهي وحدها اللسان الذي نعتز به ، وهي الترجمان عما في القلب من عقائد وما في العقل من أفكار ، وما في النفس من آلام وآمال . إن هذا اللسان العربي العزيز الذي خدم الدين وخدم العلم وخدم الانسان ، هو الذي نتحدث عن محاسنه منذ زمان ، ونعمل لإحيائه منذ سنين " (ابن باديس ،١٩٣٧:٦٥) .

إن ابن باديس لا يقف عند هذا الحد ، فهو يشدد على أن اللغة العربية هي لسان الأمة الجزائرية كلها (الميلي، ١٩٧٣:٤٨) ، فلا غرابة في تركز جهده على إحياء اللغة العربية ونشرها في الجزائر بعد أن سعى الاستعمار إلى حرمان الشعب الجزائري من تعليمها في المدارس التي يشرف عليها ، لهذا اتجه ابن باديس منذ عام ١٩١٣ نحو ميدان التربية والتعليم (رابح، ١٩٧٤:٢٣) .

لقد أخذت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على عاتقها مهمة تعليم اللغة العربية ومواجهة محاولات وأدها ودفن حضارتها العربية ، فكان عملها محل جاذبية ونجاح فعلي ، إذ استندت على مبدأ أساسي هو أن "الجزائر بلادي ، والإسلام ديني، والعربية لغتي " (الخطيب ،١٩٥٨:١٢٢) .

جابهت فرنسا بكل قوة وصلف تلك الجهود ، فأصدر وزير داخليتها (شوتان) ، قراراً رسمياً في ١٩٣٨/٣/١٨ يمنع تعليم اللغة العربية في الجزائر ونص على " أن اللغة العربية تعتبر لغة أجنبية" . لقد كان صدور هذا القانون أمراً شديد الغرابة ، فهو يعبر بوضوح عن أهداف فرنسا الاستعمارية ضد العرب

والمسلمين ، والأمر الغريب فيه هو اعتبار اللغة العربية أجنبية في الجزائر ، مع أن سكان هذه البلاد البالغ عددهم في تلك الفترة زهاء عشرة ملايين نسمة ، كلهم من العرب ، ولغتهم الوحيدة هي اللغة العربية . إن الهدف من وراء القرار هو محاولة الحد من نشاط وفعالية وتأثير الهيئات الدينية والتنظيمات والجمعيات الإسلامية ذات الأثر الكبير في المجتمع (العسلي،١٩٨٢:٥٢).

لم تقف جهود الإدارة الاستعمارية الفرنسية عند حدود منع اللغة العربية ، فقامت بتأسيس المدارس الرسمية الفرنسية لتحقيق مشروعها في حرمان اللغة العربية من حق الوجود الرسمي المعلن والمعترف به ، فجعلت الإدارة الفرنسية هذا التعليم إجبارياً بعد إعراض الجزائريين عنه ، في محاولة منها لإدخال الاضطراب إلى مجرى أفكار وذهنية الجزائريين ، وتحطيم أسس معتقداتهم التي بها يؤمنون ، والقضاء على التقاليد والمفاهيم التي بها يتشبثون ، وما قامت به المدارس الفرنسية من جهود لتحريف التاريخ ، كان للتأكيد على أن المغرب العربي كان قبل ظهور الإسلام ، روماني الروح ، لاتيني الثقافة ، وعلى هذا الأساس لا بد من السعي لتحقيق انبعاث إفريقيا اللاتينية (الميلي، ١٩٨٢:٣٦) .

إن تلك المحاولات زادت من إصرار المفكر عبدالحميد بن باديس على مقاومة المخططات الفرنسية ، فهو يقول : "قد فهمنا والله ما يراد بنا ، وإننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا ، وسمنضي بعون الله في تعليم ديننا ولغتنا ، رغم كل ما يصيبنا ، ولن يصدنا عن ذلك شيء، فنكون شاركنا في قتلهما بأيدينا" (ابن باديس،١٩٦٨:٢٤٥) . يوضح الإمام عبدالحميد بن باديس السبب وراء تلك المقاومة بقوله : "ذلك لأن العربية هي لغة الدين الذي هو أساس حياتنا ومنبع سعادتنا ، ولأنها هي اللغة المهملة بين أبنائها، المحرومة من ميزانية بلدها ، المطاردة في عقر دارها ، المغلقة مدارسها ..." ، ولأن "المدارس الرسمية الثلاث التي لا تقبل إلا عدداً محدوداً لتخريج من يملأ الوظائف الرسمية ويناسب روحها" (ابن باديس ،١٩٣٣:٥).

لقد كان تتويج الإمام عبدالحميد بن باديس لدفاعه عن اللغة العربية في المطالب التي قدمها إلى مكتب المؤتمر الإسلامي سنة ١٩٣٦م ، إذا تضمنت تلك المطالب مطلباً أولياً ، وهو أن تعتبر اللغة العربية لغة رسمية مثل اللغة الفرنسية ، وأن تُمنح الحرية في تعليمها في المدارس الحرة مثلما هي الحال مع اللغة الفرنسية (سعد، ٥٢:١٩٨٣) ، ولا يفوتنا هنا إلى أن ننوه إلى جرأة وأهمية وعدل هذا المطلب الحيوي ضمن البعد القومي للغة ، والتأكيد على أن الجزائر ليست فرنسا ، وأن للشعب فيها لغة وحضارة مختلفة عن تلك الموجودة في فرنسا .

لقد لعب دعاة الإصلاح الديني والسياسي دوراً مهماً وحيوياً في الأوضاع الثقافية والسياسية ، بربطهم بين مطلب الإصلاح على النهج السلفي واتقان اللغة العربية ، مما أدى إلى جعل التعليم العربي مدرسة لتكوين الحس المدني وأداة ثقافة ، وفي الوقت ذاته لعب دعاة الإصلاح دوراً مهماً في مواجهة تحديات المدرسة الفرنسية والتفرقة الاستعمارية بين العرب والبربر ، لذلك فإن حركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بما لقنته للمسلمين ، وبخاصة للشباب ، من قيم الإسلام وتعميق الجذور الثقافية لبلدهم ، قد حققت ضميراً وطنياً ، فكانت حركة العلماء المؤسس الحقيقي والواقعي للوطنية الجزائرية (الميلي، ٤١:١٩٨٢).

لقد عملت جمعية العلماء المسلمين برئاسة الشيخ عبدالحميد بن باديس على تحقيق العديد من الأهداف التي رسمتها لنفسها ، ومن بينها القيام بإعادة بناء وتجديد طرق التعليم واصلاحها من حيث اللغة والمحتوى ، بما يتوائم مع الظروف الثقافية التي افرزها الاستعمار الفرنسي الظالم من ناحيتي العقيدة واللغة ، كما كان الإمام في دروسه للعامة يحرص على العبارات الفصيحة السهلة ، وعن طريق التدريس والوعظ استطاع أن ينشر الفصحى بين العوام ، وأن يرتفع بهم إلى إجادة وإتقان اللغة العربية رغم أمية أكثرهم (الشامي،١٩١:١٩٨١).

ثانياً – التاريخ العربي والجزائر : أصبحت الجزائر ، بل وكل أرجاء شمال افريقيا جزءاً من الوطن العربي بعد سنين من الفتح العربي سنة ٧٠١م ، بعد أن تم القضاء على ملكة الأوراس ، التي تذمر وضجر منها الأهالي ، مما سهل الفتح ، ويسّر انتشار الإسلام في البلاد ، وهذا مؤشر على حب البربر لهذا الإسلام العظيم ، حيث

وجدوا فيه الحرية والسلام والطمأنينة ، فانضوى أبناء شمال افريقيا تحت لواء القومية العربية ، وتكريساً لعروبتهم وتاريخهم أطلقوا على بلادهم اسم المغرب العربي (الخطيب،١٩٥٨:١٤).

في عام ١٨٣٠م ، وطأت أقدام الاستعمار الفرنسي أرض الجزائر العربية المسلمة ، وبدأت بهذا الاحتلال البغيض المأساة الجزائرية ، ولم تنته فصولها حتى عام ١٩٦٢م ، عندما استعادت الجزائر حريتها ، وعادت إليها إرادتها ، وظهرت على المسرح السياسي دولة مستقلة ، حرة الإرادة (قاسم،١٩٦٧:٧) .

لقد أكد الشيخ عبدالحميد بن باديس على أركان النهضة وأركان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، خلال خطبته في المؤتمر السنوي للجمعية في الجزائر العاصمة عام ١٩٣٧، وأشار إلى أن تلك الأركان هي العربية والإسلام والعلم والفضيلة ، وعلى أساسها ينبغي أن تعمل الجمعية على حفظ الجنسية والقومية السامية (ابن باديس، ١٩٣٧:٩) .

شرع ابن باديس في تأكيده على دور العرب في التاريخ من خلال القرآن الكريم ، فهو يجد أن القرآن هو الذي أنصف العرب ومنحهم المنزلة الحقيقية فيما كانوا عليه في التاريخ قبل الإسلام ، فهو يقول :"والعرب مظلومون في التاريخ ، فالناس يعتقدون ويعرفون أن العرب كانوا همجاً لا يصلحون لدنيا ولا لدين ، حتى جاء الإسلام فاهتدوا به ، فقام بإخراجهم من الظلمات إلى النور ، إن القرآن الكريم وحده هو الذي أنصف العرب. والناس بعد نزول القرآن الكريم ، قصروا في نظرتهم التاريخية للعرب ، فنشأ ذلك التمثيل الجائر في القصد ، والتاريخ يجب أن لا ينظر من جهة واحدة ، بل ينظر من جهات متعددة ، وفي العرب نواح تُجتبى ونواح تجتنب ، وجهات تذم وتقبح ، وجهات يثنى عليها وتمدح ، وهذه هي طريقة القرآن الكريم بعينها ، فهو يعيب من العرب رذائلهم النفسية كالوثنية ، ونقائضهم الفعلية كالقسوة والقتل وينوه بصفاتهم الإنسانية التي شادوا بها مدنياتهم السالفة ، واستحقوا بها النهوض بمدنية المدنيات " (ابن باديس ، ١٩٦٨: ٦٥-٦٦) .

إن الشيخ عبدالحميد بن باديس يستعرض ذلك المجد التليد ، وتلك المدنيات مستقاة من القرآن الكريم في ذكر ثمود وعاد واليمن السعيد التي يفتخر بالانتماء إليها ، وما مثلته تلك المدنيات من تطور فني وهندسي ومعماري كبير ، ويقرر الإمام ابن باديس بعد ذلك أن مدنيات العرب القديمة غيرت في هذه الامة التي أهلها الله لحمل الرسالة إلى العالم ، وهذه بعض خصائص هذه الامة التي هيأها الله للنهوض بالعالم وانقاذه من شرور الوثنية (عبل،٢٠٠٠:٦٧) ، وهذا ما يؤكد نزوعه العربي عبر إعجابه بتاريخ العرب قبل الإسلام ، لذلك دأب مع جمعيته على بعث التاريخ الوطني والعربي ، فتمّ إدخال تدريس تاريخ العرب إلى الجزائر ، وكانوا (العلماء) ينشرون القول بأن العرب هم الذين اكتشفوا امريكا ، وأنهم كانوا أول من حاول الطيران ، وكانوا يمجدون الفتوحات ، ويتذكرون بحزن وشوق إنجازات وابداع المسلمين في العصر الذهبي للإسلام (سعدالله، ١٩٩٢:٤٥٨) .

لعل من المفيد الإشارة إلى أثر التاريخ العربي في نفوس الجزائريين ، وإلى هذه اللحظة ، حيث نجد أن العروبة والاسلام يقبعان داخل إناء نفس المعنى لدى ذلك الشعب العربي المسلم .

إن الخطة العامة التي رسمها علماء الأمة ، وعلى رأسهم الإمام ابن باديس ، لرسالة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وكذلك المنهاج الذي أعده لأدائها في الميدان السياسي بصفة خاصة ، هي رسالة ومنهاج ورثة الأنبياء ، أي إخراج المجتمع الجزائري العربي المسلم ، من ظلمات الجهالة والتخلف والضلال والبدع والاحتلال ، إلى نور العلم والحرية والتقدم والاستقلال ، بالارتكاز إلى عدد من المحاور ، ليس أقلها أهمية التاريخ العربي ، بما فيه من قمم شامخة ، ونجوم زاهرة، فيها القدرة على إضاءة الدرب للعاملين من أجل خروج الجزائر من حالة الإحتلال إلى نور الحرية والكرامة (الخطيب، ١٩٥٨:١٢٣).

إن إيمان الجزائريين بالتاريخ العربي وبوجود الأمة العربية وباعتبار الأمة الجزائرية جزءاً من تلك الأمة ، كل ذلك دفع الإمام ابن باديس – بأثر من تجربته في جامعة الزيتونة ، وخاصة صلته بالشيخين محمد النخلي ومحمد الطاهر بن عاشور – إلى التماس الأبعاد التاريخية والأدبية لهذه الأمة ، فألقى مرة خطاباً طويلاً

عن العرب في القرآن ، بيّن فيه عن طريق تفسير الآيات القرآنية الكريمة ، تفسيراً جريئاً في بعض الأحيان ، فضل الأمة العربية من بين الأمم ، وتميزها بالعزة والإباء وشرف النفس وعدم الخضوع للأجنبي ، وكذلك تمكنها من إقامة الحضارات المعقدة المزدهرة المتلاحمة المتصلة في المكان ، وإن هذه الأمة التي وهبها الله عبر تاريخها كل هذه الميزات منذ ما قبل الإسلام ، وعاد فميزها مرة أخرى عندما اختار من بينها نبيّ الاسلام ، محمد بن عبدالله ، عليه الصلاة والسلام ، ذلك النبي العربي الهاشمي القرشي (القاضي،١٩٨١:٧٣) .

لقد سعت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، سعياً حثيثاً ، لمحاربة الاحتلال السياسي والفرنسة بوسائل عديدة ، ووضعت لذلك أهدافاً متنوعة ، ومن أهم تلك الأهداف قاطبة ، تذكير المسلمين الذين يبلغهم صوتها ، بحقائق دينهم ، وسير إعلامهم ، وكذلك بأمجاد تاريخهم ، ومن المفيد هنا ، أن نذكر ما قاله الشيخ ابن باديس عن أهداف جمعية العلماء ، حيث عبر عن رغبته بحدوث نهضة شعبية قوية تكشف مجد الماضي ، وتجلي شخصية الشعب الجزائري ، بما ينير له طريق الحياة من جديد ، فينهض نهضة إسلامية عربية تأخذ من عظمة الماضي ، ويقظة الحاضر ما يعصمها من الزلل والإنحراف ، وهي ماضية في طريق المستقبل الباسم (ابن باديس،١٩٦٨:٥١٣) ، وما الماضي الذي يشير إليه ابن باديس إلا ذلك التاريخ العربي المجيد ، الذي يعبق بالانتصارات ، وسيادة الحضارة العربية الإسلامية ، المرتكزة على الإسلام ، دين الإنسانية ، الذي يمجد العقل ، ويحتكم للتنزيل ، ويدعو للحرية ، ويستنكر الاستبداد في كل صوره وأحواله .

وأخيراً ، لقد استلهم الشيخ عبدالحميد بن باديس التاريخ العربي المجيد ، وجعله حربة في وجه المستعمر وأذنابه ، وذلك طيلة مسيرته الاصلاحية ، في الجزائر ، على مدى ربع قرن من الزمن .

المطلب الثاني :

التأكيد على وحدة الوطن العربي

لا شك أن الوحدة القومية والأدبية متحققة لا محالة في الأمة العربية ، لقد أكد الشيخ ابن باديس على ذلك ، وحدد من هم العرب وحدد الوطن العربي وخصائص الأمة العربية ، ولكن هل بين العرب وحدة سياسية ؟ إن الإجابة نجدها في مقالته التي تحمل هذا السؤال كعنوان ، حيث يذكر :"الوحدة السياسية لا تكون إلا بين شعوب تسوس نفسها ، فتضع خطة واحدة تسير عليها في علاقاتها مع غيرها من الأمم ، وتتعاقد على تنفيذها ، وتكون كلها في تنفيذها والدفاع عنها يداً واحدة ، فهي مقتدرة على الدفاع عنها كما كانت حرة في وضعها، وأما الأمم المغلوبة على أمرها فهذه لا تستطيع أن تضع أمراً لنفسها ، فكيف تستطيع أن تضعه لغيرها ، ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها ، فكيف تستطيع أن تدافع عما تقرره مع غيرها ، وهي لم تستطع أن تعتمد على نفسها في داخليتها ، فكيف يعتمد عليها في خارجيتها ؟ فالوحدة السياسية بين هذه الأمم أمر غير ممكن ولا معقول ولا مقبول " (ابن باديس، ١٩٣٣:١٥) .

على الرغم من تعلق الشيخ ابن باديس الشديد بفكرة الوحدة العربية ، فهو واقعي في تحديد شروط تحقيق هذه الوحدة ، وهي ضرورة استقلال تلك الشعوب وتنفيذها للوحدة والدفاع عنها ، ثم يحاول أن يطبق نظريته هذه على حالة الأمة العربية ، فيقول :"وإذا نظرنا إلى الأمة العربية على ضوء هذه الحقيقة ، فإنا نجد منها شعوباً أخرى ، وهي شعوب الشمال الإفريقي المصابة بالاستعمار ، فهذه لا وحدة سياسية بينها ، ولا بين غيرها ، ولا يتصور أن تكون" ، ثم لا يلبث أن يحدد الشيخ ابن باديس ، طرق عمل الشعوب المستعمرة في الشمال الإفريقي للوصول إلى الوحدة من خلال الاستقلال :" من الخير لها أن تعمل كل واحدةً منها في دائرة وضعيتها الخاصة على ما يناسبه من الخطط السياسية التي تستطيع تنفيذها بالطرق المعقولة الموصلة ، ومن الشعور التام بالوحدة القومية والأدبية العامة ، والمحافظة عليها والمجاهرة بها " (الميلي ، ١٩٧٣:٧١) .

لقد برزت أفكار الأمير شكيب ارسلان في المشرق العربي ، ومحاضـــراته في دمشق ، حول الوحدة العربية ، وفي واقع الأمر ، فإن الرأي السابق لابن باديس حول الوحدة السياسية العربية ، ما هو إلا انعكاس لأفكار شكيب أرســـلان ، حـــول الوحدة السياسية بين أجزاء الوطن العربي في الشرق والغرب ، فهو يمتدح أفكـــاره في هذا المجال ، ولعل من أهم أفكار الأمير أرسلان حول ذات الموضـــوع ، أنـــه يرى أن وحدة العرب لا يمكن أن تقع دفعة واحدة بل كسائر المشروعات العظيمـــة غير قابلة للتحقيق الا تدريجياً وهذا التدريج يكون كماً وكيفاً (عبل، ٢٠٠٠:٧٢) .

إن الشيخ عبدالحميد بن باديس يتجه في اتجاه واحـــد مـــع الأميـــر شـــكيب ارسلان، من خلال تأكيده شخصية الجزائر ، وضرورة بعث شخصيتها وخدمتها ، وخدمة أقطار المغرب العربي ثم الوطن العربي والاسلامي والانـــسانية جمعـــاء ، حيث كان ابن باديس يعمل ضمن دوائر يتم تحقيق هدف كل دائرة ، ثم الانطـــلاق إلى الدائرة الأخرى ، ويؤكد فكرته هذه عندما وصف الرسول الكريم محمد عليـــه الصلاة والسلام ، بأنه رجل القومية العربية . إن آراء الشيخ ابـــن بـــاديس حـــول الوحدة السياسية بين العرب ، كانت وليدة الواقع السياسي للجزائر التي كانت ترزح تحت استعمار فرنسي قاسٍ ، وتفتُت المغرب العربي وخضوعه للاستعمار أيـــضاً ، مع توجه أنظار المصلحين المسلمين صوب المشرق العربي الـــذي كـــان يزخـــر بالتيارات الإصلاحية المختلفة الإتجاهات ، والتي تأثر بها ابن باديس بفعل احتكاكه بها (القاضي،١٩٨١:٨١).

يحدد الشيخ ابن باديس عناصر القومية ، في اللغة والعقيدة والتاريخ والشعور المشترك . إن إطار الوحدة العربية ، ضمن بعدها القومي ، كان واضحاً عند شيخنا ابن باديس ، فقد كتب عام ١٩٣٦ بمناسبة ذكرى المولد النبوي مقالاً بعنوان : محمد رجل القومية العربية ، وهو يفسر هذه التسمية ويحللهـــا تحلـــيلاً منطقيـــاً دقيقـــاً ، إذ يقول :" محمد صلى الله عليه وسلم ، هو رسول الإنسانية ، كانـــت أول عنايتـــه موجهه إلى قومه ، حيث لا يستطيع أن ينفع الناس من أهمل أمر نفـــسه ، فعنايـــة المرء بنفسه لازمة ليكون ذا أثر نافع في الناس" (ابن باديس،١٩٣٧:١٨) . وكـــأن

الشيخ يشير إلى أن الوحدة تبدأ بأن تهتم كل دولة بنفسها أولاً ، ومن ثم يمكن الالتفات للوحدة القومية المستندة إلى مقومات ومميزات واضحة .

إن ابن باديس يحدد تلك الأوطان ، حيث أن الأقرب هو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى ، اللذان ما هما والمغرب الأوسط إلا وطن واحد ، لغة وعقيدة وآداباً وأخلاقاً وتاريخاً ومصلحة ، ثم الوطن العربي ثم وطن الإنسانية العام .

أما الوحدة العربية ، والحس القومي ، هذان العاملان جعلا ابن باديس يستشعر خطر الصهيونية على فلسطين والعرب ، نتيجة الارتباط بين انجلترا والصهيونية الغاشمة ، هذا الارتباط الذي انتج لقسم كبير من اليهود ، طمعاً شرهاً قذف بهم في فلسطين الآمنة ، ويؤكد ابن باديس على أن الخصومة ليست بين مسلم ويهودي ، ولا بين عرب فلسطين ويهودها بل إن الخصومة بين الاستعمار البريطاني والصهيونية من ناحية ، والعرب والإسلام من ناحية أخرى . كما يكشف الإمام عن أن الهدف من زرع اليهود في فلسطين ، لقطع الاتصال بين أجزاء الوطن العربي ، وضرب الوحدة العربية بتقسيم الجسم العربي حيث تقع فلسطين في قلب الوطن العربي ، كما تشكل من الناحية الجيوسياسية صلة الوصل بين جناحي الوطن العربي المشرقي والمغربي في كلٍ من قارتي آسيا وافريقيا ، تمهيداً لإفشال أي محاولة سياسية للوحدة العربية بين أجزاء الوطن الكبير بجناحيه الآسيوي والافريقي (عبل،٢٠٠٠:٦٩) .

إن ابن باديس تميز كثيراً عن باقي المصلحين الذين عملوا ضمن الدائرة الإسلامية في أنه لم يجعل الإسلام قومية يمكن وحدها ان تشكل وحدة متكاملة ، ولكنه يتحدث عن وطن عربي يرتكز في الأساس على التراث الإسلامي (الميلي،١٩٧٣:٥٧) . "ينتسب شعب الجزائر إلى العروبة ، وببساطة عبر اللغة العربية ، ومن خلالها ، فهي لغة القرآن الكريم والإسلام العظيم ، وذلك لأن أي تحديد للهوية الإسلامية مقترن بتحديد لغة هذه الهوية ، وهي العربية ، وأن لا بقاء للإسلام إلا بتعليم لغته " (ابن باديس ،١٩٦٨:٢٤٣) .

غير أن موقف ابن باديس من عروبة الجزائر هوية ، تجاوز تلك البساطة باعتبار اللغة فقط سبب انتساب الجزائريين للعروبة ، إلى جعل العروبة رابطاً قومياً

يربط الجزائر بالبلاد العربية ، كما يربطها الرابط الاسلامي بالبلاد الاسلامية ، والرابط القومي هو رابط يربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد (الميلي ، ١٩٧٣:١٧٢) . أول حلقاته وحبله المتين ، اللغة العربية ، ولكن سائر حلقاته متعددة : إنها رابطة الجنس ورابطة التاريخ ورابطة الألم ، ورابطة الأمل ، وعلى أساس هذه الحلقات جميعاً يمكن اعتبار الأمة العربية أمة واحدة ذات قومية خالدة ، تمتد من المحيد الهندي شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، تنطق بالعربية وتفكر بها ، وتحمل مقداراً عظيماً من دمها، وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة ، وفي هذا المجال ينتفي التفريق بطبيعة الحال بين الأمازيغي والعربي عرقاً ، في نظر ابن باديس ، إذ جمع بينهما الإسلام ، وكذلك لغة الإسلام وبعد ذلك التاريخ المشترك (القاضي،١٩٨١:٨١).

يقول الرسول العربي الأمين محمد عليه الصلاة والسلام :"أيها الناس ، الرب واحد ، والاب واحد وإن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي "(ابن باديس،١٩٦٤:١٩) ، وعلى هذا الأساس فإن الوحدة العربية بالمعنى الروحي الأدبي الأخوي والوحدة الإسلامية موجودتان ، وإذا كانت الوحدة العربية السياسية أمراً لا يتحقق الآن ، فليس من سبب لذلك سوى أن عدداً من البلاد العربية – وخاصة في المغرب العربي – فاقد السيطرة على نفسه بسبب الاستعمار ، فهو من ثم أقل قدرة على السيطرة على دولة إتحادية مع غيره (القاضي،١٩٨١:٨١) ، عربياً وإسلامياً أيضاً .

وأخيراً ، لقد أخذت مسألة الوحدة السياسية بين العرب حيزاً مهماً في طروحات الشيخ ابن باديس ، اذ أنه أكد على ضرورة إنجاز الوحدة السياسية بين الأجزاء المستقلة من الوطن العربي ، حتى تتمكن من تنفيذها والدفاع عنها ثم تحقيق الوحدة الشاملة . إن هذه السمات والأفكار الواضحة ، تمثل وعياً سياسياً وحدوياً قومياً متقدماً دعا إليه شيخنا عبدالحميد بن باديس في كفاحه المستمر والمتواصل ، الذي كان من نتاجه ثمرة جوهرية في قيمتها وأثرها ، ألا وهي حركة فكرية سياسية ثورية كان لها الفضل في استقلال الجزائر عام ١٩٦٢م.

الفصل الخامس :

أبعاد الفكر التحرري عند ابن باديس

إن الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله ، استطاع أن يدرك جوانب الإصابة والخلل في المجتمع الجزائري الواقع تحت الاحتلال ، والأسباب التي ألحقت به هذه الإصابات ، وبدأ التفكير بمعالجة جذور الأزمة ، أو السبب العميق الذي يكمن وراءها ، ولم يقتصر في ذلك على معالجة الآثار ، على الرغم من أهميتها ، ولم يغب عنه ولا لحظة واحدة أن صلاح هذه الامة مرهون بالمنهج الذي صلح به أولها ، واختبر ذلك في نفسه وما تحقق له من نقلة ثقافية فتحت بصيرته بسبب صلته بالقرآن الكريم وانضباطه بمنهجه وبالسنة النبوية.

إلى جانب وطنية ابن باديس الصادقة ، وعمله المتواصل من أجل تحرير الجزائر من الخرافات والجهل والاستعمار ، فإنه ذو شخصية عظيمة ، وعظمته لا تقتصر على جانب دون آخر بل شملت جوانب متعددة ، وتتبلور أبعاد فكره التحرري في محورين هامين ، أولهما محور الإصلاح ، وثانيهما المحور السياسي، حيث استطاع أن ينجح في إصلاح التربية والتعليم ، ولكونه مفسر قدير للقرآن الكريم على الطريقة السلفية ومحدث واسع له اطلاع على أحاديث الرسول الكريم عليه السلام ، فقد برز بعد فكري له نجم عن كونه مصلح ديني واجتماعي مجدد ، قاوم البدع والخرافات والتقاليد المغامرة ، وحارب رجال الطرق الصوفية الذي أكثروا من البدع التي شوهت وجه الدين النقي ، وكان الشيخ إلى جانب ذلك داعية حضارة وتقدم ورقي وخير ومحبة بين جميع أبناء البشر .

لقد برز المحور الثاني وهو المحور السياسي في فكره التحرري ، ذلك الذي يهدف إلى بلورة شخصية وطنية عربية إسلامية للجزائر ، فقد حدد الشيخ ابن باديس أصول وأسس الحكم . وكذلك فإنه من اللافت للنظر أيضا المنهج السياسي في فكر الشيخ الإمام ابن باديس ، ولتحقيق أهداف هذا الفصل ، فسيتم تناول الأبعاد الفكرية التحررية الباديسية عبر المبحثين التاليين :

المبحث الأول : البعد الإصلاحي في الفكر التحرري عند ابن باديس .

المبحث الثاني : البعد السياسي في الفكر التحرري عند ابن باديس.

المبحث الأول :

البعد الإصلاحي في الفكر التحرري عند ابن باديس

يعتبر الشيخ عبدالحميد بن باديس أحد أهم أعلام الإصلاح في الجزائر ، وهو واحد من أولئك الأفذاذ الذين كان لهم دور أساسي في بعث النهضة العربية الإسلامية في الجزائر وكذلك في أقطار المغرب العربي ، وبالإضافة لذلك فهو أحد رجال مدرسة التجديد الإسلامي التي ظهرت في العالمين العربي والإسلامي في أواخر القرن التاسع عشر (رابح،١٩٨١:١٥٦).

من هنا يعتبر الشيخ عبدالحميد بن باديس ، الذي توفي يوم ١٦ نيسان (ابريل) من عام ١٩٤٠ عن عمر بلغ الحادية والخمسين ، أباً روحياً للحركة الوطنية الجزائرية من ناحية ، كما يعتبر أحد أبرز القادة الجزائريين الذين عملوا على البعث العربي الإسلامي في الجزائر بصفة خاصة ، وفي بلدان المغرب العربي بصفة عامة (عبل،٢٠٠٠:٦٠).

والواقع أن الشيخ ابن باديس قد ترك بصماته واضحة جلية على معظم أحداث تاريخنا الحديث ، وقد كان من صنّاعه المبرزين ؛ ولذلك احتل هذه المكانة الممتازة في قلوب الجزائريين كلهم ، رجالاً ونساءاً ، شباناً وشيوخاً ، فأينما بحثنا في مختلف جوانب تاريخنا الحديث ، ونهضتنا الحاضرة ، سواء في التربية والتعليم، أم في الدفاع عن الشخصية الوطنية والقومية للشعب الجزائري ، أم في العمل المخلص والجاد من أجل حرية الجزائر وشعبها واستقلالها ، وجدنا للشيخ عبدالحميدبن باديس مواقف بارزة وفكراً إصلاحياً جليلاً ، عن طريق تكوين الرجال، وإعداد القادة ، ونشر الوعي بين المواطنين ، لكي يصبح الشعب قادراً على خوض غمار المعركة المسلحة حين يأتي وقتها ، بكل متطلباتها من عدة وعتاد ، وقيادة وتنظيم ، ضد الاستعمار الفرنسي الذي احتل الجزائر أكثر من قرن من الزمان . ولتحقيق أهداف هذه المبحث ، سنتناول البعد الإصلاحي في فكر ابن باديس عبر المطلبين التاليين :

المطلب الأول : أسباب الإصلاح ومعوقاته .

المطلب الثاني : أسس الأصلاح ومنهجيته.

المطلب الأول :

أسباب الإصلاح ومعوقاته

في البداية ينبغي أن نؤكد أن الحركة الإصلاحية التي تزعمها ابن باديس لم تنشأ من عدم ، ولم تنطلق أعمالها من فراغ ، بل سبقتها جهود فردية متفرقة زماناً ومكاناً ، كان لها دور في تهيئة النفوس والعقول لتقبل فكرة الإصلاح ، والتطلع إلى حياة فكرية جديدة تساير روح العصر وتستجيب لتطلعات الأمة . يرى الباحث أن تلك الجهود كانت بمثابة إرهاصات ممهدة للحركة الإصلاحية التي قادها ابن باديس، وقد برزت هذه الإرهاصات من خلال نشاط بعض العلماء الذين كان لدروسهم وكتاباتهم تأثير مباشر ، في بعث حركة فكرية هيأت الجو الملائم لنشر الدعوة الإصلاحية والثورة على الجمود.

يقول ابن باديس : "والمحاسن محبوبة لله ، أمر بها ، ويثيب عليها ، ويرضى عن فاعلها ، والمقابح مبغوضة لله تعالى ، نهى عنها ، ويعاقب عليها ، ويسخط على مرتكبها " (ابن باديس ،١٩٦٤:١٤٢) ، فالإنسان مجبول على محبة الكمال وكراهية النقص ، وأن ما أمر به الله تعالى هو الحسن المحبوب .

ومن العلماء الذين نقلوا الفكرة الإصلاحية إلى الجزائر ، بعد أن عاشوها في المشرق العربي وتشربتها نفوسهم : الشيخ البشير الإبراهيمي ، والشيخ الطيب العقبي ، اللذان كان لهما أثر واضح في تهيئة الجو النفسي والفكري والسياسي لتأسيس الحركة الإصلاحية في الجزائر (حميداتو،٢٠٠٥:١٤) . وبهذا توّجها ابن باديس من خلال التعليم ومعاركه الصحفية ومواقفه البارزة، بتكوين قاعدة شعبية عامة منتظمة تتبنى أفكاره ، وترتبط بتوجيهاته ، ورغم الظروف الصعبة القاسية ، والمعقدة أحياناً ، نجحت هذه الحركة الإصلاحية أيما نجاح ، وهيأت جيشاً من الوطنيين كان عدّة الثورة عند إنطلاقها في سنة ١٩٥٤م ، حيث انتزعت تلك الثورة لاحقاً الاستقلال وخلعت الاستعمار الفرنسي عام ١٩٦٢م (رابح،١٩٨١:١٥٧) .

ذكر ابن باديس أن حكومة اليابان بعثت إلى خليفة المسلمين في تركيا في أواخر القرن التاسع عشر ، تطلب إليه أن يرسل إلى اليابان من يطلع أهلها على الدين الإسلامي تمهيداً لاعتناقه ، فأشار عليه جمال الدين الأفغاني أن يرسل إلى الامبراطور

الياباني بهدية ثمينة وأن يستمهله بعض الوقت ، ثم نصح الأفغاني الخليفة بأن يعد لهذه المهمة الكبرى شباباً يعرفون الإسلام معرفة صحيحة ، حتى يستطيعوا اقناع اليابانيين بالدخول في الإسلام ، بدلاً من أن يرسل إليهم نفراً من هؤلاء الذين غلب عليهم التصوف الخادع من العلماء (ابن باديس، ١٨:١٩٣٧) . إن ابن باديس لا يكتم حزنه عندما يرى كيف تدهور المسلمون في وطنه ، بسبب الجهل واستبداد وظلم الاحتلال ، وكذلك بسبب سوء فهمهم لدينهم ، فحين يرون أهل الباطل يعيشون إلى جانبهم ، وفي بلاد الغرب ، حياة عزة وسيادة وتقدم عمراني وعلمي ، يقنع المسلمون بالاندفاع في تقليدهم في كل شيء حتى في معابثهم ومفاسدهم ، أو في قشور الحضارة مع ازدراء كل عزيز لديهم ، إلا من نظر بعين العلم فعرف أن كل ما عندهم من خير هو عندنا في تاريخنا وديننا ، وأن ذلك هو الذي تقدّموا وسادوا به ، وأن ما عندهم من شر هو شر على حقيقته .

أما أسباب التدهور ، فقد فطن ابن باديس لها ، بل وحتى أنه فطن إلى السبب الجوهري في تدهور المسلمين بصفة عامة ، والجزائريين المعاصرين له بصفة خاصة، ويتلخص هذا السبب في نظام الحكم الاستبدادي ، فتدهور أحوال المسلمين في جميع مظاهر الحياة والعمران أساسه الاستبداد . في واقع الأمر ، إن المفكر ابن باديس لا يحمل الشعب المستبد به هذه المسؤولية كلها ، حيث ترجع في المقام الأول إلى استبداد الملوك والقادة ، ثم ترجع تبعاً لذلك إلى ضعف الروح الدينية لدى الجميع ملوكاً ورعايا ، كما يبرز الشيخ عبد الحميد بن باديس هنا ، مسؤولية رجال الدين ممن آثروا السكوت لسبب أو لآخر ، وقصروا في القيام بواجبهم الذي كان يقضي عليهم أن يقاوموا المستبدين ويعلموا الجاهلين ببث روح الإسلام السامي في نفوسهم (قاسم،٤٦:١٩٦٧) . وهو يؤاخذهم على تقصيرهم ، عن تجربة وعلم ، لأن مقاومة عالم واحد تأتي بكل عجيب في تطهير النفوس كمقدمة ضرورية لكل إصلاح جدي ، وأيضاً فإن الطرقية والاستعمار أفسدا عقيدة الجزائريين بشكل كبير (رابح ،١٦٣:١٩٨١) . وهذا هو ما نعتقد أن ابن باديس برهن عليه برهنة كافية وملموسة بأسلوبه السهل الممتنع ، دون أن يأخذه غرور بما عقد العزم عليه ، وعندما وثق بتحقيقه بفضل من الله تعالى ، فرأيناه يدعو المسلمين إلى مقاومة الاستبداد ويحثهم على أن ينفخوا مثله في قلوب المسلمين

روح الاجتماع الثوري في كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم حتى لا يستبد بهم مستبد (قاسم ،١٩٦٧:٤٦) .

وهذه المقاومة التي يدعو إليها هي تلك التي نهض بها هو وجماعة من أصحابه ومن رأى أن ينتمي إليه ، ومن أراد استغلال حركته كالحزب الشيوعي الجزائري ، فقاموا إلى جانبه ، بعضهم عن إخلاص ، وبعضهم للإفادة من المعركة الإصلاحية بطريقة أو بأخرى ، وهذا أمر مشاهد في كل حركة إصلاحية ، وتلك هي طبيعة البشر في كل عصر ، كما يكشف لنا تاريخ المجتمعات أيّا كانت اتجاهاتها وبواعثها وأهدافها . ومهما يكن من أمر ، وعلى الرغم من هؤلاء والخاذلين له ولفكرته ، فإنه قاد جمعية العلماء المسلمين بمهارة بالغة ، في أشد الأوقات حرجاً ، إلى تحقيق الهدف الذي حدده بينه وبين نفسه وهو الهدف الذي عاونه على تحقيقه المخلصون من أصحابه عن علم أو عن إخلاص فقط ، وكأنه كان يحدس بالغيب أو يصور الواقع عندما يتكلم عن تلك التجربة التي ستكشف أو كشفت بالفعل عن الخاذل لهم ممن ينتسب إليهم ، فيستغني عنه بالله وبالمؤمنين (الخطيب، ١٩٥٨:١٢٣).

ثم يعلو الشيخ ابن باديس على الواقع الجزائري الذي رسمه بوضوح يعرفه حق المعرفة من عاصره وأسهم معه عن إخلاص ، وهم الكثرة ، أو عن غير إخلاص وهم القلة من الأمة ، فإبن باديس يعلو عن الواقع ليبين لنا أن أعظم الفتنة فيما يرى هو ما قاله الإمام جعفر الصادق بأن يسلط عليهم سلطان جائر ، حيث أنه إذا جار السلطان – وهو من له السلطان في تدبير الأمة والتصرف في شؤونها – فسد كل شيء وفسدت القلوب والعقول والأخلاق والأعمال والأحوال ، وانحطت الأمة في دينها ودنياها إلى أحط الدرجات ، ولحقها من جرائه كل شر وبلاء وهلاك، ثم يتفاوت ذلك الفساد بحسب ذلك الجور في قدره وسعته ومدة بقائه (ابن باديس،١٩٦٨:٣٥٥).

ومع ذلك فإن تسامي الإمام ابن باديس عن الواقع الجزائري لا يبتعد به عنه كثيراً ، فإنا نراه سرعان ما يهبط من التعميم في حديثه عن المستبد الظالم الذي يفسد كل شيء حتى العلماء ، والذي يتدرج بسببه الفساد في درجات الوظائف العامة حتى أدناها ، إذ أن دولة الاستبداد هي دولة الأوغاد ، على حد تعبير عبدالرحمن الكواكبي ، ويلاحظ الباحث أن الشيخ ابن باديس سرعان ما يعود ليلمس الواقع

الجزائري عندما يقرر لنا أن هذا الفساد العظيم الذي عمّ بلاد المسلمين بسبب استبداد قادتهم ليس شيئاً يقارن بالفساد الذي ينخر في كيان الأمة المسلمة إذا تولى أمرها من لم يكن من جنسها ولا دينها في شيء . أليس ابن باديس صريحاً هنا الصراحة كلها ؟ لكنها الصراحة التي تنساب في رفق وصدق لا سبيل إلى إنكاره ، ومع ذلك فإنه يبعث الأمل والخجل في النفوس الراكدة (عبل،٢٠٠٠:٦٢).

أما الخجل فمما وصلت إليه من الاستخذاء للباطل وأعوانه ، وهو يضع هذا التوبيخ بين فقرتين من كلامه عن أعظم الفتنة ؛ إذ نجده يعود مرة أخرى إلى قول الأمام جعفر الصادق فيقول : " إن أعظم ما لحق الأمم الإسلامية من الشر والهلاك كله جاءها على يد السلاطين الجائرين منها ومن غيرها . وهذا ما يشهد به ماضيها وحاضرها ، فما أصدق كلمة جعفر الصادق وما أعمق نظره فيها " (قاسم ،١٩٦٧:٤٧) ، ونقول نحن ما أعظم مهارة الشيخ ابن باديس في التعريض بدولة الباطل .

أما الأمل الذي يبعثه في تلك النفوس الخائرة فهو أنه يؤكد لمواطنيه أن العودة إلى الإيمان والصدق والشكر هي السلاح الناجح ، حيث يشير الإمام بأن التاريخ شهد بذلك من الله لهم ، فلما خانوا وكفروا ، تركهم ومكّن منهم ولكنه برحمته وعدله لم ينس لهم أصل إسلامهم ،فأبقى لهم أصل وجودهم الذاتي ، وأبقى لهم أصل وجودهم الروحي بكتابه المتلو بين ظهرانيهم ، رغم إعراضهم عن تدبر مافيه ، بعد ممارسة وتطبيق الاستعمار الفرنسي لسياسة المسخ التي كادت أن تأتي على ما بقي من هذا المجتمع المنهك القوى (سعدالله ،١٩٩٢:٧٩) .

إن ابن باديس الذي استوعب أزمة العصر ، وتفاعل مع قضايا الجزائر بإيجابية ، كان مشغولاً بتربية الرجال أولاً ، وابتعد عن الجدل الفلسفي العقيم الذي يشوش الأفكار ويثير الخصومات بين العلماء والأتباع ، فقد كان ذكياً مستوعباً لآثار أمته وتاريخها الثقافي والعلمي ، وآثار الرجال والعلماء على مرّ العصور ، فأدرك أن أزمة تخلف المسلمين الحضارية تعود إلى تركها للعلم الصحيح ، وابتعادها عن الإسلام بفعل الاستعمار والطرقية ، ولهذا فإن معادلة العلم والحضارة لا تساوي عند الإمام معادلة الجهل والسقوط في وحل الجاهلية والتبعية الفاسدة في العادات والأخلاق

والتقاليد والقيم ، لهذا كان ابن باديس يفكر تفكيراً صحيحاً ، مؤسساً على أصل التنبه واليقظة والإدراك من المؤامرة التي يديرها الاستعمار وأذنابه بإحكام (بن نبي،١٩٩١:١٤) .

يرى الباحث بأن جهود المؤامرة الاستعمارية والطرقية حصدت الفشل ، وانتصرت الحركة الإصلاحية في الجزائر بشهادة المفكر الأستاذ مالك بن نبي الذي عالج قضايا الاستعمار وأدواره في العالم الاسلامي بحكمة عالية (بن نبي، ١٩٩١:١٤) ، وقد أدركت الحركة الإصلاحية بعمق ، أن الغرب مناهض للشرق ، والروح الصليبية لم تبرح كامنة في الصدور كما كانت قبل بطرس الناسك ، ولم يزل التعصب كامناً في عناصرها ، وهي تحاول بكل الوسائل القضاء على كل حركة يحولها المسلمون للإصلاح والنهضة (قنانش،١٩٩٣:٢٩) .

إن الحركة الإصلاحية تحت لواء الإمام العلامة عبدالحميد بن باديس لا تختلف في طرحها عن أزمة العالم الإسلامي في القرن العشرين ، والبداية من الاحتلال العسكري الفرنسي للأرض الجزائرية ، واستعباد الشعب العربي المسلم ، وهدم المدارس والمساجد والزوايا والكتاتيب ، مروراً بضرب العملية التربوية والتعليمية وفرنستها ، وتكميم الأفواه وسلب الحرية والسيطرة على الأوقاف وأموال الخزينة والزكاة ، والنهاية كانت ضمن سلسلة من الإجراءات ليس أقلها أثراً ، سن القوانين التي تزيد من سيطرة الفرنسيين وتضيق أمل الحرية لدى الجزائريين (سعد،١٩٨٣:١٥).

أما معوقات الإصلاح فهي كثيرة ومتعددة ، لكن الإمام الشيخ عبدالحميد بن باديس – في ظل الأوضاع المتردية للمجتمع الجزائري – لا يشك في رجوع المسلمين الجزائريين إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وإن كانت هناك معوقات تحاول وبكل قوة صدهم عن العودة إليهما ، وأهم هذه المعوقات التصوف الخادع ، ذلك التصوف الذي حاول الإمام أن يجمع أصحابه معه على الهدف الحق لأنه كان يسلك مسلك الدعوة بالحسنى ، قبل أن يلجأ إلى الصراع مع فريق من قومه تربطهم به الأخوة في الله ، رغم سوء فهمهم لدينه . لقد قيل أنه اتجه إلى الطرق الصوفية لأنه لم يكن قد استكمل تكوينه ، لكننا نميل إلى أنه كان متصوفاً

بمعنى الكلمة ، ولم تكن شخصيته في حاجة إلى أن تستكمل عن طريق هؤلاء . وبالفعل خُدع المستعمرون في حقيقته عندما رأوه يتقرب أولاً إلى الطرق الصوفية ، وظنوا أنه لا خطر من أمره مادام قد اتجه إلى هؤلاء ، وخيل إلى خبرائهم في هذه الناحية أنه مجرد رجل عادي استهوته الطرق كما تستهوي غيره عادة ، ولم يفطن هؤلاء وهؤلاء إلى حقيقة الأمر عندما اتصل الإمام بالطرق الصوفية ، وفي الحقيقة إن تلك الطرق التي كان يدعمها الاستعمار – باستثناء الندرة منها – هي سبب تفرق المسلمين ، وهي السبب الأكبر في ضلالهم (حميداتو،٢٠٠٥:٢٤) .

لقد سلك ابن باديس مسلك الرجل العربي المسلم الذي يبدأ الناس بالتحية حتى يحسم الرأي في أمرهم ، فلقد كان من الممكن أن تكون الطرق الصوفية الجزائرية مصدر انبعاث لأنه ما زالت فيها بقايا من الأصول الإسلامية . كان الإمام يأمل عن طريق الإتصال بها ، أن يستنقذ منها تلك العناصر الصالحة التي تسانده في حركته الإصلاحية الدينية والإجتماعية والسياسية . لكن تبين له أنه على الرغم من وجود بعض العناصر التي حافظت على العقائد القرآنية واللغة العربية ، إلا أن كثيراً من الطرق وقعت تحت تأثير الاستعمار ، الذي درس ظروفها عن طريق جواسيسه وعلمائه المشتغلين بدراسة التصوف ، واستطاع أن يدخلها في فلكه (ابن باديس ،١٩٣٧:١٨)، وأن يمرر من خلالها سياسة الرضوخ للقضاء والقدر بمعناها الاستعماري ، حيث هدف الاستعمار إلى ترسيخ الوجود الفرنسي في الجزائر ، والرضوخ له هو قدر ينبغي عدم مقاومته بل مهادنته أو معاونته ، وتكريس هذه الصورة في ذهن العامة (قاسم،١٩٦٧:٤٩) .

وكان هؤلاء العلماء المستشرقون ينظرون ، في بادئ الأمر ، إلى ابن باديس نظرة الاستهانة والازدراء فيما يبدو ، وكان الشيخ عبدالحميد يحتقرهم ،لأنه كان يدرك أن مادة بحثهم هي التراث الإسلامي ، ثم إنهم يأخذون هذا التراث ويدعونه لأنفسهم .

لكن تحية الإسلام لهذه الفرق لم تجذبهم إلى حركة الإصلاح ، وهكذا أبرأ ابن باديس ذمته من إخوانه في الله الذين أشفق عليهم أن يلتزموا جانب المستعمر ، ولو كان في ذلك خسران الأمة الجزائرية . وليس من الغلو في شيء أن يحاربهم

الإمام بكل هذا العنف الذي أتاح له أن يستخلص العامة من سلطانهم ، وأن يقضي على شيوخهم ، قبل أن يمهد الطريق أمام الجيل الذي أعده للقضاء على المستعمر .

هناك معوق آخر من معوقات الإصلاح ، حيث طرحه ابن باديس كمسألة من أخطر المسائل التي عاشها جيله ، بكل ما تحمله هذه المسألة من خطر ، وبكل ما يحمله هذه المعوق من أذى ، فهو يتمثل بضخامة وشمولية الغزو الأوروبي المنظم لدار الإسلام ، وكان قبله السياسي والمفكر خير الدين التونسي قد حذر من خطورة هذا الغزو (أمين ،١٩٩٠:٥٢) ، فأشار إلى أن التمدن الأوروبي تدفق سيله على الأرض ، فلا يعارضه شيء إلا استأصلته قوة تياره المتتابع ، فيخشى على الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار (جدعان ،١٩٨١:٣٨٧) .

برز معوق شكّل جزئياً قوام فهم الإمام ابن باديس لأزمة المجتمع الجزائري المسلم ، يتمثل في الخيانات الفكرية والسياسية ، قامت بها شخصيات دينية وسياسية ربطت مصيرها بالإدارة الفرنسية أو شخصيات فكرية عميلة ساعدت على تزييف الوعي عند الجزائريين ، كل ذلك إلى جانب القوانين الجائرة للإدارة الاستعمارية (الجورشي،١٩٧٨:٩) .

لا يمكن وفي هذه الوضعية المريضة بكل هذه الاحباطات والمعوقات ، أن تقوم حركة الإصلاح والتغيير إلا إذا نهجت منهج الإنبياء والمرسلين لإصلاح ما افسدته الذمم وأيدي الناس ، وعقول المستبدين والمفسدين في الأرض . وفي هذا المقام بالذات يعد ابن باديس نموذجاً سليماً لمحاربة الاستعمار .

لقد فهم ابن باديس بعمق أبعاد المعوقات التي تقف في وجه عملية وحركة الإصلاح ، فقد استوعب آفاق القضية ، وأعطى للموضوع إطاره المستقيم ، فكانت مواقفه وتحركاته ثابتة ، هادفة موجهة إلى صميم المشكلة ، مما أدى به إلى صراع طويل وكفاح باسل ، حقق الجزء الأعظم من مسيرة العمل الإصلاحي بالوسيلة والأسلوب القويم ، بعيداً عن اختلاف السياسيين ، وعقم خطبهم الجوفاء (الجورشي،١٩٧٨:٥) .

المطلب الثاني :

أسس الإصلاح ومنهجيته

كان للدعوة التي قادها الأستاذ جمال الدين الأفغاني وتلامذته من بعده ، أثر كبير في نشر الفكر الإصلاحي السلفي في الجزائر ، فرغم الحصار الذي ضربه المستعمر الفرنسي لعزلها عن العالم الاسلامي ، زار الشيخ محمد عبده – تلميذ العلامة الأفغاني – الجزائر عام ١٩٠٣م ، واجتمع بعدد من علمائها ، ومنهم الشيخ محمد بن الخوجة ، والشيخ عبدالحليم بن سماية ، كما ألقى في الجزائر تفسير سورة العصر ، وقد كان لمجلة العروة الوثقى ، ومجلة المنار ، تأثير كبير على المثقفين من أهل الجزائر الذين اعتبروا دروس العقيدة التي كانت تنشرها (المنار) للإمام محمد عبده ، بمثابة حبل الوريد الذي يربطهم بأمتهم بأسلوب متين (حميداتو،٢٠٠٥:٤) . استمر الاتصال الفكري بين الجزائر وغيرها من البلاد الإسلامية ولم ينقطع، فقد شارك الشيخ عمر بن قدور بقلمه في جريدة (الحضارة) بالأستانه ، و(اللواء) و(المؤيد) بمصر سنة ١٩١٤م، وقد كانت هذه الجرائد والمجلات تدعوا إلى نهضة العرب والمسلمين ، وكانت رائجة في بلاد المغرب العربي والجزائر خاصة (سعدالله ،١٩٩٢:٢٥).

ويعترف الفرنسيون بأن هناك مجرى سرياً ، ولكنه غزير ومتواصل ، من الصحف والمجلات الشرقية ، التي أعانت أبناء المغرب العربي في مجهوداتهم الإصلاحية ، وجعلتهم مرتبطين وبشكل وثيق بالرأي العام العربي ، كما تجدر الإشارة إلى أن أغلب أعضاء البعثات العلمية ، ساهموا بعد عودتهم إلى الوطن الجزائري ، بجهود عظيمة في النهوض بالحياة الفكرية والدينية والسياسية ... ، بما أثاروا من همم وأحيوا من حمية ، بعد أن نهلوا العلم من الزيتونة أو القرويين أو الأزهر ، ومن الحجاز وبلاد الشام (الابراهيمي،١٩٦٤:١٤٤).

وفي موسم الحج لعام ١٩١٣م ، ارتحل الشيخ ابن باديس إلى الديار المقدسة، لأداء هذا الركن ، فالتقى هناك بأستاذه الأول الشيخ حمدان الونيسي ، وكذلك التقى بعالم الهند الكبير الشيخ حسين أحمد الهندي ، كما التقى في المدينة المنورة بالشيخ البشير الإبراهيمي ، فكانت لقاءات المدينة المنورة التي جمعت بينهما ، هي التي

وُضعت فيها الخطط العريضة لمستقبل العمل في الوطن ، فزرعا وقتها البذور الأولى لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، كما حددت في تلك اللقاءات الوسائل التي تنهض بالجزائر نهضة شاملة ، تهتك أستار الظلام الذي فرضه المستعمر على الأمة ، عقوداً طويلة من الزمن ، وننوه أيضاً هنا بأثر جمعية العلماء وصحافتها في فترة رئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس لها ، حيث قامت بدور عظيم في تأييد حركة الإصلاح التي كان ابن باديس يحارب من أجلها ، فكانت موجة ضخمة عارمة هزت البحر من قاعه ، وغيرت أوضاع الجزائر دينياً ، وعلمياً ، وسياسياً ، واجتماعياً ، وكذلك أخلاقياً ، ولا نغفل أيضاً مجالها الإعلامي (القاضي،١٩٨١:١٠٤) . وهنا تقتضي مكانة معوقات الإصلاح ، التي واجهها ابن باديس خلال عمله الإصلاحي ، أن نحدد المناهج المطروحة وهي :

- طريق المواجهة المسلحة الشعبية ، وقد فشلت كلها في تحرير الإنسان والبلاد منذ عام ١٨٣٢م ، حتى ثورة الأوراس عام ١٩١٦م .
- طريق النضال السياسي والعمل الحزبي والمشاركة في المؤسسات المحلية (النظام البرلماني ، والمشاركة في تسيير البلديات والمجالس المالية) .
- طريق البناء الدعوي أو بناء القاعدة الصلبة (سلطاني ،١٩٨٢:٦٤) .

وقد اختار الشيخ ابن باديس الأسلوب الثالث ، لأن ذلك ينسجم مع شخصيته السهلة الممتنعة وينسجم مع إمكانات التغيير من داخل النفس البشرية تدريجياً ، وكذلك لأن الطريق التي اختارها لتحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي والمحافظة على مقومات شخصيتها الوطنية والقومية والإسلامية ، تقوم على أساس مجموعة من الدعائم ، هي في الواقع دعائم كل نهضة اجتماعية وسياسية وثقافية واقتصادية وتربوية ، لكل شعب ينشد التقدم والرقي ، ويطمح إلى الحرية والاستقلال ، وتتلخص الدعائم كالآتي :

- تأسيس المدارس والمعاهد العلمية لتربية الأجيال الصاعدة وإعداد القادة للأمة .
- تكوين المطابع لإحياء الثقافة الوطنية ونشرها بين الناس .
- تأسيس الجرائد والمجلات للتكوين السياسي والأيدولوجي للمواطنين .
- تأسيس المساجد والنوادي للتربية الدينية والوطنية للشباب والرجال والنساء .

تلك هي دعائم النهضة والإصلاح (رابح، ١٩٨١:١٦٢) ، في فكر ابن باديس الإصلاحي التحرري .

إن أسس الإصلاح وأسلوب تنفيذها تحتل مكاناً هاماً في فكر ابن باديس ، وهنا نشير إلى أن الصيغة الموجزة التي تعبر عن شخصية الإمام ابن باديس هي أنه السهل الممتنع ، وصيغته نفسها هي التي تكشف لنا عن السر في نجاح خطته ، لأنه بدأ الإصلاح سهلاً هيناً ، وانتهى به صارماً ممتنعاً ، على نحو لم يفطن له المستعمر أول الأمر ، ولم يستطع القضاء عليه بعد أن تم بالفعل . لقد أراد أن يحاصر الجزائر بمحو شخصيتها العربية الإسلامية فحاصره ابن باديس بالجزائر العربية المسلمة التي يمكن القول بأنها نجت بمعجزة ، ونعني بها معجزة الإخلاص العميق .

وقد بدأ الإصلاح سهلاً هيناً في مجال ظن المستعمر أن لا خطر فيه ، ذلك أنه بدأ يتكلم عن الدين والخلق والعقيدة ، وضرورة الإصلاح الديني والتضحية من أجل الآخرين والشورى عند الملمات إعداداً لمرحلة الجهاد والكفاح ، أي أنه وضع البذرة وتعهد النبت ، حتى أُخذ الآخرون بأن روح الشعب الجزائري بدأت تخفق ، فحاولوا المقاومة بأساليب لم تكن لتجدي ،لأنها جاءت بعد أوانها (قاسم ، ١٩٦٧:٥٠) . وسنتناول هنا أسس الإصلاح وأسلوب تنفيذها ضمن ثلاثة محاور هي :

أولاً. دين وخلق .

ألح الشيخ عبدالحميد بن باديس في تثقيف شباب عصره وكهوله بفكرة السببية التي لا تتعارض مع عقيدة القضاء والقدر ، على نحو ما ظن علماء عصور التدهور ، فبين لهم أن التدهور الذي تعانيه الأمم له أسبابه ، ومتى ارتفعت هذه الأسباب ارتفع العذاب الذي تعانيه الأمة الجزائرية من الباطل وأعوانه ، إنهم يقاسون كل صنوف الحيف ، وكانوا يظنون أنها نزلت بهم عفواً ، أو أن الله أراد لهم العذاب ، دون أن يكونوا أهلاً له، مع أن هذا الظن أقرب إلى سوء الاعتقاد في الله . إن التدهور يرجع إلى فصل العقيدة عن العمل ، أو إلى تدهور العقيدة .

الإيمان الصحيح إذاً هو العلاج الناجع ، حيث يقول عبدالحميد بن باديس "فالإيمان والتقوى هما العلاج الوحيد من حالتنا . فنقطة البدء في أي إصلاح هي تطهير العقائد من الشرك ، والأخلاق من الفساد . فلا داعي إذن إلى تحقير أنفسنا ، ولا موجب للقنوط من رحمة الله ، وليس لنا أن نستهين بما نزيله كل يوم من فسادنا . فبدوام السعي واستمراره يأتي ذلك القليل من الإصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله " (ابن باديس ،١٩٦٨:٢٥٤) . وذلك الفساد ليس خفي على تلاميذ ابن باديس ، فقد قوضوا أسسه عن علم ، كما أنهم علموا أن الإصلاح الخلقي وبعض فروع الإصلاح الأخرى ،

يتبعون للإصلاح الديني بالعودة إلى الكتاب والسنة ، وفي العودة إليهما قضاء حاسم على الفساد وأعوانه .

وهكذا أدرك ابن باديس منذ أول الأمر ، أنه ما من أمة يمكن أن تنهض حقيقة إلا عن طريق التربية ، وأن هذه التربية لا تكون مجدية إلا على أساس تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق ، حيث احتلت عملية إصلاح عقيدة الجزائريين حيزاً هاماً في نشاط الشيخ ابن باديس الإصلاحي تربوياً واجتماعياً ، ذلك أن الاستعمار والطرقية قد أفسدا تلك العقيدة إفساداً كبيراً ، فالاستعمار أفسدها عن طريق الجهل الذي نشره عمداً بين صفوف الشعب الجزائري ، حيث حرمه من التعليم الإسلامي الصحيح ، لأنه قضى على معظم معاهد العلم الإسلامية التي كانت قائمة في الجزائر قبل دخول الاستعمار الفرنسي إلى البلاد عام ١٨٣٠م، ولذلك لم يجد أبناء الجزائر وبناتها معاهد إسلامية ، كالأزهر في القاهرة ، أو الزيتونة في تونس ، أو القرويين في المغرب ، يدرسون فيها أصول الدين الصحيح وعلوم الشريعة الإسلامية في مصادرها الأساسية ، لكي تبني عقيدتهم الدينية على أسس علمية إسلامية ، كما هي مشروحة في مصادر الإسلام الأساسية التي هي الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح (قاسم،١٩٦٧:٥١).

أما الطرقية فقد أفسدت عقيدة الجزائريين عن طريق البدع والخرافات والشعوذة التي نشرها رجالها بين عامة الشعب على أنها من الدين ، والحال أن الدين منها بريء ، ومن هنا أعلن الشيخ ابن باديس أن الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف ، وشن حرباً شعواء على الطرقية لكي يخلص الجماهير من خرافاتهم (رابح ، ١٩٨١:١٦٤) . كما بذل ابن باديس جهوده لإصلاح أخلاق الجزائريين التي تدهورت نظراً للجهل والفقر ومختلف الأمراض الاجتماعية التي نشرها الاستعمار طيلة قرن كامل ، بقصد زرع الإنحلال الخلقي والديني بين أفراد الشعب، لكي يترك الاستعمار يبسط سيطرته على البلاد ، لكن ابن باديس عمل على إصلاح أخلاق الجزائريين عن طريق تربية الناشئة الجزائرية في الأسرة والمجتمع تربية إسلامية متينة ، لكي تتكون أجيال صالحة في أخلاقها وسلوكها ، لتصبح عمدة تحرير البلاد من الاحتلال الفرنسي وإعادة السيادة والكرامة للوطن .

أما إصلاح عقلية الجزائريين فقد أخذت حيزاً كبيراً من وقت الشيخ ، ومن أجلها أنشأ المدارس والمعاهد ، وكون الصحافة الوطنية ، لأنه كان يرى أن الشعب الجاهل لا يستطيع أن يفرض وجوده على الناس في الحياة ، ولا يستطيع أن ينال حريته من أعدائه،

وأن الاستعمار لم يستطع أن يفرض سيطرته على الجزائر إلا لأن الشعب الجزائري في أغلبيته شعب أميّ ، لذلك يجب إصلاح عقليته عن طريق نشر العلم والمعرفة بين أبنائه ، حتى يدركوا حقوقهم ، فيطالبوا بها ، ويناضلوا للحصول عليها . ومن هنا فقد عمل ابن باديس في ميدان التربية والتعليم حوالي سبعة وعشرين عاماً متواصلة ، وقد نجح ابن باديس في هذا الميدان نجاحاً كبيراً ، حيث كون للجزائر جيلين كاملين من الرجال الذين ساهموا مساهمة كبيرة في بعث النهضة العربية الإسلامية في الجزائر ، ومحاربة سياسة الفرنسة والتجنيس والاندماج ، حتى قُضي عليها عقب نهاية الحرب العالمية الثانية ، وعندما هبت ثورة الفاتح من نوفمبر (تشرين ثاني) عام ١٩٥٤، كانوا من جنودها المخلصين ، حيث استطاعوا انتزاع الاستقلال لبلادهم من براثن الاستعمار (رابح،١٩٨١:١٦٣).

ثانياً. الإصلاح الديني :

وتتحقق هذه المطابقة بين الظاهر والباطن عند الفرد والجماعة في القيام بشرائع الإسلام علماً وعملاً في أبواب العبادات والمعاملات ، وفي تطبيق أصول الإسلام وفروعه على الحياة الخاصة والعامة ، أي أن المسلمين لم يضعفوا إلا عندما فرقوا بين العقيدة والعمل ، فكثرت البدع وصنوف الضلال منذ القرن الثالث الهجري ، ويؤكد ما ذهب إليه ابن باديس أن مخطط الفرق الباطنية ، وما صحبه من تطور التصوف الفلسفي، قضى على الدولة الإسلامية الكبرى في بغداد ، فسبب التدهور كما يفهمه ابن باديس ، وكما يشهد به واقع التاريخ يرجع إلى الابتعاد عن الكتاب والسنة ، حيث أن الشيخ ابن باديس كان همه أن يكوّن رجالاً قرآنيين يوجهون التاريخ ويغيرون الأمة (ابن باديس ، ١٩٦٨:٢٥٧) . ومن أجل الابتعاد عن الكتاب والسنة فقد صرف أهل الفتنة جهدهم في تأويل القرآن ، وصرف الناس عنه ، وتحريف السنة وتزييفها ، والافتراء عليها ، وابتكار البدع .

ثالثاً. دعوة إلى العمل :

وقد بلغ التدهور بالمسلمين غايته ، لأنهم رضوا لأنفسهم أن يتبعوا أهل الفتنة والبدع . ولما كانت الأسباب تؤدي إلى نتائجها ، فليس لهم أن يعجبوا إن حل بهم العذاب ، وهذا قانون تخضع له الأمم ، مثل الأمم الإسلامية الحاضرة ، فمما لا شك فيه ، أن فينا ظلماً وفساداً وكفراً بأنعم الله ، وأننا من جراء ذلك في عذاب شديد ، وليس هذا القانون خاصاً بهذه الأمم وحدها ، فهنالك أمم أخرى أقوى منها في أسباب العذاب والهلاك ، وإذا لم يأت المقدار

المماثل من الهلاك أو العذاب لما عندهم من أسبابها ، فلأنه لكل أمة أجل ، ولمّا يأت ذلك الأجل بعد ، فإذا جاء لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

إذن يجب البحث عن أسباب هذا العذاب الذي تقاسيه الأمة الإسلامية ، لأن معرفتها قد تبعث النفوس إلى تجنبها فيزول هذا البلاء ، وقد وعد الله كل أمة تقلع عن الفساد أن يرتفع عنها العذاب ، وهو الصادق الوعد الرحيم ، وإن المطّلع على أحوال الأمم الإسلامية يعلم أنها قد شعرت بالداء وأحست بالعذاب وأخذت في العلاج.

وأول خطوة في العمل هي العمل بدعوة الإسلام الصحيحة ، أي بالتضحية من أجل الجماعة ، وهنا يبين لنا ابن باديس كيف انصرف الناس عن العمل المجدي إلى نوع من الشعوذة والتخاذل . فلقد كان القرآن الكريم يعرض العقائد بأدلة عقلية سهلة تصلح للعامة والخاصة ، فترك المسلمون هذه العقائد الواضحة وانصرفوا إلى الجدل واستهوتهم الطرق المعقدة لدى علماء الكلام ، وهكذا تمزقت الأمة وانحرفت عن العمل الجدي بسبب تناحر فرق الكلاميين في مناقشة مشاكل لفظية (قاسم ، ١٩٦٧:٥٣) .

أما في الفقه فقد ترك الفقهاء الأصول واشتغلوا بالفروع ، فشعبوا وضيقوا رحمة الله الواسعة على الناس ، ودفعوهم دفعاً بسبب تعنتهم إلى أحضان الطرق الصوفية التي تسهل عليهم كل شيء ، فمن الضروري أن تطهّر كتب الفقه من المسائل المتشعبة التي توهمنا ، عند بعض تفريعاتهم الغريبة في مسألة هي أبغض الحلال إلى الله ، وهي الطلاق ، لذلك فإن تطهير كتب الفقه من مثل هذه المسائل يعتبر من خير العمل (الشامي، ١٩٨١:١٨٧).

أما في مجال الأخلاق ، فإن القرآن الكريم يبين لنا مكارم الأخلاق ونفعها ، ومساوئ الأخلاق وضررها ، لكن المسلمين هجروا تلك الأخلاق التي لا تدانيها أخلاق أي دين آخر ، أو أي مذهب فلسفي ، واندفع كثير منهم إلى التصوف الأعجمي المختلط بتراث أمم وثنية . ويعبر الشيخ عبدالحميد بن باديس عن هذا الخذلان قائلاً : " فهجرنا ذلك كله ووضعنا أوضاعاً من عند أنفسنا واصطلاحات من اختراعاتنا خرجنا في أكثرها عن الحنيفية السمحة إلى الغلو والتنطع ، وعن السنة البيضاء إلى الأحداث والبدع ، وأدخلنا فيها من النسك الأعجمي ، والتخيل الفلسفي ، ما أبعدها غاية البعد عن الإسلام ، وألقى بين أهلها بذور الشقاق والخصام ، وآل الحال بهم إلى الخروج من أثقال أغلالها ، والاقتصار على بقية رسومها للانتفاع منها ، ومعارضة هداية القرآن بها " (ابن باديس ، ١٩٦٨:٣٥٢) .

لذلك ينبغي أن نطهر علومنا الإسلامية من هذه الشوائب . وإلى جانب الأوهام والخرافات ، توجد قشور يشغل الناس أنفسهم بها بدلاً من البحث عن اللب . ويشير ابن

باديس هنا إلى طريقة التدريس في جامعة الزيتونة ، حيث يشغل الطالب عقله ، على حد تعبير الإمام بالخصومات بين النحاة "أياماً وشهوراً ، فتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ أو ما تجاوزه إلا قليلاً ، ويعجب كيف ينقلب تفسير القرآن إلى تطبيقات للقواعد على الآيات ، كأن التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية، لا من أجل فهم الشرئع والأحكام الإلهية " (القاضي ،١٩٨١:٧٥) .

ومثل هذا العمل في مجال الثقافة الإسلامية هو الكفيل بتعديل الإتجاه ، أي بالخروج من التيه ، ونعني به ، ثقافة عصور الجمود ، وذلك حتى يمكن فهم القرآن بروح علمية مجردة من الأوهام والخرافات ، وقد أخلص ابن باديس القصد وأجاد الفهم ، وكان مثال العالم المضحي من أجل هذا الإصلاح .

لقد نفذ ابن باديس خطته بصبر وأناة ، وهو تخطيط في غاية البراعة ، فقد استطاع أن يعزل المتحالفين ، فبدأ بالطرق الصوفية ، التي اراد في أول الأمر أن يستخلص العناصر السليمة فيها ،لأن الأخوة الإسلامية في الله فوق كل اعتبار ، فلما حاربته بدأ يعزلها عن الشعب ، فلما لجأت إلى المستعمر أظهرها بمظهر الخيانة ، ففقدت سلطانها على الشعب ، ولم تعد ذات نفع للحكومة الفرنسية في الجزائر ؛ بل غدت عبئاً عليها . فلما انتهى من الأذناب ظهرت دولة الباطل على حقيقتها ، إذ أنها كانت تريد أن تمحو الصبغة العربية الإسلامية في الجزائر غير أنها تنبهت ، بعد فوات الوقت ، إلى أن مصلحاً قطع الطريق عليها في رفق ودون تظاهر بالبطولة ، فحاصرها ببعث اللغة العربية ، وتجديد العاطفة الدينية الصادقة ، مما أحيا في الأمة روح المطالبة بحقوقها ، وحريتها واستقلالها (عبل،٢٠٠٠:٦٤).

نفذ الشيخ ابن باديس ذلك الحصار بأسلوبه السهل ، في الوقت الذي ظن فيه المبشرون أن الحكومة الفرنسية العلمانية بالجزائر قد هيأت لهم كل الوسائل في هذا القطر الإسلامي ، فما عليهم إلا أن يدخلوه بجحافلهم (قاسم ،١٩٦٧:٦١) ، غير أنها وجدت آخر الأمر أنها هي التي حوصرت .

المبحث الثاني :

البعد السياسي في الفكر التحرري عند ابن باديس

لم يكن هدف ابن باديس الخوض في المسائل السياسية البحتة ، ولكن الوضع المتردي الذي كانت تعيشه بلاده ، والانتهاكات والمظالم التي كان يتعرض لها الشعب، فرضت عليه أن يدخل هذا الميدان من مداخل مختلفة ، وإن لم يصرح بذلك ، ويخوض في بعض المسائل التي يراها جديرة بالمناقشة ، والتي كان يحرص من خلال تناوله على اكساب المواطنين وعياً بحقوقهم ، وبأشكال الظلم المسلط عليهم ، وإدراكه لحقيقة ما يجري في وطنهم ، ليعرفوا – كنتيجة لذلك – ما يجب فعله ، ويتخذوا مواقف محددة (عبل،٢٠٠٠:٦١).

لقد كان ابن باديس يغتنم كل فرصة ممكنة لحث الشباب المثقف على خدمة وطنه ، والمساهمة في النهوض بشعبه (رابح ، ١٩٨١:١٦٨) ، وخاض الشيخ ابن باديس منذ أن فرض على نفسه مهمة اكساب المواطنين الوعي بحقوقهم ، معارك نضالية شديدة دفاعاً عن الكيان الجزائري ، وقد انتهج نضاله هذا أساليب متعددة إصلاحية وتربوية وسياسية ، فكانت مواجهاته السياسية ساخنة تظهر في الصدام مع الإدارة الفرنسية وعملائها ، وفي الدعوة إلى تحضير الرأي العام وتعبئة الجماهير للمطالبة بحقوقهم ، كما كانت تظهر في الاجتماعات التي تعقد للنظر في أوضاع الجزائر ، وتحديد المطالب التي ترفع للسلطات الفرنسية ، وفي تقديم العرائض والاحتجاجات ، وفي الردود الصحافية ، التي كان أساسها الدفاع عن الشخصية الجزائرية ، وكرامة المواطن الجزائري التي أصبحت محل مساومة .

ولم يكن ابن باديس في كل هذه المجابهات يخفي أفكاره السياسية التي كان يعبر عنها بلهجة حادة أحياناً تنم عن شخصية قوية جريئة ، وعن تفكير منسجم يظهر معه تفكير الخصوم ضعيفاً ، وحتى الحكام لم يسلموا من نقده لهم وتسفيه أفكارهم (قاسم،١٩٦٧:٧١) ، والتنديد بأساليب معاملتهم لأبناء البلد الذين استعانوا بهم في وقت الشدة والحروب ، وتعنيفهم على المماطلة في تنفيذ الوعود التي كانوا يلوحون بها ، وسنتناول هذا المبحث من خلال المطلبين التاليين :

المطلب الأول : أصول الحكم في الفكر التحرري عند ابن باديس .

المطلب الثاني : المنهج السياسي في الفكر التحرري عند ابن باديس.

المطلب الأول :

أصول الحكم في الفكر التحرري عند ابن باديس

لم يكن ابن باديس مصلحاً فحسب ، بل كان مجاهداً سياسياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فقد وضع للأمة الجزائرية دستور المستقبل ، عندما برهن لها على عدم مشروعية الحكم الفرنسي في الجزائر ، معتمداً في ذلك على ما استنبطه من خطبة أول الخلفاء الراشدين أبي بكر الصديق رضي الله عنه (قاسم،١٩٦٧:٢٥).

أشار ابن باديس إلى " أن الأمم الكاثوليكية على اختلاف أوضاعها السياسية وتباين مشاربها، ترجع في ناحيتها الأدبية الدينية إلى مركز أعلى هو بابا روما المقدس الشخص والقول في نظرهم . نعم ليس لنا والحمد لله في الإسلام بعد محمد عليه السلام شخص مقدس الذات والقول ، ولكن لنا جماعة المسلمين ، وهم أهل العلم والخبرة الذين ينظرون في مصالح المسلمين من الناحية الدينية والأدبية ويصدرون عن تشاور ما فيه خير أنفسها بعيدة كل البعد عن السياسة وتدخل الحكومات، لا الحكومات الإسلامية ولا غيرها ، أما من ناحية السياسة الدولية فهذه من شأن الأمم المستقلة ، ولا حديث لنا عليها اليوم " (ابن باديس ، ١٩٣٧:٦١).

لقد كانت غاية الشيخ ابن باديس الكبرى ، التجديد في معرفة قواعد الحكم الإسلامي بنظرة أكثر واقعية ، وقد حدد أصول الولاية في الإسلام من خلال خطبة الصدّيق رضي الله عنه ، والتي جاء فيها : "أيها الناس ، إني قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسددوني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ، ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه ، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم " (ابن باديس ، ١٩٦٨:٤١٠) .

إن أصول الحكم في الإسلام تناقض أصول الحكم الاستعماري تماماً . إذ لا حق لأحد في ولاية أمر من أمور الأمة الإسلامية إلا بتولية الأمة نفسها ، ولهذا فأهم أصول الحكم هي :

الأصل الأول : من أصول الحكم ، وهو مستمد من قول الصدّيق : وليت عليكم ، بمعنى أن غيري ولاني وهو أنتم . وهذا ما لا ينطبق على الحكم الفرنسي الذي فرض نفسه على الجزائر بحروب الإبادة وبالتفرقة العنصرية . وكذلك بتجريد الإنسان الجزائري من أرضه ومسخ شخصيته (رابح ، ١٩٨١:١٦١) ، وطمس هويته وانتمائه ، حيث أظهر الإستعمار الفرنسي ابشع صور الصلف الاحتلالي .

أما الأصل الثاني من أصول الحكم في فكر ابن باديس فيتمثل بأن الذي يتولى أمراً من أمور الأمة هو أكفؤها فيه ، لاخيرها في سلوكه ، وقد قدّم ابن باديس الأرجح في الكفاءة لا في الخيرية ، وكأنه كان يحدس بمصير جميعة العلماء المسلمين بعد قيام ثورة التحرير . إنهم هم الذين بذلوا الجهد في إعداد الأمة للجهاد ، لكن تطور المجتمع الجزائري برهن بحسب الواقع أن الكفاءة في القيادة كانت لجيل الشباب الذي رأى أن الوحدة الجزائرية لن تكون إلا عن طريق العمل ، وأي نوع من العمل ؟ إنه العمل الجاد المخلص .

ثم يستمر الشيخ عبد الحميد بن باديس في تحليل خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ليقرر أصولاً هامة للحكم ، كحق الأمة في مراقبة أولي الأمر ، لأنها مصدر سلطتهم ، وصاحبة النظر في ولايتهم وعزلهم ، وكحق الوالي على الأمة فيما تبذله له من عون إذا رأت استقامته ، وحقه عليها في نصحه وإرشاده ودلالته على الحق إذا ضل ، وتقويمه على الطريق إذا زاغ ، ثم حق الأمة في مناقشة أولي الأمر ، ومحاسبتهم على أعمالهم وقراراتهم وأحكامهم ، وحملهم على ما تراه هي لا ما يرونه هم ، وحقها أيضاً في أن يبين لها من يتولى حكمها الخطة التي ستسير عليها لتكون على بصيرة من أمرها (قاسم،١٩٦٧:٢٤).

الأصل الثالث : أن "لا تُحكم الأمة إلا بالقانون الذي رضيته لنفسها ، وعرفت فيه فائدتها ، وما الولاة إلا منفذون لإرادتها ، فهي تطيع القانون لأنه قانونها ،لا لأن سلطة أخرى لفرد أو جماعة فرضته عليها ، كائناً ما كان ذلك الفرد وكائنة من كانت تلك الجماعة ، فتشعر بأنها حرة في تصرفاتها ، وأنها تسيّر نفسها بنفسها ، وأنها ليست ملكاً لغيرها من الناس ، لا للأفراد ولا للجماعات ولا للأمم ، ويشعر

هذا الشعور كل فرد من أفرادها إذ هذه الحرية والسيادة حق طبيعي وشرعي لها ولكل فرد من أفرادها " (ابن باديس ، ١٩٦٨:٢١٥) .

بعد أن دمغ ابن باديس الحكم الفرنسي بأنه غير شرعي ، وغير إنساني ، بل هو حكم استبدادي أصيل في استبداده ، وحاجز سميك أمام حرية الشعب الجزائري فإن ابن باديس نادى بأن الناس كلهم أمام القانون سواء ، لا فرق بين قويهم وضعيفهم ، يطّبق على القوي دون رهبة لقوته ، وعلى الضعيف دون رقة لضعفه ، وهذا ما لم تفكر فرنسا قط في تحقيقه ، رغم زعمها أن الجزائر فرنسية ، بل ظلت تفرق بين المستعمرين الفرنسيين والمواطنين الجزائريين . وأكثر من ذلك ، فقد خرجت على قوانينها نفسها عندما دأبت على تزييف الإنتخابات فيما بعد تزييفاً أزعج الفرنسيين أنفسهم (قاسم ، ١٩٦٧:٦٦) .

الأصل الرابع : حفظ التوازن بين طبقات الأمة ، لقد خرجت فرنسا كذلك على أصل هام من أصول الحكم عندما لم تحفظ التوازن بين طبقات الأمة ، فحرصت على تجريد الضعفاء من كل ما بقي في أيديهم، لتزيد من ثراء الأقوياء ، مع أن شريعة العدل توجب أن تصان الحقوق (الخطيب،١٩٥٨:١٤١) ، فيؤخذ الحق من القوي ، دون أن يقسى عليه لقوته فيعتدى عليه حتى يضعف وينكسر ، ويُعطى الضعيف حقه دون أن يدلل لضعفه فيطغى وينقلب معتدياً على غيره .

الأصل الخامس : من أصول الحكم الإسلامي الصحيح أن يشعر الراعي والرعية بالمسؤولية المشتركة بينهما في صلاح المجتمع ، وشعورهما دائماً بالتقصير في القيام بها ليستمرا على العمل (ابن باديس ،١٩٦٨:٢١٩) .

إن التأمل في شخصية المفكر ابن باديس ، هذا الاستراتيجي الكبير تحتاج للعديد من الحلقات البحثية ، وهذا كله بسبب التنوع في مناشطه الفكرية والإصلاحية، وقد استطاع أن يرسم خطاً متميزاً من حيث أصالته وتفرده ، ومن حيث الوسائل التي وظفها ، وقدرته على تغيير تكتيكاته وخططه ، بما يتوافق مع المرحلة الجديدة دون أن يحيد أو يتنازل عن أهدافه الكبرى الجليلة التي سطرها .

لقد أدرك الإمام عبد الحميد بن باديس ، أن مهمته التوجيهية لشعبه ، لا تتم حتى يضع له معالم عامة لدستور ، إن سار على هديه ، كان من المفلحين ، فقد كان الإمام على يقين من أن جهاد الجزائر سيتوج – بحول الله تعالى – بالنصر المبين والاستقلال الوطني ، فوضع لهم في سنة ١٩٣٨م ، دستوراً مختصراً جامعاً لعناصر الكمال الممكن ، اقتبسه من خطبة الصديق رضي الله عنه ، قاصداً تحطيم شوكة فرنسا فهي باطل يجب إزهاقه ، وجهل يجب أن يمحق ، وإملاق يجب أن يزول ، بأن يتم تحكيم كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه الطاهرة وصولاً للاستقلال وطرداً للاستعمار ودحراً له (قاسم،١٩٦٧:٧٠).

المطلب الثاني :

المنهج السياسي في الفكر التحرري عند ابن باديس

لقد كان الشيخ ابن باديس وأصدقائه يتذاكرون في كيفية خلاص الجزائر من قبضة الاستعمار ، فكان يشير إلى الجبال قائلاً هناك سيكون الخلاص ، في حين كان يقول للفرنسيين : "إن الاضطراب الذي يشكون منه في الشمال الإفريقي لا يرجع إلى تدخل اليد الأجنبية سواء أكانت ألمانية أم إيطالية أو إلى نشاط الحزب الشيوعي في الجزائر ، وذلك لأن الشيوعية الفرنسية وإن أفسحت لها الواجهة الشعبية المجال لم تستطع ، ولن تستطيع أن تتمكن من أوساط شعبنا ، أو تحرز أكثر مما حازته من النزر اليسير جداً من أطرافه ، ما دام الشعب يعتقد أن مبادئها الأساسية لا يتفق كثير منها مع الإسلام " (ابن باديس ، ١٩٦٨:٢٤٨) ، إن هذا الاضطراب يرجع بالأحرى إلى عسف السلطات الفرنسية واستخدامها للقهر والإرهاق والقوة والشدة ، ثم يتنبأ أن ذلك كله سوف يفضي يوماً ما إلى أن يفيض الكيل ، فيحدث الإنفجار ، ويرى ابن باديس أن الحكومة الفرنسية غافلة عن المصير الرهيب للاستعمار الفرنسي في الجزائر ، ولا سيما بعد أن تأكدت النهضة الجزائرية واجتازت مرحلة الخطر ، لأنها ليست سوى حلقة من حلقات النهضة الاسلامية العربية العامة ، فالعلاج السليم اذن لن يكون إلا تبديل السياسة العتيقة البالية ، بسياسة جديدة تعترف لهذه الشعوب بكيانها القومي ، وتفسح أمامها مجال العمل للتقدم والرقي ، وتنيلها أعظم قسط من التحرير ، وتشعرها بأنها تساندها لتبلغ رشدها فتكون بدورها يوم رشدها التام عضداً وسنداً لها (قاسم،١٩٦٧:٧٥).

لقد قاد الشيخ عبدالحميد بن باديس معركة الوطن الجزائري بمهارة بالغة ، ففي سنة ١٩٣٣ وقف يتهم الوالي الفرنسي بالتدخل في الشؤون الدينية لمسلمي الجزائر على نحو مخالف للدين والقانون الفرنسي أيضاً ، ويصفه بالكذب ، وينذر أنه لو أراد أن يدخل إلى الميدان السياسي لدخله جهراً ولضرب فيه المثل بما عرف عنه وأصحابه من الثبات والتضحية ، لكنه يدخل إلى هذا الميدان علانية في سنة ١٩٣٧ فيعلو صوته على أصوات السياسيين الآخرين ، ويوجه نداء إلى الأمة الجزائرية وإلى نوابها دون أن يشرك جمعية العلماء المسلمين معه في هذا النداء ،

وفاءاً بوعده إياهم بأنه سيتكفل بالاستعمار وحده ، ذلك أنه رأى أنه لا يجوز للأمة الجزائرية أن تتبع السياسة العتيقة ، سياسة المطالبة والانتظار ، تجاه دولة تخلف وعودها ، وتحاول تجميد القضية الجزائرية بتشكيل لجنة لدراستها لمدة عام ونصف. وهذا هو السبب في أنه يصدر بيانه للأمة والسياسيين تنبيهاً للأذهان ، وتوجيهاً لآراء اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي إلى أن السياسة الوحيدة التي يرى أنها ربما أدت إلى الأثر المطلوب هي سياسة المقاومة السلبية ، ومقاطعة النواب للانتخاب ، والمشاركة في النيابة البرلمانية (قاسم ،١٩٦٧: ٧١) .

وفي ندائه إلى الأمة الجزائرية ونوابها يشير إلى ضرورة اليأس من الإتفاق مع الاستعمار ، وضرورة الثقة بالنفس . لقد تجاهلت فرنسا قيمة الوطنية الجزائرية فما على الجزائريين إلا أن يعرفوا قيمة أنفسهم . ثم يذّكر مواطنيه بموقف وزير الحربية الفرنسي (دلاديه) من الوفد الجزائري في سنة ١٩٣٦، عندما أعلن صراحة أنه يعارض كل المعارضة في إعطاء الجزائريين حق النيابة البرلمانية ما داموا متمسكين بحالتهم الشخصية الإسلامية . وكان هذا التصريح من جانب (دلاديه) ، كافياً في ان يقطع حبل الرجاء أمام من ظل يحسن الظن بالسياسة الفرنسية ، وتأخذ ابن باديس العزة الإسلامية والعربية فيقول: " حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامي أن نبقى نترامى على أبواب برلمان أمة ترى ، أو ترى أكثريتها ، ذلك كثيراً علينا ، ويُسمعنا كثير منها في شخصيتنا الإسلامية ما يمس كرامتنا ويجرح أعز شيء لدينا . لندع الأمة الفرنسية ترى رأيها في برلمانها ، ولنتمسك عن إيمان وأمل بشخصيتنا ، ولنطالب بالمساواة التامة في جميع الحقوق في وطننا ، وأولها المساواة في المجالس النيابية " (الخطيب،١٩٥٨: ١٢٥) .

وقد حدد ابن باديس يوم ١٩٣٦/٨/٢٩ لبدء حركة المقاطعة ما لم ينل الجزائريون حق المساواة في المجالس النيابية الجزائرية ، ودعا جميع الأحزاب إلى تناسي الخلافات وإلى التسامي عن النزاعات الشخصية . فإذا كان الجزائريون قد وقفوا صفاً واحداً إلى جانب فرنسا في أيام الحرب العالمية الأولى فلا أقل من أن يقفوا صفاً واحداً متراصاً ضد المستعمرين الأنانيين ، الذي يصفهم الشيخ ابن باديس بأنهم بمثابة الأعداء لفرنسا نفسها . لا نستطيع أن نطلب من الشيخ ابن باديس في

هذه الحقبة من الزمن أكثر مما نادى به ، ولا سيما أن زعماء الأحزاب السياسية المتنافرة ظلوا ينادون بالمساواة مع فرنسيي الجزائر (الشامي،١٩٨١:١٨٣) ، حتى وقعت مجزرة سطيف في سنة ١٩٤٥، فانقطع الحوار بين الجزائر وفرنسا ، حتى حُلت المسألة الجزائرية بالسلاح اعتباراً من ١٩٥٤.

حقاً إن اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي لم تسر مع نداء ابن باديس حتى النهاية ، بل آثرت حلاً وسطاً ، إذ رأت أن انتقالها من سياسة الثقة إلى سياسة اليأس وطلب المساواة التامة ، إنما يعد طفرة ليس من المناسب ارتكابها ، ووضعت مقررات مسالمة رأى ابن باديس أنها حل أعوج ، وأن اللجنة سترجع لا محالة إلى سياسته عندما ترى أن مطالبها لن تجاب . وتتلخص هذه المقررات في الإشارة إلى أن فرنسا لم تقم بأي إصلاح أساسي لسوء الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ومع ذلك فإن اللجنة التنفيذية تدعو المسلمين إلى الإستمرار على هدوئهم ووقوفهم موقف الكرامة ، وإن كانت قد قررت بالاجماع مبدأ استقالة سائر النواب في مجالس الجماعات ، والمجالس البلدية ، والمجالس العمالية ، والنيابات المالية ، وحددت موعداً نهائياً لتقديم الاستقالات ثم سجلت بعض المطالب العاجلة التي تتلخص في تحديد الأجر الأدنى للعمال والفلاحين بعشرين فرنكاً يومياً ، والقيام بمشروعات كبرى ، وإنشاء صندوق للمتعطلين ، وإعانة الفلاحين وصغار التجار ، وحرية تعليم اللغة العربية ، وإيجاد المدارس الكافية ، والحرية التامة المطلقة للوعظ والتعليم في سائر المساجد ، وحرية الحج ، وحرية الصحافة ، والسفر ، وإلغاء سائر القوانين الاستثنائية ، وإدخال أراضي الصحراء تحت السلطة الإدارية بدلاً من السلطة العسكرية ، ومصادقة مجلس النواب على مشروع قانون "فيوليت بلوم" كخطوة أولى في طريق الانتخاب العام (قاسم،١٩٦٧:٧٣).

وهذه كلها مطالب ثانوية وجانبية ، لا تتناسب مع النهضة الجزائرية التي قويت شوكتها بظهور دعوة ابن باديس وجمعية العلماء المسلمين بما يفسر لنا كيف رفض عبدالحميد بن باديس ان يوافق على مقررات اللجنة التنفيذية . وكم كانت ثورة المستعمرين على ندائه أكثر من إنزعاجهم لهذه المطالب اليسيرة ؟ ذلك أن المبادئ التي حددها رئيس جمعية العلماء المسلمين بصفته الشخصية هي تلك التي

تفتح الباب أمام استقلال الجزائر فيما بعد ، في حين أن إجابة مطالب المؤتمر لا تكلف فرنسا كثيراً ، ومن الممكن اصطناع الوسائل السياسية لحصرها في نطاق ضيق وشكلي .

وقد تجلت ثورة المستعمرين على نداء ابن باديس في الصحف الفرنسية التي تصدر بالجزائر كجريدة "الابريس" في الجزائر العاصمة ، وكذلك جريدة "الريبو بليكان" في قسنطينة . ولما كانت هذه الجريدة الثانية أكثر صراحة في عدائها ، فقد خصها ابن باديس بالرد الآتي عام ١٩٣٧:

"جناب السيد محرر جريدة الريبوبليكان المحترم

قرأت في عدد ٢ سبتمبر الجاري من جريدكم منشوري على الأمة ونوابها ، فشكرت لكم نقله في جريدكم ، ليطلع عليه قسم كبير من الرأي العام الفرنسي ، خصوصاً القسم الذي تمثله جريدكم . ولم يسؤني ما علقتم به عليه من عبارات الحقد والتحريش ، لأن ذلك دليل حصول ما قصدته من تأثير الحق والصدق فيمن لم يتعودوا سماعه من المسلمين الجزائريين أمثالكم ، ولا ألومكم على ذلك ما دمتم ترونه إخلاصاً لأمتكم ووطنكم ، كما كنت أنا مخلصاً في منشوري لأمتي ووطني . وإنما أريد أن أحقق لكم أن تحريشكم لا يخيف صغاراً من تلاميذنا ، فمن باب أحرى وأولى أن لا يكون له أدنى تأثير في كبارنا في السير على خطتنا إلى غايتنا . ومما يؤسف له من أمثالكم أنكم لا تدركون تطورات الأمم وتقلبات الأيام ، وتفكرون فيها في القرن العشرين بأفكار القرون الوسطى .

إن الزمان يا زميلي يسير ولا يقف ، وسنن الكون نافذة لا تتخلف ، والويل لمن قعد أو تعامى " (ابن باديس ،١٩٣٧: ٣٤١) .

إن الملابسات والظروف السياسية التي أحاطت بالجزائر في تلك الآونة ، هي التي أملت هذا الاتجاه على رئيس جمعية العلماء المسلمين ، حيث أن الظفر والفوز التي حصدته ثورة الجزائر بعد ذلك بحوالي ربع قرن ، كان معجزة بالنسبة إلى الشعوب العربية الإسلامية كلها . كما يجب أن نأخذ في الحسبان عناصر المشكلة الجزائرية قبيل الحرب العالمية الثانية ، فإلى جانب تعدد الأحزاب السياسية الجزائرية

وعجزها عن المبادأة ، كانت هناك طبقة الرأسمالية الفرنسية في الجزائر ، وكان لها سلطانها الكبير في توجيه سياسة فرنسا تحقيقاً لتفوق المستعمرين العنصري على المواطنين الجزائريين ، واستنزافاً لثروة الجزائر ، واستدامة لعتوهم وتسلطهم ، فلا تهمهم فرنسا بقدر ما تهمهم مصالحهم (الشامي،١٩٨١:١٨٢) ، فهؤلاء قد شغلهم التفكير في وسائل الضغط والشدة ضد الجزائريين وإخوانهم عن كل تفكير ، رغم مشاهدتهم لهذا الخطر (الحرب العالمية الثانية) واضطرابهم له ، حيث أن المرتبة الأولى لدى تلك الطبقة الرأسمالية تحتلها مصلحتها .

إن الذي قصم ظهر حركة الاستغراب هو الحركة الإصلاحية التي كشفت عن هوية المجتمع الجزائري ودافعت عنها وصقلتها ، فاهتدى بها من اهتدى ، وبقي الضالون قلة متوارية لا تجرؤ على المواجهة إلا في حالة غفلة شعبية كما حدث بعد الاستقلال (سعدالله،١٩٩٨:٢٦٥) .

لقد أراد هؤلاء المستعمرين وأعوانهم من المستغربين أن يذلوا المسلمين وأن يذكروهم دائماً بأنهم خسروا وطنهم إلى الأبد ، رغم أن النهضة الجزائرية أصبحت أمراً واقعاً لا ينكره إلا الغافل الغاشم ، فانتهزوا موعد حلول العيد المئوي لاحتلال قسنطينة ، وأزمعوا أن يكون احتفالهم العسكري تذكيراً للمسلمين بأن المسألة بينهم وبين المستعمرين ليست مسالة حق ،بل هي مسألة قوة . لكنهم أخفقوا في تحقيق الهدف بسبب نداء ابن باديس للجماهير بمقاطعة الاحتفال مقاطعة تامة وهذا ما حصل ، ولم يحضره إلا الرسميون الذين يؤمرون فيطيعون ، وقد نسي الفرنسيون أن احتفالاً سابقاً وهو احتفال سنة ١٩٣٠ باحتلال مدينة الجزائر ، كان فاتحة لنمو النهضة الجزائرية ، وأن احتفال سنة ١٩٣٧ لم يزد الهوة التي تفصل بين المسلمين والفرنسيين المقيمين بالجزائر إلا عمقاً ، وأن إهانة الشعور العربي الإسلامي بطريقة منهجية مطردة كان ممهداً لحوادث سنة ١٩٤٥، ثم للثورة الجزائرية الشاملة (قاسم،١٩٦٧:٧٦) .

كيف لا تنطلق الألسنة من عقالها ؟ وكيف لا يجرؤ أتباع ابن باديس على مهاجمة الفرنسيين علناً ؟ فرئيسهم قد نهى أهل قسنطينة عن الاحتفال المئوي لاحتلال مدينتهم سنة ١٩٣٧ فامتثلوا لنهيه جميعاً . لقد أدرك ابن باديس منذ البداية أن نهضة الجزائر تتم عن طريق بعث الأمة وإصلاحها ، وعدم جدوى الثورات

التي كلفت غالياً ، ومن ثم التهيؤ للاستقلال والثورة ، لذلك نجده بعد عودته من مفاوضة الحكومة الفرنسية عام ١٩٣٦ وفشل مساعيه السلمية ، يتبنى فكرة الاستقلال ويحث على الثورة (عبل،٢٠٠٠:٦١) . إن التفكير الجزائري تحول تحولاً عميقاً ، حيث اتضحت المفاهيم الدينية بعد القضاء على ضروب الشعوذة ، فأصبح الجزائريون المثقفون يرون أن الإسلام ليس هو تلك الخرافات والأوهام التي كان يعتنقها مشايخ الطرق وأتباعهم .

وحقيقة فشلت سياسة فرنسا قبيل الحرب العالمية الثانية أمام عزيمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وعلى رأسها عبدالحميد بن باديس الذي بدأ وحده يناهض فرنسا ، ثم انتهى في سنة ١٩٣٨ بأن جمع الأمة كلها حوله ، بما فيها نوابها الذين أدركوا ، بسبب هذه النهضة الوطنية العارمة ، أن الولاء الأول إنما ينبغي أن يكون للجزائر ، في حين أن كثيراً من هؤلاء كان أداة طيعة في يد السلطات الفرنسية منذ سنوات قليلة . ويكشف عن هذا التحول الكبير ما نجده من مطالبة القسم العربي لمجالس النيابات المالية في الجزائر في سنة ١٩٣٨ بضرورة العناية بالتعليم العربي ، بعد أن تبين لجميع سكان الجزائر ، سواء كانوا من المستعمرين أم من الأهالي ، أن المسألة ليست مسألة مهيجين يرأسهم عبدالحميد ابن باديس ، يريدون أن يهوشوا على الحكومة ، وأن يهولوا الأمر على الناس في شأن التعليم الحر ، فالمسألة ليست مسألة خاصة بجمعية العلماء المسلمين ، بل مسألة الامة الإسلامية الجزائرية عامة (قاسم،١٩٦٧:٨٢).

لقد كان ابن باديس مؤمناً بالحرية ، ويجعلها حقاً شرعياً للإنسان ، وبدونها تنعدم وتزول انسانيته ، وعندما كانت بوادر الحرب العالمية الثانية في الأفق ، وتجند فرحات عباس مع الجيش الفرنسي كطبيب ، كان ابن باديس يشعر بالأسى والألم لذلك ، وصرح لبعض تلاميذه : "لو استشاروني واستمعوا إلي وعملوا بقولي لأشرت عليهم بصعودنا جميعاً إلى جبال الأوراس ، وإعلان الثورة المسلحة ، ولو وجدت عشرة من عقلاء الأمة الجزائريين وافقوني على إعلان الثورة لأعلنتها" (ابن باديس ،١٩٦٨:٢١٤) ، ولم ينتظر الإمام وجود هؤلاء العشرة ، بل باشر العمل مع من حوله ممن يوافقونه على الفكرة ، وحدد تاريخ إعلانها بدخول ايطاليا

الحرب بجانب ألمانيا على فرنسا ، مما يحقق هزيمة فرنسا السريعة ، لكن المنية أعجلته قبل أن يدرك مراده ببضعة وخمسين يوماً ، فقد توفي في ١٩٤٠/٤/١٦، بينما دخلت إيطاليا الحرب في ١٩٤٠/٦/١٠.

بعد استقلال الجزائر عام ١٩٦٢، إثر الثورة الشعبية الشاملة العارمة ، التي كانت إحدى ملاحم التاريخ الإنساني المعاصر في التضحية ، والفداء ، والبطولة ، عرفت الثورة الجزائرية الظافرة المنتصرة مكانة ابن باديس ، وأثره العظيم في إعداد الشعب الجزائري للثورة ضد المحتل الغاصب ، وما قام به من أعمال جليلة من أجل المحافظة على مقومات الشخصية الجزائرية ، وبعثها بعثاً جديداً ، فكانت وفية له ، وقررت جعل يوم السادس عشر من نيسان من كل عام (وهو ذكرى وفاة ابن باديس) يوماً وطنياً ، يحتفل به الشعب الجزائري ومنظماته الوطنية في كل مكان من هذا الوطن ، وقد أطلقت القيادة الثورية على هذا اليوم اسم "عيد العلم" ؛ لأن الشيخ عبدالحميد بن باديس كان قبل كل شيء من رجال العلم الأفذاذ في الجزائر ، وقضى شطراً كبيراً من حياته يتعلمه ، ثم يعلمه أبناء الجزائر (رابح ،١٩٨١:١٥٧) . لقد بشر المفكر ابن باديس بالحكم الراشد منهجاً وأسلوباً في تولي وتسيير شؤون الأمة منذ عقود خلت ، متقدماً على معاصريه من المفكرين السياسيين الإسلاميين وغير الإسلاميين ، في رسم معالم نظام حكم هو اليوم في قلب الإصلاحات والنقاشات الجارية عبر أنحاء المعمورة ، كما أن آراء هذا المفكر المبدع ما زالت تحتفظ بكامل حيويتها وجديتها ، في فهم جوانب مختلفة من الفكر السياسي الإسلامي والعالمي .

الفصل السادس :

آثار الفكر التحرري عند ابن باديس على الواقع الجزائري (١٩٤٠-١٩٦٢)

ترك المفكر الإمام عبدالحميد بن باديس بصمات جلية ، وآثار متعددة خلال حياته وحتى بعد مماته ايضاً ، وتلك البصمات وذلك التأثير مكّناه من احتلال مكانة بارزة في قلوب وعقول الجزائريين كلهم ، وعلى كافة الصعد صحفياً وتربوياً وتعليمياً ، وكذلك دفاعه عن الشخصية الوطنية والقومية لشعب الجزائر ، إضافة إلى عمله المتواصل في سبيل حرية واستقلال بلده ، والمحصلة التراكمية التي ظهرت عقب وفاته بعد أن زرع بذور الثورة وتعهدها تجلت في الانتفاضات وعمليات المقاومة والجهاد ضد المستعمر الفرنسي ، وكذلك الثورات المتلاحقة التي نبتت من بذور باديسية تحررية حيث تُوجت تلك الثورات بثورة عارمة شاملة عام ١٩٥٤، والتي استمرت حتى تمكنت الجزائر من انتزاع استقلالها من فرنسا عام ١٩٦٢ (رابح،١٩٨١:١٥٦) .

لقد أحب الشيخ عبدالحميد بن باديس الشعب الجزائري العربي المسلم حباً لا يضاهيه حب ، فقد عمل بدون كلل من أجل النهوض بذلك الشعب ثقافياً وعلمياً وتربوياً وتحررياً ، ورفع مستواه الاجتماعي والسياسي ، وشكلت أفكاره حتى بعد ١٩٤٠م حربة في وجه الاحتلال الفرنسي ، وإضافة إلى أن رفاقه الذين حملوا فكره، وتلاميذه الذين وضعوا طرد المحتل ورفع سوية مجتمعهم هدفاً نصب أعينهم. إن جمعية العلماء المسلمين التي أسسها الأمام ابن باديس ورأسها ، استمرت بعد وفاته في أداء رسالتها وتأثيرها وممارسة دورها الهام . قررت الجزائر بعد الاستقلال جعل يوم السادس عشر من نيسان من كل عام (ذكرى وفاة ابن باديس) يوماً وطنياً ، كل ذلك انطلاقاً من وفاء الجزائريين لذلك المفكر الملهم الذي أدرك منذ البداية أن نهضة بلده تتم عن طريق بعث الأمة وإصلاحها ثم التهيؤ للثورة والاستقلال (عبل،٢٠٠٠:٦٠) . وسنتناول هذا الفصل من خلال المبحثين التاليين :

المبحث الأول : الثورة ضد المحتل الفرنسي .

المبحث الثاني : الاستقلال كهدف نهائي .

المبحث الأول :

الثورة ضد المحتل الفرنسي

قامت سياسة فرنسا في الجزائر على أساس إبادة السكان العرب بجميع الوسائل الممكنة التي تكفل إخلاء هذه الأرض من العنصر العربي كي يحل محله العنصر الأوروبي ، وقد اتضح ذلك من خلال مراحل حروب التحرير الأولى بوحشية بالغة استخدمها الاستعمار الفرنسي للقضاء على السكان الوطنيين ، ويصف المارشال (سانت آرنو) إحدى مواقع الإبادة في رسالة له : " إن الجزائر رائعة حقاً، وهي إحدى المناطق الغنية التي شاهدتها في إفريقيا ، فالقرى والمساكن متقاربة جداً ... قد أحرقنا كل شيء ، كم من نساءٍ وأولادٍ لاجئين إلى ثلوج الأطلس قضوا من البرد والبؤس" (الخطيب،١٩٥٨:١٩٦٢) .

لقد استمرت حركة العلماء الجزائريين وتلاميذ ابن باديس بحمل مشعل التنوير والتأهيل لشعب الجزائر مع عدم إهمال الصراع السياسي والمحافظة على الشخصية الوطنية العربية المسلمة للجزائر ، وكذلك فإن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد وفاة ابن باديس – مؤسسها ورئيسها – سلّمت الراية من بعده إلى الشيخ البشير الإبراهيمي الذي اتبع نهج ابن باديس ، كما شارك العديد من تلاميذ ابن باديس في عمليات المقاومة الشعبية والانتفاضات والثورات المتلاحقة ضد المستعمر ، إلى جانب إخوانهم الآخرين من شعب الجزائر ، وكان لتلك المقاومة فضل كبير في الصمود أمام المجازر الرهيبة ، خاصة مجزرة ٨ أيار ١٩٤٥ ، وصولاً إلى الثورة الحاسمة الشاملة عام ١٩٥٤ التي تواصلت فيها المقاومة الشعبية الجزائرية عبر جبهة التحرير الوطني الجزائرية ، وهي حركة مستقلة تضم تحت لوائها الثوري جميع عناصر الشعب المختلفة التي تتوخى مصلحة الجزائر الوطنية ، حيث أن جبهة التحرير هي القيادة السياسية لجيش التحرير الوطني الذي أشعل الثورة الشاملة في كل أنحاء الجزائر ، وتوقف القتال بين الشعب الجزائري والقوات الفرنسية حيث اضطرت فرنسا إلى الرضوخ لجبهة التحرير ، وبعد إجراء استفتاء على الاستقلال بالجزائر جاءت نتيجته ٩٧,٣% لمصلحة الاستقلال وأعلن الاستقلال في ١٩٦٢/٧/٥ وقامت الدولة الجزائرية رغم المشكلات التي عرقلت سيرها ، وتفجر الصراع بين قادة الثورة والجهاد ، وهو ما كاد يؤدي إلى حرب أهلية ، (العسلي،١٩٨٦:٩٧) ، وسنتناول هذا المبحث من خلال المطلبين التاليين :

المطلب الأول : مقدمات الثورة كنتاج لفكر ابن باديس التحرري (١٩٤٠-١٩٥٣) .

المطلب الثاني : اندلاع الثورة الحاسمة (١٩٥٤-١٩٦١) .

المطلب الأول :

مقدمات الثورة كنتاج لفكر ابن باديس التحرري (١٩٤٠-١٩٥٣)

إن الأعمال الوحشية والتصرفات الاستعمارية الفظة التي مارستها فرنسا في الجزائر كانت في قمة الهمجية ، ففي سبيل السيطرة على الجزائر ، توجب على الاستعمار أن يستخدم أساليب الإبادة الجماعية ، ومن أجل هذا الهدف رأينا الجيوش الفرنسية تحصد المئات من الأهالي دون أن تهتم بكيفية قتلهم ، أكان ذلك بالرصاص أم بالحريق ، أم بالذبح وبالجوع ، لكن ازدياد نسل الجزائريين بصفة ملحوظة ، وافتقار المزارعين الاستعماريين لليد العاملة الرخيصة شكّل جزئياً عائقاً أمام عملية الإبادة ولو بطريقة غير مباشرة ، إضافة للدور الكبير الذي لعبته الحلقات المتصلة للمقاومة الشعبية في الصمود أمام عمليات الإبادة الجماعية(الخطيب ،١٩٥٨:١٦٣).

وبعد وفاة الإمام ابن باديس في ١٦ ابريل عام ١٩٤٠، واصل رفاقه وتلاميذه عمليات المقاومة إضافة إلى منتسبي جمعية العلماء المسلمين برئاسة البشير الإبراهيمي ، حيث تولى الابراهيمي رئاسة الجمعية للفترة ١٩٤٠-١٩٥٣ ، ودافعت الجمعية بالقلم واللسان عن العروبة والإسلام ، وعن قضية فلسطين السليبة وحاربت الفرنسة ، حتى إذا اندلعت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) أسرعت السلطة الفرنسية بالجزائر إلى إلغاء وحل جميع الهيئات والمنظمات والجمعيات الجزائرية ذات الصبغة السياسية والطابع الفعال ، وشارك الجزائريون في هذه الحرب الضروس ودافعوا عن العلم الفرنسي ، ومات منهم عشرات الالوف في صفوف دول الحلفاء ضد دول المحور ، وسرعان ما سقطت فرنسا امام قوات المحور الذي احتل عاصمتها باريس عام ١٩٤٠، وفي عام ١٩٤٢ نزل الحلفاء باسطولهم على الجزائر بقيادة الجنرال الامريكي (آيزنهاور) ومعه الجنرال الفرنسي (جيرو) الذي فر من أسر الألمان ، وفي كانون أول من نفس العام قدّم فرحات عباس ومعه عدد من الممثلين الجزائريين المنتخبين البارزين مجموعة من المطالب إلى السلطات المسؤولة في الجزائر ، فرفضت فرنسا "رسالة ممثلي المسلمين" التي تنص على أنه " إذا كانت هذه الحرب كما أعلن رئيس الولايات المتحدة حرباً لتحرير الشعوب والأفراد دون تمييز يتعلق بالعنصر أو الدين فسيشترك الجزائريون المسلمون في

هذا الكفاح التحريري ، وهكذا يحققون تحررهم في نفس اللحظة التي تتحرر فيها فرنسا لذلك فهم يطالبون قبل المساهمة بالمجهود الحربي مع الحلفاء بعقد مؤتمر يضم جميع التنظيمات الإسلامية لإصدار قانون اجتماعي اقتصادي للجزائريين المسلمين ولكن الحلفاء والمستعمرين رفضوا ذلك كلياً (الجيلالي،١٩٩٤:٣٦٣) .

لقد تمّ تعيين الجنرال (جيرو) حاكماً إدارياً للجزائر فركز جهوده على حشد الجنود الجزائريين للقتال تحت لواء فرنسا لتحرير الأراضي الفرنسية من حكومة فيشي الموالية للألمان ، ولما حاول فرحات عباس التفاوض مع (جيرو) بشأن الحلول السياسية التي لا بد أن تسير جنباً إلى جنب مع التعاون العسكري بين الجزائريين وحكومة فرنسا الحرة ، أجاب (جيرو) بالرفض ، ويومئذ أعلن فرحات مشروعه الجديد في بيان أصدره عام ١٩٤٣ والذي سمى أنصاره بأحباب أو أصدقاء البيان ، وكانت مطالب فرحات تتلخص إذ ذاك في التقدم الاجتماعي العام على مستوى واحد مع المستوطنين في كل شيء ، وإشراك المسلمين الجزائريين في حكم بلادهم على الفور ، وإن كان فرحات قد نادى من قبل في خطاب له وجهه إلى السلطات الأمريكية عام ١٩٤٢ بإنشاء جمهورية جزائرية أصدرت حكومة (ديغول) الفرنسية المؤقتة قراراً في عام ١٩٤٤، تعلن فيه أن المسلمين الجزائريين هم فرنسيون ، ويعطي صفة المواطن لخمسين ألف جزائري دون إلزامهم بالتخلي عن قانون الأحوال الشخصية ثم في عام ١٩٤٧ اعتبر جميع الملمين الجزائريين مواطنين فرنسيين دون مساس بأحوالهم الشخصية والشرعية حسب أحكام القرآن الكريم ، وانتهت الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥ فتطاولت الأعناق إلى تطبيق ما سبق أن تعهدت به دول الحلفاء للأمم المستضعفة من الأخذ بيدها نحو التقدم والرقي والتحرر والاستقلال ، لكن ذلك كله لم يقع لا في الجزائر ولا في تونس والمغرب ، وتناست دول الحلفاء المسلم الجزائري كأنه لم يقاس الأمرين ولم يضح بنفسه في سبيل الدفاع عن فرنسا ، فاشتد لذلك حنق الأحرار من أبناء الجزائر (سعدالله،١٩٩٢:٢٣٧) ، أولئك الذين نهلوا أو تأثروا بفكر ابن باديس التحرري، حيث أخذوا يعملون على الحاق بلادهم بقافلة البلاد التي تسعى للحصول على حريتها واستقلالها (أنظر الملحق رقم٢).

جاء يوم احتفال العالم بذكرى انتصار الحلفاء (الثلاثاء ١٩٤٥/٥/٨) فخرجت شعوب العالم في مظاهرات كبرى معلنة نهاية الحرب العالمية الثانية وسقوط النازية الالمانية والفاشية الايطالية ، وخرج الشعب الجزائري أيضاً في مظاهرات شعبية سلمية ليشارك شعوب العالم فرحتهم بعودة السلام العالمي وانتصار مبادئ الحرية والديمقراطية في العالم ، لأنه هو الآخر ساهم بالآلاف من ابنائه الذين سقطوا في ميدان الحرب لتحقيق هذه المبادئ السامية ، حاملاً بيد باقات الزهور لوضعها على قبول الأموات ورافعاً بيده الاخرى لافتات واعلام تطالب بالحرية ومذكرة بالوعود وداعية إلى تقرير المصير ، مع بعض الشعارات الوطنية التي تعتقد بوفاء فرنسا لوعودها بعد أن ذاقت الأخيرة طعم الاحتلال الألماني ، إلا أن السلطة الفرنسية راعها أن تشاهد الراية الجزائرية ترفرف على أرض الجزائر ، فجن جنون الفرنسيين بعد أن فشلوا في نزع تلك الراية ، وتدخل الجيش الفرنسي بسلاحه وبدأت المجزة الرهيبة التي شهدتها كل من مدن سطيف وقالمة والجزائر ، وخراطة وبونه وغيرها من المدن والقرى حيث استخدم الجيش الفرنسي البنادق والرشاشات والدبابات والطائرات ، واستغرقت حملة الابادة هذه اسبوعاً كاملاً (العقاد،١٩٦٣:٨٥) .

لقد سقط خلال تلك المذبحة المشهورة ما يزيد على ٤٥ الف شهيد ما بين شيوخ وشباب ونساء واطفال ، فضلاً عن الذين حكم عليهم بالإعدام بعد محاكمات عسكرية عاجلة ، وكذلك اصطاد الاستعمار الاف من الشباب المسلمين وسيقوا افواجاً إلى المذبحة ، حتى أن الجنود الفرنسيين كانوا يشوهون جثث القتلى ويبقرون بطون الحوامل ، وفي يوم ١٩٤٥/٥/١٢ أصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي نداءً موجهاً إلى شمال افريقيا أنحت فيه باللوم على رجالات حزب الشعب الجزائري في حدوث مذبحة ١٩٤٥/٥/٨ ، وبعد ذلك بنحو شهر قرر مندوب الحزب الشيوعي الجزائري في مؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي العاشر : أن الذين يطالبون بالاستقلال في الجزائر هم عملاء ، وأن الحزب يدعم الاتحاد بين الشعبين الفرنسي والجزائري !! وتبع مجزرة عام ١٩٤٥ حملة نكراء شنها الجيش الفرنسي على بلاد القبائل عام ١٩٤٧ ، ثم حوادث دشمية برقية عام ١٩٤٨، فاغتيالات

شامبلان فالغارة النكراء ضد دوار مرشد سيدي علي بونان في ١٩٤٩ وكذلك المؤامرة التي دبرت لاغتيال مئات من الشباب الناهض عام ١٩٥٠ ثم الحملة المنظمة على منطقة الاوراس عام ١٩٥٢ وحوادث تقتيل الجزائريين المهاجرين لفرنسا عام ١٩٥٢(انظر الملحق رقم٢) ، وفي أثناء هذه الحوادث تم حل تجمع انصار البيان والحرية من طرف السلطة ، ثم ماذا كان رد الفعل من طرف الشعب الجزائري على كل هذه الأحداث الإجرامية ؟ ... كان الجواب هو أنه لم يبق أمام الأمة الجزائرية سوى توحيد صفوفها ، ولاسيما الشباب العائد من ميادين القتال في أوروبا ، تمهيداً لإنطلاق الثورة المسلحة التي أعلنتها بعد استكمال مقوماتها المعنوية والبشرية عام١٩٥٤(الجيلالي ،١٩٩٤: ٣٧٢) .

انضم العديد من الشباب الجزائري المسلم ، ومنهم المتأثرين بهواء الحرية والذي نثره ابن باديس رحمه الله ، إلى جانب إخوانهم من خريجي المدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء المسلمين في عمليات المقاومة والمجموعات الفدائية التي شكلتها ثورة التحرير (شاكر ،١٩٩٦: ٤٥) ، وفي غضون هذه الوقائع الدموية والأحداث السياسية انعقد ميثاق الوحدة بين أحزاب المغرب العربي ، حيث التقت وفود الأحزاب السياسية بشمال إفريقيا في باريس بمناسبة اجتماع منظمة الأمم المتحدة عام ١٩٥٢، وبعد متابعتهم لأعمال المنظمة ، تأكد لدى الوفود المغربية أن هذه المنظمة تعمل لصالح الدول الكبرى ، وتقع تحت نفوذها ، وأن الأمل الوحيد لتحقيق الهدف معقود بالكفاح والنضال واجتماع الكلمة والوقوف صفاً واحداً في وجه الاستعمار ، وبعد اجتماعات ومشاورات كان في مقدمة الداعين إليها الشيخ البشير الابراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين – تلك الجمعية التي كانت احدى غراس فكر ابن باديس التحرري – وعباس فرحات ومصالي الحاج ومحمد الوزاني والزعيم الحبيب بورقيبة ، حيث تم الاتفاق بينهم على المطالبة الجماعية بالاستقلال لدول المغرب والجزائر وتونس وتنسيق الجهود المشتركة (سعدالله،١٩٩٢: ٨٦) .

ان استغلال فرنسا لقيام مظاهرات ١٩٤٥ ثم ارتكابها لمجازر رهيبة وحشية ، كل ذلك مع ظروف الشعب الجزائري المسلم تحت الاحتلال وإرهاصات ولادة الثورة الشاملة، فانصرف الجهد إلى جمع الأسلحة وإعداد الخلايا السرية الثورية حتى يحين الوقت المناسب لتفجير الصراع المسلح ، ولقد حاولت الحكومة الفرنسية عبثاً استدعاء الشعب الجزائري إلى المشاركة في البرلمان أو في غيره من بقية المجالس الفرنسية العليا، لأن ذلك كله أصبح غير مقنع لهذا الشعب بل إنه يراه قيداً آخر تقيد به فرنسا حريته وإرادته الجبارة وعزيمته النافذة ، وهناك عدة عروض وحلول عرضتها بعض الأحزاب السياسية الفرنسية اليسارية زاعمة أنها تحاول التقريب بين الحكومة والشعب لتحقيق رغبة الجزائريين ، كقولهم : إن للجزائر سياسة لها حكومتها ومجلسها التشريعي ولكن السيادة فيه لفرنسا ، كما أن أحزاب اليمين الفرنسية برامجها الخاصة التي لا تخرج عما تسميه بالإصلاحات ، وهي دائماً تحوم حول تحويل نظم الاستعمار بتغيير أسمائها وتحوير ألقابها ، وتأخيري وتقديم بعضها على بعض وتنميقها بألوان من التزويق ، كأنما الشعب الجزائري لا يزال غراً أو طفلاً صغيراً أبله ينخدع بمثل هذه المغالطات والأكاذيب (الجيلالي ،١٩٩٤: ١٩٧٤) .

وأخيراً فإننا نستذكر خطة ابن باديس ، بعد رجوع وفد من فرنسا شارك فيه، وتمّ استقباله من قبل عشرات الآلاف حيث خطب فيهم قائلاً :" أيها الشعب إنك برهنت على أنك شعب متعشق للحرية ، تلك الحرية التي ما فرقت قلوبنا منذ كنا نحن الحاملين للوائها، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها وكيف نحيا ونموت من أجلها ، وثبة بعدها ثبات ، فإما الحياة وإما الممات " (ابن باديس،١٩٦٨: ٤٥) ليس أصرح في الدعوة إلى الثورة المسلحة مما جاء في هذه الخطبة ، التي استنشق شعب الجزائر لاحقاً نسماتها وطبقها عملياً على أرض الواقع بعد وفاة الإمام رحمه الله .

المطلب الثاني :

اندلاع الثورة الحاسمة (١٩٥٤-١٩٦١)

اتجه الجزائريون بعد تلك المذابح البشعة إلى العمل السري، وكان يتم اختيار أفراد هذا العمل من خيرة الشبان خلقًا وأدبًا فلم يكن يسمح بضم الملحدين أو الفوضويين، وبدأت خلايا المجاهدين تنتشر في الجزائر طولاً وعرضًا، وأحيطت أساليب العمل بسرية تامة مما كان له أكبر الأثر في نجاح الثورة، واستطاع هذا التنظيم الدعاية للثورة في صفوف الشعب وإعداده للمعركة القادمة وقد تشكلت لجنة مؤلفة من (٢٢) عضوًا برئاسة محمد بوضياف عرفت باسم "اللجنة الثورية للوحدة والعمل" كان مهمتها قيادة العمل السري، وأوكل إلى بعض أفرادها مهمة العمل لإشعال الثورة، وتم تشكيل جبهة التحرير الوطني الجزائرية التي حددت يوم ١ تشرين ثاني ١٩٥٤ موعدًا لبدء الثورة الجزائرية، وهو يصادف عيد القديسين عند الفرنسيين، وأعلنت الجبهة في بيانها الأول أهدافها ووسائلها التي تصدرها الاستقلال الوطني وإقامة دولة جزائرية ذات سيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية، واحترام الحريات دون تمييز ديني أو عرقي، وأعلنت الجبهة أنها ستواصل الكفاح بجميع الوسائل لتحقيق ذلك الهدف، وتأسس في ذلك اليوم جيش التحرير الوطني، وفُتح للجبهة عدد من المكاتب في الخارج وفي مقابل ذلك يتم التعهد بما يلي :

أولاً : ان المصالح الفرنسية الثقافية والاقتصادية التي تحصلوا عليها بطريقة شريفة تكون مضمونة وكذلك الأشخاص والعائلات ستحترم .

ثانياً : كل الفرنسيين الراغبين في البقاء بالجزائر يكون لهم الخيار بين جنسيتهم الأصلية فيعتبرون أجانب على أرض الجزائر ، أو أن يحملوا الجنسية الجزائرية فيعتبرون مواطنين جزائريين لهم ما للجزائريين حقوق وعليهم ما على الجزائريين من واجبات .

ثالثاً : إن العلاقات بين فرنسا والجزائر يقع تحديدها فيما بعد ، وتكون موضوع اتفاق بين الطرفين على قدم المساواة والاحترام المتبادل .

لم تكن الثورة الجزائرية ثورة مرتجلة ، وإنما قامت على أسس قويمة ، وتفكير سليم وتضحيات ضخمة وإخلاص كبير ، وانكار للذات ، وانتقلت من حركة فكرية تحررية وضع أرضيتها العلماء والمصلحون أمثال ابن باديس ورفاقه ، إلى حركة سلمية ثم إلى حركة ثورية مسلحة ، وما كادت الثورة تبتدئ حتى تلاشت فيها كل الأحزاب ، ورأتها المنظمة الوحيدة التي تعبر عن أهدافها فانضمت إليها (الجيلالي،١٩٩٤:٣٩٦) .

وفوجئت السلطات الاستعمارية الفرنسية بوقوع سلسلة من الهجمات المسلحة شنها المجاهدون الجزائريون على المنشآت والمراكز العسكرية الفرنسية في كامل أنحاء البلاد وعلى الأخص في جبال الأوراس والقبائل والشمال القسطيني، وتلمسان، وكان ذلك إيذانًا ببداية الحرب طويلة الأمد التي استمرت سبع سنوات ونصفا، وكان رد الفعل الفرنسي الأول ممثلا بموقف رئيس وزرائها "ماندیس فرانس" الذي أعلن أن جواب فرنسا على هذه العمليات التمردية هو الحرب، وبادر بإرسال قوات المظليين الفرنسيين في اليوم التالي، وقامت هذه القوات ذات القبعات الحمراء بارتكاب أبشع الأعمال الإجرامية والدموية ضد الشعب الجزائري، فدمرت قرى بكاملها، وموورست الإبادة الجماعية والتعذيب البشع، وصرح وزير الداخلية الفرنسي "فرانسوا ميتران" أن الجزائر هي فرنسا (سعدالله،١٩٩٢:٢٤٥).

كان عدد القوات الفرنسية في الجزائر عند بداية الثورة حوالي (٥٠) ألف جندي، فلم تستطع حماية نفسها، فطلبت التعزيزات حيث قام المجاهدون في اليوم الأول للثورة بأكثر من خمسين هجومًا خاصة في منطقة أوراس والقبائل، ثم اعتصموا بالجبال واستطاع المجاهدون السيطرة على منطقة الأوراس التي تبلغ مساحتها (١٢) ألف كيلو متر، ولم يعد في إمكان الفرنسيين دخولها إلا في المدرعات وحماية الطائرات ارتفع عدد القوات الفرنسية في الجزائر بعد ثلاثة شهور من الثورة إلى ثمانين ألفًا، وامتد لهيب الثورة إلى كل أنحاء الجزائر وأصبحت ولايات الجزائر ولايات للكفاح والجهاد، وخلق الإرهاب الفرنسي جوًا من العزلة بين الفرنسيين والقوى الوطنية (العقاد،١٩٦٣:١٥٢) .

كان قادة الثورة الجزائرية قد تواعدوا عندما أطلقوا شرارة الثورة على الالتقاء بعد ستة أشهر لتقويم المرحلة السابقة، غير أن عنف الثورة، وانهماك القادة في الجانب العسكري والسياسي لم يسمح بهذا اللقاء إلا بعد (٢٢) شهرًا، حيث انعقد مؤتمر الصومام في اب ١٩٥٦م في منطقة القبائل وحضره كبار القادة ومثلت فيه جميع الولايات، ويعتبر المؤتمر نقطة تحول هامة في تاريخ الثورة، واتخذ المؤتمر عدة قرارات هامة منها إقامة المجلس الوطني للثورة الذي تولى مهمة التوجيه العام لها، وتنظيم جيش التحرير على غرار التنظيم المتبع في جيش منطقة القبائل (العسلي،١٩٨٦:٨٥) .

وكانت جبهة التحرير الجزائرية قد أعلنت في شباط ١٩٥٦م استعدادها للمفاوضة مع فرنسا من أجل وقف القتال وحل المشكلة الجزائرية، إلا أن فرنسا رفضت هذه المبادرة، وأرسلت السفاح "روبيرلاكوست" قائدًا عامًا في الجزائر، وزادت قواتها الاستعمارية إلى أكثر من نصف مليون مقاتل، وقامت بأحد عشر هجومًا ضخمًا واسع النطاق حمل أسماء ضخمة، كان يهدف بعضها إلى عزل جيش التحرير عن مناطق الريف؛ لذلك تم إجلاء القرويين من مساكنهم وحشدوا في معسكرات تحت الرقابة الدائمة، أما النقطة الثانية فتتمثل في حشد قوات هائلة تستمر عملياتها من أسابيع إلى شهور لسحق الوطنيين وهو ما عرف بمشروع "شال" ، ولم ترهب هذه القوات الفرنسية جيش التحرير الجزائري الذي زاد قواته ومجاهديه إلى أكثر من (١٢٠) ألفًا، وأنشأ مدارس عسكرية، بل امتدت عملياته الحربية والجهادية إلى الأراضي الفرنسية حيث تم تدمير مستودعات بترولية ضخمة في فرنسا ، وأمام هذا الوضع المتأزم اختطفت فرنسا في ١٩٥٦ طائرة مغربية وعلى متنها أربعة قادة من قادة الثورة الجزائرية وهم حسين آيات أحمد، وأحمد بن بله الذي أصبح لاحقاً أول رئيس لجمهورية الجزائر ، ومحمد خضير، ومحمد بو ضياف، كذلك حاولت شق صف الثورة من خلالها عميلها "بن لونيس" إلا أن الثوار استطاعوا إعدامه (سعدالله، ١٩٩٢:٢٤٧) . أصبحت القضية الجزائرية معضلة من أضخم المشكلات الدولية، وتعددت مناقشاتها في الأمم المتحدة واكتسبت تعاطفًا دوليًا متزايدًا على حساب تآكل الهيبة الفرنسية عسكريًا

وسياسيًا واقتصاديًا، وقام قادة الثورة بزيارات لعدد من دول العالم، وتشكلت حكومة جزائرية مؤقتة في ١٩٥٨م برئاسة عباس فرحات، ولم يمض شهر واحد على تشكيلها حتى اعترفت بها (١٤) دولة ، وفي ١٩٧٩م أعلن الرئيس الفرنسي ديجول عن قبول فرنسا للمفاوضات بأسلوب غير مقبول، إذ أعلن أنه على ممثلي المنظمة الخارجة على القانون والمتمردين على فرنسا أن يأتوا إليها، فأعلنت الحكومة الجزائرية المؤقتة أنها كلفت الزعماء الجزائريين المختطفين في فرنسا بإجراء المفاوضات حول تقرير المصير، فرفض ديجول هذا المقترح ، وقع تمرد عسكري في صفوف القوات الفرنسية في الجزائر بقيادة عدد من الجنرالات وأعلنوا ذلك التمرد عبر إذاعة الجزائر في ١٩٦١م وقامت مظاهرات عنيفة في الجزائر ضد الفرنسيين، وأعلنت الحكومة الجزائرية المؤقتة أنها شرعت في إجراء محادثات إيفيان بعد ذلك بأسابيع، لكنها ما لثبت أن توقفت بسبب الخلاف في موضوع الصحراء (الجيلالي،١٩٩٤:٣٩٨) .

لقد كان العديد من الشباب الجزائري المسلم ومنهم المتنسمين لعبير فكر ابن باديس السياسي ، وخريجي مدارس جمعية العلماء المسلمين ، إلى جانب إخوانهم من بقية صفوف المجتمع الجزائري ، المشاركين بأحداث الثورات المتلاحقة التي أدت لإستقلال الجزائر (شاكر ،١٩٩٦:٤٥) .

المبحث الثاني :

الاستقلال كهدف نهائي

إن إيمان ابن باديس بالحرية واضح وجلي ، فقد كان مؤمناً بالحرية إلى الحد الذي جعلها حقاً شرعياً للإنسان ، حيث تزول إنسانيته بدونها ، فحق الإنسان في الحرية عند ابن باديس كحقه في الحياة ، وقال :" إن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا ... ولسنا من الذين يدعون علم الغيب مع الله ويقولون أن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد فكما تقلبت الجزائر مع التاريخ ، فمن الممكن أن تزداد تقلباً وتصبح الأمة الجزائرية مستقلة استقلالاً واسعاً تعتمد عليه فرنسا اعتماد الحر على الحر " (ابن باديس،١٩٦٨:٧٩) .

على الرغم من كل المحاولات والأساليب التي استعملتها فرنسا للاحتفاظ بالجزائر إلا أن الثورة الشاملة الحاسمة التي انطلقت عام ١٩٥٤ بقيت مستمرة ، وازدادت جذوتها اشتعالاً أكثر فأكثر ، وتمكنت قيادة الثورة الجزائرية المتمثلة بالحكومة الجزائرية المؤقتة من إجبار فرنسا على التفاوض معها بشأن مستقبل الجزائر ، والتي بدأت في شهر حزيران من عام ١٩٦٠ في مدينة (ميلين) الفرنسية، وكانت نتيجتها الفشل ، وفي عام ١٩٦٢ استؤنفت المفاوضات بين الحكومة الجزائرية المؤقتة والحكومة الفرنسية حيث توصل الطرفان في ١٨ آذار من نفس العام إلى توقيع اتفاقية (إيفيان) ، وقد نصت الاتفاقية على وقف العمليات الحربية بين الطرفين (العقاد،١٩٦٣:١٦٥) .

وفقاً لاتفاقيات (ايفيان) كان مقرراً أن يجري استفتاء بشأن قضية استقلال الجزائر بناءً على ما تضمنته المادة ١٧ من الباب الثالث من نصوص اتفاقيات (ايفيان) خلال فترة تتراوح من ثلاثة إلى ستة أشهر ، واستناداً لنص الجزء الثالث من مواد ضمانات تنظيم الاستفتاء على تقرير المصير ، والجزء الرابع الذي ينص على تشكيل قوة محلية للأمن غايتها الإشراف على الاستفتاء ، لقد بقي جيش وجبهة التحرير الوطني يستعدان لإجراء الاستفتاء في جو من الحيطة والحذر إلى أن حلّ الفاتح من تموز عام ١٩٦٢. وقد اجتمعت لهذا الحدث التهيئة والتحضيرات العامة لتعبئة الشعب كتوزيع مناشير على المواطنين لتوعيتهم وحثهم على المشاركة بقوة

في هذا الحدث ، بعد أن ضبطت الحكومة الجزائرية المؤقتة بمقرها في بـــومرداس موعد الاستفتاء بالفاتح من تموز ١٩٦٢، واستجاب المواطنون بنسبة كبيرة جداً لهذا الحدث الهام ، وتضمنت استمارة الاستفتاء الإجابة بنعم أو لا على السؤال التـــالي : هل تريد أن تصبح الجزائر دولة مستقلة ؟ لقـــد تمـــت عمليـــة فـــرز الأصـــوات في ٢ تموز ١٩٦٢ ، وكانت الحصيلة لفائدة الاستقلال بأغلبية كبيرة بنـــسبة ٩٩% (سلطاني،١٩٨٢:٥٣٧) .

لقد شكلت قبل الاستفتاء هيئة تنفيذية مؤقتة تتألف من ١٢ عـــضواً تحـــددهم فرنسا والحكومة الجزائرية المؤقتة معاً ، ويتبع هذه الهيئة قوات خاصة للنظام العام مكونة من الجزائريين ، والواقع أن السلطة كانت في يدي المفوض السامي الفرنسي في الأراضي التي تحتلها القوات الفرنسية ، وفي أيدي الوطنيين في المناطق التـــي يسيطرون عليها ، وأُعلنت جبهة التحرير الوطني الجزائريـــة منظمـــة شـــرعية ، وقضي بتحرير المعتقلين السياسيين ، واحترام الثقافة والدين ، وبالمساواة الـــسياسية لأوروبيين ، أم استغلال الثروات فيتم باشتراك الجزائر وفرنسا معاً ، وجملة الأمر أن اتفاقية (ايفيان) التي كانت ثمرة حل وسط ، وتـــضمنت عـــدد مـــن التنـــازلات للحكومة الفرنسية ، كانت انتصاراً كبيراً للشعب الجزائري ، إذ وضـــعت الأســـاس الحقيقي والسياسي لمستقبل استقلال الجزائر (راشد،٢٠٠٤:١٧٦) .

على الرغم من المماطلات ، فقد نفذ اتفاق (ايفيان) بالتدريج، فقد أُفرج عـــن المعتقلين السياسيين الجزائريين من قبل السلطات الفرنسية ، وعاد إلى الجزائر مئات آلاف اللاجئين ، وخرج رجال جبهة التحرير الوطني من ظروف العمل الـــسري ، وقاموا بحماس بالإعداد لحملة الاستفتاء التي انتهت بانتصار الجبهـــة البـــاهر فـــي ٢تموز ١٩٦٢، وفي ٣ تموز ١٩٦٢ اعترفت فرنسا رسمياً باستقلال الجزائر ، أي بعد ظهور نتائج الاستفتاء ، حيث بعث الرئيس الفرنسي (شارل ديغول) إلى الـــسيد عبدالرحمن فارس رئيس الهيئة التنفيذية المؤقتة للجمهورية الجزائرية رسالة تحمـــل الاعتراف باستقلال الجزائر ، واعتبر الخامس مـــن تمـــوز عـــام ١٩٦٢ التـــاريخ الرسمي لاسترجاع السيادة الوطنية التي سُلبت في ذات اليوم من سنة ١٨٣٠، فبعد أن كان يوماً للحداد الوطني أصبح يوماً للاستقلال ، لقد خلّفت الثـــورة الجزائريـــة

مدرسة نضالية شاملة ، ليس للجزائر فحسب بل لحركات التحرير في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، وقد شارك الكثير من شعوب العالم في استخدام الطرق والأساليب في حل القضايا الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية التي اختارها المجاهدون الجزائريون من اجل الاستقلال الحقيقي والتقدم الاجتماعي ، وكانت لها حافزاً أدبياً ومثالاً عملياً يحتذى (السيد، ١٧٩:٢٠٠٤) .

ترأس أول حكومة في الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، أحمد بن بيلا ، وهو أحد زعماء النضال المعادي للاستعمار مدعوماً من جبهة التحرير الوطني والجيش ، وكذلك تولى محمد بو خروبة (هواري بومدين) القيادة العامة للجيش ، وقد غلب على هذه التشكيلة الحكومية الطابع والنهج الاشتراكي المضاد للرأسمالية (العقاد، ١٦٩:١٩٦٣) غير أن نخبة من رجال جمعية العلماء لم تلبث أن اشتبكت مع أيدلوجيا ما بعد الثورة ، عندما انحرف تيار اليسار بالثورة عن مسارها من خلال تبني الاشتراكية بعد القفز على وثيقة بيان أول تشرين ثاني ١٩٥٤ التي حددت فلسفة الثورة وأهدافها المتمثلة في إقامة الدولة الجزائرية ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية .

بعدما حازت الجزائر على استقلالها عام ١٩٦٢ بقوة السلاح ورباطة الجأش ، فانتصرت على المستعمر الفرنسي ، وتمكن الأبطال المجاهدين من طرده ، وكان أن سارع بعض الانتهازيين والعلمانيين للسيطرة على مقاليد السلطة في حين كان العشب برمته مبتهجاً بفرحة الاستقلال ؛ فقام بعض المصلحين بنصح وتوعية الناس بأهداف الثورة ، وقام المصلحون من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتوعية الشعب بالإسلام ، تلك الجمعية التي تحمل هي وأعضائها أنفاس ابن باديس التحررية ، كما قامت الجمعية في أثناء الثورة الشاملة الحاسمة بإمداد الثورة بالرجال ، وتعبئة الشعب للالتفاف حولها ، إذ انخرط رجالها واتباعها في صفوف جبهة التحرير الوطنية ، وأبلوا في النضال بلاءً حسناً وكان منهم شهداء . إلى جانب العمل التربوي والجهود الهامة للإمام ابن باديس في الحفاظ على اللغة العربية والإسلامية ، فقد ربى قيادات تولت مقود ثورة الجزائر المظفرة التي قدمت مليونا

ونــصف المليــون شــهيد ، فتحقــق الاســتقلال بمــشيئة الله وجهــاد الأحــرار (بوطمين،١٩٨١:١١٧) .

وأخيراً يقول ابن باديسي : " ما عهدنا الحرية تعطى ، إننا عهــدنا الحريــة تؤخذ ، وما عهدنا الاستقلال يوهب ويمنح ، إننا علمنا الاســتقلال ينــال بالجهــاد والاستماتة والتضحية " (ابن باديس،١٩٦٨:٣٧٥) .

لقد نوّع ابن باديس في أسلحته (تعليمــاً مدرســياً ومــسجدياً ، وصــحافة ، وخطابة ، وجولات يومية وأسبوعية) ، كما اخترق معظم المواقع لخوض معركته، منوعاً في المكان ، حتى صارت الدكاكين الصغيرة تتوقف ساعات عــن صــرف الدقيق أو العدس أو السكر أو القهوة لزبائنها ، لتصرف مجاناً إلى العقول والقلــوب الفكر الوطني الإصلاحي الهادف إلى تحرير الجزائر ، فلا يخرج المــواطن مــن الدكان بعلبة طماطم مثلاً ، بل شحنة معنوية هائلة من متفجرات خارقــة للأعــداء والعملاء ، ومن تلك الشحنات وغيرها جاء مــيلاد ثــورة التحريــر ١٩٥٤ التــي انتزعت الاستقلال عام ١٩٦٢ من براثن الاستعمار الفرنسي الغاشم . ألــم يــصب الامام ابن باديس كبد الحقيقة حين قال :" شغلني تأليف الرجال عن تأليف الكتــب؟" (قينة،٢٠٠٠:٤٢).

إذا تأملنا في شخصية هذا الاستراتيجي الكبير (الإمام ابن باديس) ، نستطيع التــيقن أن الاستقلال الذي انتزعه المجاهدون الجزائريون ، ما هو إلا إحدى ثمرات جهــود الإمام التربوية والفكرية ، خاصة بعد أن حمل تلاميذه ورفاقــه وأعــضاء جمعيــة العلماء التي أسسها ، رحيق فكره التحرري عقب تأهيلهم باعتماد القــرآن الكــريم (محور الإصلاح) والسنة النبوية المطهرة ، وجهوده في المحافظة علــى شخــصية الجزائر العربية الإسلامية.

الفصل السابع:

الخـــاتمـــــة

إن ابن باديس تميز عن غيره من المصلحين الإسلاميين في أنه لم يدع إلى قومية أو أممية إسلامية ، أي وحدة العالم الإسلامي ، بل إنه استنبط استدلالاته في طروحاته من الإسلام وسيرة العرب في القرآن الكريم ، لتمجيد العرب وحضارتهم وإثارة النفوس نحو التاريخ المضيء للعرب والتمسك به في مواجهة دعوات التذويب الثقافي والفرنسة ، وقد استخدم ابن باديس سلاحي التعليم والصحافة في إعداد المجتمع للثورة والاستقلال ومـــن خلال جمعية العلماء المسلمين ومدارسها ، والصحف التي أصدرها اســـتطاع أن يخلـــق جيشاً من المثقفين والوطنيين الذين التفوا حوله .

يعتبر الشيخ عبدالحميد بن باديس رائد النهضة الثقافية والسياسية والاجتماعية في الجزائر ، وهو الذي قاد الحركة الإصلاحية هناك ، كما أرسى دعائم التربية والتعلـــيم ، وأوجد جيلاً من الشباب الجزائري الذي أخذ على عاتقه مهام الثورة بعد وفاته ، عنـــدما وصلت المحاولات السلمية للمصلحين ورواد النهضة في الجزائر إلى طريق مسدود . لقد أكد المنهج النبوي على أن عمليات الإصلاح ومحاولات التغيير، تبدأ من تحرير الإرادة ، وتحرر الضمير يبدأ من داخل النفس ، ذلك أن القيام بأي عمل مؤثر في الواقع الثقافي أو السياسي أو الاجتماعي ، غير ممكن قبل تحرير الإرادة وانعتاق الضمير من رواسب ذلك الواقع وتأثيراته ، الأمر الذي يمكّن من إعادة صياغة الإنسان ، وإعادة تشكيله ، باعتباره أداة التغيير وهدفه في وقت واحد، وعلى الرغم من أن الإنسان نفسه يتأثر بالواقع ، لكنه في ذات الوقت يؤثر به .

نكران الذات في نضال ابن باديس ، وإخلاصه في عمله ، وصدقه في القول والفعل، أسهم في حشد الجزائريين حوله خصوصاً ، وحول جمعية العلماء المـــسلمين الجزائـــريين عموماً ، فبدأ معركته الكبرى من البداية متنقلاً في أرجاء الوطن ، معرّفاً بأهدافها ، داعيـــاً إلى العمل واليقظة فيه ، في مواجهة قوى البغي والفساد ، والطغيان المحلي والاســـتعماري من دون سهو عن أعداء العروبة والإسلام خارج الجزائر . وفي الجزائر خـــاض معاركـــه الضارية ، في حلقات التعليم المسجدي، وفي المدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء ، وفـــي خطبه النارية ، في النوادي وحتى في المستودعات والأسواق والساحات العمومية والمحلات التجارية التي تستحيل نواد عامرة بشؤون الفكر والإصلاح والحرية . هذا فضلاً عن مقالاته الصحفية ، معرضاً بالاستعمار وأعوانه ، حتى من أولئك الـــذين لبـــسوا رداء الـــدين مـــن

المتصوفة ، ليمكنوا للاستعمار الفرنسي وليسهلوا عليه إبقاء الشعب الجزائري في خانة التخلف ، مواجهاً الاستعمار الفرنسي ، بلغة السياسة تارة ، وبلغة المنطق تارة أخرى ، وبلغة العنف عند الضرورة، وكل همه حتى آخر نفس في حياته ، عزة الجزائر والعروبة .

لقد سئل هذا المعلم الجزائري ، المفكر ، وأستاذ الجيل رجل الإصلاح عبدالحميد بن باديس يوماً عن عدد الكتب التي ألفها ؛ فأجاب ببداهة تامة : لقد شغلني تأليف الرجال عن تأليف الكتب ، فكان رده صدى لشحنة المعاناة ، وخلاصة التجربة المضنية ، وروح المهمة التي وهب نفسها لها نحو سبع وثلاثين سنة جندياً من جنود الكلمة فكراً وكتابةً وتعليماً وجهاداً .

برز الوعي القومي وتجسد في فكر ابن باديس في تناوله للقضايا القومية . نرى ذلك واضحاً في تأكيده على الشخصية الوطنية الجزائرية العربية ، وتأكيد عروبة الجزائر في مواجهة الإندماج والفرنسة ، وكذلك تأكيده على اللغة العربية ، والتي عدها الرابطة التي تربط الماضي بالحاضر والمستقبل ، وهي لغة الدين والجنس والقومية والوطنية ، وهي مقياس تلك الوطنية والقومية ، وأيضاً التأكيد على دور العرب في التاريخ ، ثم تحديده مفهوم القومية باعتبارها مجموعة مقومات ومميزات تميز شعباً عن آخر ، كاللغة والعقيدة والذكريات التاريخية والشعور المشترك .

إن مسألة الوحدة السياسية بين العرب تأخذ أيضاً حيزاً مهماً في طروحاته ، إذ أنه يؤكد على ضرورة إنجاز الوحدة السياسية بين الأجزاء المستقلة للوطن العربي ، حتى تتمكن من تنفيذها والدفاع عنها ، ثم تحقيق الوحدة الشاملة .

تمثل كل تلك السمات لدى ابن باديس ، وعياً قومياً متقدماً دعا إليه الشيخ ابن باديس في كفاحه المستمر الذي أثمر حركة فكرية سياسية ثورية تحررية ، كان لها الفضل في استقلال الجزائر ، وتخلصها من الاستعمار الفرنسي البغيض وارتدائها ثوب الحرية ، لقد لعب الطابور الخامس دور العمالة للاستعمار ، وتمثل في بعض الطرق الصوفية ، ويعتبرها ابن باديس من الأسباب الموضوعية التي كانت تقف من وراء بقاء الاستعمار الغربي الفرنسي ، في ارض الجزائر العربية . صاغ القرآن الكريم نفس ابن باديس ، وهز كيانه واستولى على قلبه ، فاستوحاه في منهجه طوال حياته ، وترسم خطاه في دعوته ، وصاحبه طوال ربع قرن من الزمن في سبيل الكفاح لبناء الأمة وإرجاعها إلى الحقيقة القرآنية ، منبع الهداية الأخلاقية والنهوض الحضاري ومحور الإصلاح ،

فكان هم ابن باديس أن يكون رجالاً قرآنيين يغيرون الأمة ، حيث وضع القانون الأساس لجمعية العلماء المسلمين على قواعد من الدين والعلم ، لا تثير شكاً ولا تخيف ، وكانت الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت تستهين بأعمال الشيخ ابن باديس ، فخيب ظنها ، وتعهد النبت ، وفاجأ الفرنسيين بجيل قام بتربيته على أسس إسلامية هدفه تحرير الجزائر .

وأما من جهة التحقق من الفرضية ، فإن دراستنا الموسومة ، الفكر التحرري عند عبدالحميد بن باديس وأثره في استقلال الجزائر ، جاءت مؤكدة لصحة الفرضية التي قامت عليها الدراسة ، وذلك بأن البيئة السياسية وراء كل فكر سياسي وأن الفكر يتصف بصفة قائمة على الحرية في حالة البلدان المحتلة ، كما أن للفكر التحرري عند ابن باديس أثراً ساهم في تمكين الجزائر من الحصول على استقلالها.

إن ما ذهبنا إليه لتأكيد صحة الفرضية هو الأسباب الآتية :

١- الفكر التحرري الباديسي جاء وليد الظروف التي عانت منها البيئة الجزائرية تحت الاستعمار الفرنسي ، ذلك الاستعمار الذي أذاق الجزائر الويلات ، فسلب حرية الشعب الجزائري ، واحتل بلادهم ، وهدم دورهم وخرب مساجدهم ، وعاث في بلادهم يفسد الأخلاق والتربية والتعليم والأوقاف وخنق حرية الرأي والعبادة ، فما كان من ذلك المجتمع إلا أن أخرج من بين صفوفه عالماً ثائراً مفكراً ، هو ردة فعل على تلك الأوضاع ، واستطاع بفكره في النهاية أن يحاصر فرنسا ، حيث أن فكره وليد بيئته ، ينشد الحرية التي منعت فرنسا هواءها أن يهب على الجزائر .

٢- البلاد المحتلة من قبل الاستعمار ، يكون هاجسها الحرية ، فكيف ببلد كالجزائر استعمرته قوة غاشمة مارست عمليات إبادة جماعية ، وكممت أفواه الناس وحددت حركاتهم وسكناتهم ، بل حتى حظرت عليهم تعلم لغتهم ودينهم . إذن فالفكر الناجم عن تلك البيئات ، والذي يأتي بعد إرهاصات ومخاض ، هو فكر ديدنه الحرية ، بل إن الشيخ ابن باديس يعتبر أن حق كل إنسان في الحرية كحقه في الحياة ، وقيام الشيخ بتأهيل الشعب كان بهدف قيام ذلك الشعب بالثورة ونيل الحرية والاستقلال بدحر الاستعمار والتغلب عليه .

٣- إن القرآن الكريم هو محور الإصلاح في الفكر الباديسي ، ومداره أيضاً ، وقد كانت جهود ابن باديس تستهدف ثلاثة أبعاد اختزلها في الشعار المأثور : الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا ، وهي أبعاد جند لها ابن باديس وقته وطاقته من أجل تكريسها واقعاً تاريخياً حياً ملموساً ، صاغ على أساسها مشروعه النهضوي . لقد أخرج

الفكر الباديسي التحرري الشعب الجزائري من ظلمة الجهل والكبت والاستعمار إلى فضاء آخر استطاع ذلك الشعب من خلاله أن يطالب بالحرية والاستقلال ثم يواجه المستعمر الفرنسي ، الرافض لمطالبه ، بالثورة العارمة الكبيرة التي نال من خلالها استقلال البلاد الجزائرية ، فابن باديس شغله تأليف الرجال عن تأليف الكتب ، واستطاع هذا الاستراتيجي الكبير أن يرسم خطاً متميزاً من حيث أصالته وتفرده وتأسيسه لعمل جماعي منظم مؤثر عبر جمعية العلماء حقق من خلالها أهدافه الكبرى . لقد أفضت بنا الدراسة إلى العديد من الاستنتاجات استوجبت هي الأخرى عدداً آخر من التوصيات ويمكننا إبراز أهمها كما يلي :

أولاً : الاستنتاجات : إن هذه الدراسة أوصلتنا إلى عدة استنتاجات أهمها :

١- إن العوامل المؤثرة والظروف البيئية التي تحيط بشخصية أي مفكر هي التي تصيغ فكره وفقاً لهذه الظروف إما انسجاماً وإما تنافراً وصداماً .

٢- إن آثار العوامل والظروف البيئية التي تؤثر في شخصية المفكر لا تنسلخ عن فكره حتى يحقق أهدافه أو يموت دونها .

٣- إن العمل السياسي والتربوي وكذلك الصحفي ضرورة من الضرورات التي على المفكر الذي ينتهج درب التحرير الإنخراط بها ، والعمل في اتونها ، وبالتالي يكون له لون خاص يعرف به .

٤- إن مقدرة المفكر التحرري على ربط أهدافه التي يرنوا إلى تحقيقها مع أصالة بيئته التي أثرت في شخصيته ، يكون له التأثير الكبير في صفوف من يسوق بينهم فكره .

٥- إن أي فكر تحرري يراد له النجاح لا بد من أن يتضمن جانبين ، الأول إصلاحي لتغيير المجتمع من حالته المتردية إلى حالة أكثر صلاحاً تتجاوب مع متطلبات التحرير ومقتضياته ، والثاني سياسي لتحديد الرؤية التي سيفضي إليها التحرير .

٦- إن إحياء الأبعاد القومية كاللغة وامتداداتها ، والتاريخ على سبيل المثال تعزز فكرة النفور من الآخر والمضي في طريق التحرير مهما بلغت التكاليف.

٧- إن التركيز على القرآن والسنة واعتبارهما ركيزة الفكر التحرري لأي مفكر وأي شعب اسلامي يعني ترسيخ أيديولوجية الجهاد في نفوس النشئ الذي لا يرضى للتحرر من قيد الاستعمار بديلاً .

٨- إن إعطاء دور للعلماء يعني تحرير العقول أولاً وهذا المطلوب قبل تحرير البلاد والشعوب،لكون العقول هي التي تضيء الطريق لطالبي التحرير وفق منهجية واضحة.

٩- إن من علامات نجاح الفكر التحرري الثورة إذا ما اشترك فيها معظم أبناء الشعب الراغب في التحرر.

١٠- إن اشتداد الثورة وزيادة وتيرة العنف في البلاد المستعمرة (بفتح الميم) ، يعني فقدان سيطرة المستعمر (بكسر الميم) على زمام الأمور في البلاد المستعمرة ، وهذا يتناسب عكسياً فكلما زاد التوتر واشتدت الثورة ، ضعفت السيطرة ، فالتصعيد يفقد المستعمر (بكسر الميم) سلامة نهجه .

١١- إن وعي الشعوب مهما تغيب لا بد من أن يأتي اليوم الذي يرتد به بصيراً ، والذي يعيده الفكر التحرري القابع في عقلية المفكرين .

١٢- إن الأثر الأكبر الذي يتركه الفكر التحرري والذي على شاكلته فكر عبدالحميد ابن باديس يترجم بالثورة أولاً وبالاستقلال ثانياً .

١٣- إن الفكر التحرري الهادف إلى استقلال البلاد من نير المستعمر (بكسر الميم)، يجب أن يتجدد أو يتحول أو يتحور إلى فكر آخر يتناسب والمرحلة الجديدة المتمثلة في مرحلة ما بعد الاستقلال إذا ما أراد أن يقود البلاد في تلك المرحلة.

١٤- أن لا نكتفي بالتعريف بالشيخ ابن باديس من خلال حلقة بحث أو عقد مؤتمر ، بل أن يتم إدراج ابن باديس في قائمة المفكرين الذين على شباب الأمة ممن هم على مقاعد الدراسة الاطلاع على تراثه الفكري لما له من فائدة كبيرة تؤدي إلى توسيع دائرة المعرفة بشخص ابن باديس .

ثانياً : التوصيات : إن الاستنتاجات السابقة والمستوحاة من الدراسة اقتضت عدة توصيات يمكن لمنظمة العالم الإسلامي والجامعة العربية أن تأخذ بها لتحرير بلدانها التي تقع تحت نير الإحتلال أياً كان نوعه وهذه التوصيات هي:

١- وجوب اعتماد القرآن الكريم والسنة الشريفة في حركات الإصلاح والتغيير في البلدان المحتلة في العالم الإسلامي ، بعيداً عن أساليب المجادلة العقيمة والبدع الدخيلة ، لأن ذلك المنهج يوصل تلك الحركات إلى أهدافها وغاياتها في التخلص من الاحتلال وفي دحر وهزيمة الاستعمار .

٢- إن أفضل وسيلة للتخلص من واقع الأمة الإسلامية التي تسودها حالة من الفوضى والتخبط والصراع الفكري ، وعدم الانسجام في مواقفها ، يتمثل في الإعداد التربوي الإسلامي للجيل ، وفي نشر المفاهيم الفكرية الإسلامية في السلوك الاجتماعي لأبناء الأمة قبل مطالبة الحكومات بالتغيير ، لأن مثل هذه المفاهيم ستجعل الحكومات تتبع سياسات تنسجم مع السلوك الاجتماعي النابع من مفاهيم الإسلام ، وهذا ما فطن له ابن باديس.

٣- تشجيع الالتزام بالفكر الذي يزاوج بين التفتح العقلي على الحياة المعاصرة وبين الالتزام بالأصول الدينية الإسلامية الصحيحة ، كما نادى به ابن باديس .

٤- محاربة البدع والخرافات التي تشوه صورة الدين الإسلامي ، ومحاربة أهل التطرف والتكفيريين ، لأن مثل هذا أو ذاك يؤدي إلى إعطاء الاعلام الغربي مادة إعلامية تشوه صورة العرب والمسلمين أمام الرأي العام العالمي ، مما يؤدي إلى إجهاض أي فكر تحرري على اعتباره قد يسوق للرأي العام أن القائمين عليه أهل إرهاب .

٥- إنشاء مركز دراسات وأبحاث وتنشيط البحث العلمي في العالمين العربي والإسلامي وذلك من أجل استناد القرارات التي تتخذ على قاعدة علمية تؤدي إلى نتائج مقبولة تعود بمردود إيجابي على الأمة .

٦- إنشاء فضائيات عربية إسلامية ذات رسالة قومية تُسمع العالم عدالة القضايا العربية الإسلامية والمشفوعة بالحجج والبراهين الدالة على تلك العدالة ، وعدم ابقاء القضاء حكراً على الآخر يُسمع العالم ما يريد .

٧- يجب أن يتم إزاحة اللثام عن وجه كل القوى الغربية الطامعة في الوطن العربي التي تدعي تبنّي الحرية وحقوق الإنسان ، حيث أن ما قامت به في الجزائر وفلسطين والعراق وفي كل الأقطار العربية والإسلامية يخالف أبسط قواعد الحرية وحقوق الإنسان، وهذا ما يساند مطالبة كل الدول العربية التي حط بها رحال الاستعمار بالإعتذار عن سنوات الاحتلال ، وبالتعويض المادي أيضاً.

وأخيراً ، لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، هذا المبدأ الذي أتى به الإمام مالك ابن أنس ، وتبناه ابن باديس نهجاً عملياً وهو اعتماد شريعة الإسلام حتى تحتل هذه الأمة مكانتها الحقيقية بين الأمم ، وتعود لها كرامتها وعزتها .

والله من وراء القصد

والحمد لله رب العالمين

* الملحق رقم " ١ "

الوقائع والأحداث السياسية في الجزائر العربية

١٢٤٦ – ١٢٤٨هـ

١٨٣٠ – ١٨٣٢م

تاريخ الوقائع والأحداث السياسية	أهم الوقائع وأبرز الأحداث السياسية
١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م	انهزام الماريشال دوبورمون عن البليدة يوم ٦صفر/٢٨ جون وانكسار الجيوش الفرنسية واستئصال أغلبها – استيلاء جيوش الاحتلال على المدية حاضرة تيطرى يوم ٦جمادى الثاني٢٣نوفمبر – الاستيلاء على وهران صلحاً يوم ٩ رجب/٢٥ ديسمبر ثم سقوط بونة – عنابة – ثم كان استرجاع ولاية تيطري على يد ابن أبي مرزاق ، وظهور الزعيم الحاج علي بن السعدي بجبال زواوة – انعقاد الهدنة مع أعيان الجزائر .
١٢٤٧هـ / ١٨٣٢م	نقض عهد الهدنة من طرف الفرنسيين واندلاع لهيب نار الحركة الثورية بالجزائر – مبايعة أهل مقاطعة وهران لسلطان المغرب الاقصى وسخط فرنسا على ذلك – اشهار السيد محي الدين والد الأمير عبدالقادر السلاح ضد القوات الفرنسية وانتصاره في معركة خنق النطاح قرب وهران في شهر ذي الحجة /مايو – انهزام الفرنسيين في واقعة برج رأس العين وتقهقرهم إلى وهران .

* عبدالرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، الجزء الرابع ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ١٩٩٤، صفحة٥٨.

١٢٥٣ – ١٢٦٦هـ

١٨٣٧ – ١٨٥٠م

تاريخ الوقائع والأحداث السياسية	أهم الوقائع وأبرز الأحداث السياسية
١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م	سقوط قسنطينة – رجب، اكتوبر – استيلاء الأمير على الجنوب الشرقي الجزائري – واقعة عين ماضي ربيع الأول – جوان – احتلال قالمة
١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م	انشاء أول اسقفية كاثوليكية بعاصمة الجزائر .
١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م	اعتداء الفرنسيين على مقاطعة الجزائر الحرة ونشوب الحرب من جديد في رمضان – ديسمبر – وثورة متيجة .
١٢٥٥هـ / ١٨٤٠م	واقعتا ابي هبير وبوفاريك – شوال جانفي – واغارة الجزائريين على ولاية وهران – ذو القعدة ، جانفي – وانهزام الماريشال فالي عن المدية .
١٢٥٦هـ / ١٨٤١م	عودة الماريشال بيجو إلى الجزائر .
١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م	احتلال كل من المدن الثلاث / تاكدمت ومعسكر وسعيدة .
١٢٥٧هـ / ١٨٤٢م	احتلال مدينة تلمسان وقلعة سيدو ، واحراق محلة القيطنة محتد الامير عبدالقادر .
١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م	واقعة الزمالة الشهيرة واستيلاء الجيش الفرنسي عليها .

* الملحق رقم " ٢ "

الثورات والمقاومة في الجزائر العربية

(١٨٣٠ – ١٩٦٢)

– جدول لمجمل المقاومات –

أشكال المقاومة الثورات ، المقاومات، الانتفاضات ، الهجرات	تاريخ بداية ونهاية المقاومات	المناطق ، الأمكنة ، النواحي ، القبائل	الزعماء ، القادة ، الزوايا
ثورة الأمير عبدالقادر	٢٢ نوفمبر ١٨٣٢ ٢٣ ديسمبر ١٨٤٧	الطيطرى (المدية) ، سيباو ، الزيبان (بسكرة ، الصحراء ، مليانة ، معسكر تلمسان ...	الأمير عبدالقادر (القادرية)
مقاومة / أحمد باي	١٨٣٧–١٨٤٨	قسنطينة (بايليك الشرق) ...	احمد باي
ثورة بومعزة	١٨٤٥ ١٣ افريل ١٨٤٧	الظهرة ، وادي الشلف، لوارسنيس ، الطيطرى ، الحضنة ، مستغانم ، أولاد رياح ، السبياح ...	محمد بن عبدالله الملقب ببومعزة . (الطيبية)
مقاومة الزعاطشة	١٨٤٨– نوفمبر ١٨٤٩	الاوراس (وادعبدي) والزبيان ، الزعاطشة (بسكرة)، بوسعادة	بوزيان (مرابطة) الشريف بو عمار
مقاومة الاغواط وتوقورت	٤ديسمبر١٨٥٢ ٢٩نوفمبر ١٨٥٤	الأغواط ، توقرت ، اتحاد الاربعاء ...	الشريف محمد بن عبدالله بن سليمان

* عبدالرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، الجزء الرابع ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ١٩٩٤، صفحة ٣٤٥ – ٣٤٩.

أشكال المقاومة الثورات ، المقاومات، الانتفاضات ، الهجرات	تاريخ بداية ونهاية المقاومات	المناطق ، الأمكنة ، النواحي ، القبائل	الزعماء ، القادة ، الزوايا
ثورة القبائل	١٨٥١ ١١يوليو ١٨٥٧	منطقة القبائل ، بني ايرائن ، بني عيسى ، فليسة الزواوة ، سيباو ، ايشريدن ، آي تاوريت الحجاج ...	لا لا فاطمة الشريف بوبغلة
ثورة الاوراس	١٨٥٨	الاوراس ، البلازمة ، الوادي الكبير ...	محمد بن عبدالله
ثورة بني سناسن	١٨٥٩	بني سناسن ، أنغاد تلمسان ، الغزوات	
ثورة اولاد سيدي الشيخ	مارس ١٨٦٤ – ١٨٨٠	واحة البيض سيدي الشيخ ، جبل عمور الطيطرى ، مدن الميزاب ، صور الغزلان ، تيازت ، فرندة ، عين ماضي الشعانبة ، متليلى ، ورقلة ، الظهرة ، بنا منماصر ، الحساسنة ، جميان مشرية ، أولاد خالد ، سعيدة ، فليتة ، غليزان ، أولاد نهار انغاد ، دوي منيع ، جعافرة ، تيميمون ، ادرار، بني سناسن ، مغنية ، سبدو، ماغورة ، العريشة ، بني واسين ، العمرية ، المقار ، أولاد يعقوب ، السيرسو، الجلفة ، سيدي علي بن يوب (بلعباس) ، بني غيل ...	سليمان بن حمزة ، احمد بن حمزة ، سي لعلى ، بن ناصر ، بو عزيز ولد العربي ، سي قدور ولد حمزة ، سي لزرق ، سي معمر بن الشيخ بن الطيب ، (زاوية أولاد سيدي الشيخ)

أشكال المقاومة الثورات ، المقاومات، الانتفاضات ، الهجرات	تاريخ بداية ونهاية المقاومات	المناطق ، الأمكنة ، النواحي ، القبائل	الزعماء ، القادة ، الزوايا
ثورة جنود الصبائحية	٢٠ جانفي ١٨٧١ نهاية جانفي١٨٧١	سوق اهراس ، الطـــرف (القالـــة)، حنانشة	
ثورة أولاد عيدون	١٤فبراير١٨٧١	قبيلة اولاد عيدون ، الميلية	
انتفاضـــــة المقرانـــــي والرحمانة	١٤مارس١٨٧١ ٢٠جانفي ١٨٧٢	برج بو عريريج ، مجانة ، العلمة ، بالستور برج منايل ، دلس ، تيـــزى وزو، ذراع الميزان ، عين الحمام ، سطيف ، باتنة ، صور الغـــزلان ، الحـــضنة ، توقـــورت ، ورقلـــة ، حجوظ ، شرشال ، بني مناصـــر ، ثاكيكونت ، سدوق ، جيجل ، ميلة ، الميلية ، اشريدن ، بنـــي عبـــاس ، بجاية ...	المقراني ، الشيخ الحداد ، سي عزيز بن محمد بن بلقاسم ، خديجة بنت بلقاسم ، مالك بركاني ، السعيد بن بوداود ، بومزراق . (الرحمانية)
مقاومة العمري	٢٦مارس١٨٧٦ ٢٩افريل١٨٧٦	واحة العمـــري ، الزيبـــان ، قبيلـــة بوعزيد	الشيخ محمد بن يحيى ابن عياش مرابط
ثورة الاوراس	٣٠ماي١٨٧٦ ٩جوان١٨٧٩	الحمام (الاوراس) ، أولاد ثاغـــة ، أولاد دواود ، بني بو سليمان ، بني وجانة ، اللجالة	محمد امزيان بن عبدالرحمن

أشكال المقاومة الثورات ، المقاومات، الانتفاضات ، الهجرات	تاريخ بداية ونهاية المقاومات	المناطق ، الأمكنة ، النواحي ، القبائل	الزعماء ، القادة ، الزوايا
مقاومة بو عمامة	٢٢افريل ١٨٨١ ماي١٨٨٣	عين الصفراء ، تيارت، فرندة، سعيدة، احرار الشراقة ،عين صالح، توات ، قورارة، (دلدول)، بنمي عباس ، كرزاز	بوعمامة بن العربي بن تاج (السنوسية، الطيبية ، (الكرزارية)
ثورة عين التركي "مليانة – مارغريت"	٢٦افريل ١٩٠١ ماي١٩٠١	مليانة ، قبيلة الريفة ...	يعقوب ابن الحاج
ثورة عين بسام	١٩٠٦	عين بسام ...	
هجرة تلمسان الجماعية	١٩١١	تلمسان ، سبدو ، رمشى ، ندرومة ...	
ثورة بني شقران	٢١سبتمبر١٩١٤ نهاية ديسمبر ١٩١٤	بني شقران ، بريغو (المحمدية) معسكر (سيدي دحو) مجاهر ، الغرابة ، هاشم ، فليتة ...	

أشكال المقاومة الثورات ، المقاومات، الانتفاضات ، الهجرات	تاريخ بداية ونهاية المقاومات	المناطق ، الأمكنة ، النواحي ، القبائل	الزعماء ، القادة ، الزوايا
مقاومة الصحراء	منذ ١٩٠٢ فبراير١٩١٦- ١٩١٩	ثاغيت ، المايدة ، فم تلايا ، برج بولينياك ثين الكوم ، القطارة ، حاسي خنيق ، ثاجموت ، تيماسين ، ايشاف (تندرف) تينفوشى ، حاسي الغزال ، حاسي الشعانبة ، تيت ، الهقار ، جانيت مزاب ، ورقلة .	احمد سلطان الشيخ عبدالسلام
انتفاضة ١٩١٦في الاوراس	سبتمبر ١٩١٦- ١٩١٧	عين مليلة ، باتنى ، عين فكرون ، خنشلة ، بريكة ، أولاد عوف ، ماكماهون ، مروانة ، عين توتة ، داور سغانة وسوفيان ، جبال بلازمة بو عاريف ، مستوة .	بن علي بن نوى الشيخ مقدم زغانة
مذبحة ماي١٩٤٥	١-٨جوان١٩٤٥ جوان١٩٤٥	- مظاهرات دامية في وهران والجزائر - مؤامرة "شرشال" . -سطين ، عين الكبيرة ، خراطة ، قالمة ، عنابة ، عين ابسة ، فج مزالة ، زيامة ، منصورية ، اوقاس ، الجميلة، هيلوبوليس ... - سعيدة	
ثورة التحرير	١نوفمبر ١٩٥٤ ٥يوليو١٩٦٢	كل القطر الجزائري	بطل واحد : الشعب

المراجـــــع والمصــــادر

أولاً- الكتب العربية :

- ابن باديس ، عبدالحميد ، (١٩٦٤)، **تفسير ابن باديس** ، إعداد وتــصنيف محمــد الصالح وتوفيق محمد ، الجزائر : دار الكتاب الجزائري .
- ابن باديس ، عبدالحميد ، (١٩٦٨) ، **كتاب آثار ابن باديس** ، اعداد وتصنيف عمار الطالبي ، دمشق :دار اليقظة العربية ، ١ (١).
- ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين ، (بدون تاريخ) ، **لسان العرب** ، بيروت : دار صادر .
- أبو حبيب ، سعدي ، (١٩٨٥) ، **دراسة في منهاج الإسلام الــسياسي** ، بيــروت : دار الشروق .
- أمين ، سمير ، (١٩٩٠)، **الأمة العربية** ، الجزائر : موفم للنشر .
- ايفانز ونوينهام ، غراهام وجيفري ،(٢٠٠٤) ، **قاموس بنغوين للعلاقات الدوليــة،** دبي : مركز الخليج للأبحاث .
- بن عتيق، محمد الصالح ، (١٩٩٠)، **أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصــلاحية والحركة الوطنية بالجزائر** ، الجزائر : مطبعة دحلب.
- بن نبي، مالك ، (١٩٩١)، **في مهب المعركة**، دمشق:دار الفكر.
- بوطمين ، جودي الأخضر، (١٩٨١) ، **لمحات من ثورة الجزائر** ،قــسنطينة : دار البعث.
- بيلي ، فرانك ، (٢٠٠٤) ، **معجم بلا كويل للعلوم السياسية** ، دبي : مركز الخلــيج للأبحاث .
- جدعان ، فهمي ، (١٩٨١)، **أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العــالم العربــي الحديث** ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الثانية .
- جغلول ، عبدالقادر ، (١٩٨١) ، **تاريخ الجزائر الحديث** ، بيــروت : دار الحداثــة للطباعة والنشر والتوزيع .
- الجورشي ، صلاح الدين ، (١٩٨٧) ، **ابن باديس تجربة في الإصلاح** ، تونس:دار الراية .

- الجيلالي ، عبدالرحمن ، (١٩٩٤) ، **تاريخ الجزائر العام** ، الجزائر : ديوان المطبوعات العام.
- حسين ، محمد الحضر، (١٩٥٢) ، **الدعوة إلى الإصلاح** ، القاهرة : المطبعة السلفية .
- حميداتو ، مصطفى ، (٢٠٠٥) ، **عبدالحميد بن باديس وجهوده التربوية** ، الدوحة: مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف القطرية .
- الخطيب ، أحمد ، (١٩٥٨) ، **الثورة الجزائرية** ، بيروت : دار العلم للملايين .
- رابح ، تركي ، (١٩٧٤)، **الشيخ عبدالحميد بن باديس ، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم** ، الجزائر :الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .
- درويش ، ابراهيم ، (١٩٧٥) ، **علم السياسة** ، القاهرة : دار النهضة العربية .
- راشد، أحمد ، (٢٠٠٤) ، **تاريخ أقطار المغرب العربي الساسي الحديث والمعاصر**، بيروت: دار النهضة العربية.
- الزاهري ، محمد السعيد ، (١٩٨٦)، **الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير** ، الجزائر :دار الكتب.
- سعد ، فهمي ، (١٩٨٣) ، **حركة عبدالحميد بن باديس ودورها في يقظة الجزائر**، بيروت : دار الرحاب .
- سعد الله ، أبو القاسم ، (١٩٩٨)، **تاريخ الجزائر الثقافي** ، الجزء السادس ، بيروت: دار الغرب الإسلامي .
- سعدالله ، أبو القاسم ، (١٩٩٢) ، **الحركة الوطنية لجزائرية ١٩٠٠-١٩٣٠**، بيروت : دار الغرب الإسلامي .
- سلطاني ، أبو جرة ، (١٩٨٢) ، **خطوات في العمل الإسلامي كما رسمها ابن باديس** ، قسنطينة : دار البعث.
- السيد ، محمود ، (٢٠٠٤) ، **تاريخ دول المغرب العربي** ، الاسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة.
- شاكر ، محمود ، (١٩٩٦)، **التاريخ الإسلامي "بلاد المغرب"** ، دمشق : المكتب الإسلامي .

- العسلي ، بسام ،(١٩٨٢)، **عبدالحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية** ، بيروت : دار النفائس .
- العسلي ، بسام ، (١٩٨٦)، **نهج الثورة الجزائرية** ، بيروت : دار النفائس .
- العقاد ، صلاح ، (١٩٦٣) ، **الجزائر المعاصرة** ، القاهرة : معهد الدراسات العربية.
- قاسم ، محمود ، (١٩٦٧) ، **الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية** ، القاهرة : دار المعارف.
- قنانش ، محمد ، (١٩٩٣) ، **المواقف السياسية بين الإصلاح والوطنية** ، الجزائر: المكتبة الشعبية.
- قينة ، عمر ، (٢٠٠٠) ، **أعلام وأعمال في الفكر والثقافة والأدب** ، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب .
-مجمع اللغة العربية ، (١٩٧٢)، **المجمع الوسيط** ، بيروت : المكتبة الإسلامية.
- مدكور ، هنري ،(٢٠٠٢) ، **علم الصحافة** ، بيروت : دار الشروق .
- مطبقاني ، مازن ، (١٩٨٩)، **عبد الحميد بن باديس : العالم الرباني والزعيم السياسي**، دمشق : دار القلم .
- الميلي ، محمد ، (١٩٧٣) ، **ابن باديس وعروبة الجزائر** ، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .
- ناصر ، محمد ، (١٩٨٠) ، **الصحف العربية ١٨٤٧-١٩٣٩**، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .
- النجار، عبدالمجيد، (١٩٩٩)، **الشهود الحضاري للأمة الإسلامية** ، ج٣،بيروت: دار الغرب الإسلامية .
- الهزايمة وحنون ، محمد عوض الهزايمة وفتحي عبدالله حنون ، (١٩٩٣) ، **الوجيز في الفكر العربي الإسلامي** ، ط١،عمان : دار صفاء .

ثانياً- الكتب المترجمة :

- جيلسبي ، جوان ، (١٩٥٩) ، **ثورة الجزائر** ، ترجمة : د.عبدالرحمن صدقي و د.راشد البراوي ، القاهرة :الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- عباس ، فرحات ، (بدون تاريخ) ، **ليل الاستعمار** ، ترجمة أبو بكر رحال ، الرباط: مطبعة قضالة .

ثالثاً- الدوريات :

- ابن باديس ، عبدالحميد ، (١٩٣٣)، "كلمة ابن باديس في افتتاح مؤتمر جمعية العلماء المسلمين " ، **جريدة الصراط** (الجزائر) ، الصادرة بتاريخ ١٩٣٣/١١/٢٧.
- ابن باديس ، عبدالحميد ، (١٩٣٧)، " كلمة مرة لأنها صريح الحق ولباب الواقع " ، **مجلة الشهاب** (الجزائر) ، ٩(١٣).
- الإبراهيمي ، محمد البشير ، (١٩٦٤) ، الشيخ عبدالحميد بن باديس ، **مجلة مجمع اللغة العربية** ، (القاهرة) ، ٣١(٨).
- جارودي ، روجي (١٩٨٣) ، "الإعتراف لأهل الفضل بفضلهم" ، **مجلة الثقافة** (بيروت) ٩(٧٦).
- حداد ، عبد المالك ، (٢٠٠٦) ، "الإمام عبد الحميد بن باديس رائد الحركة العلمية والإصلاحية في الجزائر" ، **مجلة القلم** (الجزائر) ، ٨(٢٨) .
- رابح ، تركي ، (١٩٨١) ، الشيخ عبدالحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر ، **مجلة الفكر العربي** (بيروت) ، ٢(٢٣).
- الزيبق ، محمد شريف ، (١٩٧١) ، "الشيخ عبد الحميد بن باديس قائد الحركة الإصلاحية في الجزائر" ، **مجلة الجامعة الإسلامية** (المدينة المنورة) ٦(١٥).
- الشامي ، علي ، (١٩٨١)، "التغريب الثقافي والتربية الإسلامية في الجزائر" ، **مجلة الفكر العربي** (بيروت) ، ٢(٢١) .
- طالبي ، عمار ، (٢٠٠٨)، "النزعة الإنسانية والجمالية عند ابن باديس" ، **مجلة الضفاف** (الجزائر) ، ٢(٢٧).
- عبل ، ساجد احميد ، (٢٠٠٠)، الشيخ عبدالحميد بن باديس والوعي القومي العربي (١٨٨٩-١٩٤٠) ، **مجلة المستقبل العربي** (بيروت) ، ١٣(٢٥٤).
- عويمر ، مولود ، (٢٠٠١)، المصلح الثائر الإمام عبدالحميد بن باديس ، **مجلة المجتمع (الكويتية)** ، العدد ١٤٥٣.
- الميلي ، محمد ، (١٩٨٢) ، الجزائر والمسألة الثقافية : التناقضات الثقافية ، **مجلة المستقبل العربي** (بيروت) ، ٥ (٤٥).